

الجزء الثاني

العلم الإغريقي

تأليف: بنيامين فارنتن ترجمة: أحمد شكرى سالم

مراجعة: عبد الحليم منتصر

تقديم هذه الطبعة: مصطفى لبيب



ميراث الترجمة

1882

عرض شامل ودقيق لتطور العلم الإغريقي على امتداد تسعة قرون، منذ نشأته وصولاً إلى الفترة اليونانية - الرومانية في القرن الثاني الميلادي، مع بيان صلة هذا العلم بسوابقه في الحضارات الشرقية، وعلى الخصوص في مصر وبابل وآشور.

ينطلق المؤلف من الإيمان الراسخ بأن الأفكار العلمية تعبير واضح عن الظروف المادية لمجتمع، وأن الحركات الاجتماعية الكبرى لا يمكن تفسيرها بإرجاعها إلى نفسية الأفراد، وأن العلم في جوهره هو أسلوب في السيطرة على الطبيعة، كما يحرص المؤلف أيضاً على بيان صلة العلم الإغريقي بأصول مدنيتنا الحديثة.



العلم الإغريقي

(الجزء الثاني)

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1882

- العلم الإغريقي (الجزء الثاني)

- بنيامين فارنتن

- أحمد شكرى سالم

- عبد الحليم منتصر

- 2011

هذه ترجمة كتاب:

Greek Science

By: Benjamin Farrington

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: 27354524 - 27354524 فاكس: 27354554

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

العلم الإغريقي

(الجزء الثاني)

تأليف : بنيامين فارنتن
ترجمة : أحمد شكرى سالم
مراجعة : عبد الحليم منتصر
تقديم : مصطفى لبيب عبد الغنى



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

فارنتن، بنيامين.
العلم الإغريقي (الجزء الثاني) / تأليف بنيامين
فارنتن؛ ترجمة أحمد شكرى سالم؛ مراجعة :
عبد الحليم منتصر، تقديم: مصطفى لبيب
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١
١٨٨ ص، ٢٤ سم
١- العلوم عند الإغريقى
(أ) سالم، أحمد شكرى (مترجم)
(ب) منتصر، عبد الحليم (مراجع)
(ج) العنوان

٥٠٩

رقم الإيداع ٢٠١١ / ٥٠٥٠
الترقيم الدولى : 978-977-704-494-7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب
الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى
اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

مقدمة

تناول الجزء الأول من هذا الكتاب قصة العلم الاغريقى من طاليس الى أرسطو ، مستهدفا تحديد أهمية هذه القصة بالنسبة للعالم الحديث .

وامتدت هذه الفترة من عام ٦٠٠ ق . م الى ٣٢٢ ق . م ، وكانت فلسفة سقراط بمثابة نقطة تقسمها الى قسمين . وقد سقنا الحجج التى تجعلنا نعتقد أن الفترة التى سبقت سقراط كانت الفترة التكوينية للعلم الاغريقى . لقد كانت الثمرة التى أثمرتها الحياة العقلية مجتمعا يرقل فى قدر من السعادة .. مجتمعا قام بهجوم عنيف على الطبيعة ، وكان يصور الانسان على أنه كائن عبقرى غنى بإمكانياته ، وقادر على أن يحسن ظروف حياته تحسينا مطردا . وفيما يلى كلمات معلق يتسم بالتقدير لهذه الفترة : « ان التقدم النظرى العظيم تم على أيدي رجال كانوا يعرفون جيدا وسائل الهجوم التكتيكى على الطبيعة ، ويتخذون موقفا ايجابيا فاحصا وتجريبيا الى حد ما » .

ويقرن اسم سقراط بالانتقال من الاهتمام بالفلسفة الطبيعية الى الاهتمام بالسياسة والأخلاق ، وكان هذا الانتقال يمثل تغيرا فى ظروف المجتمع : ان الصورة القوية للانسان وهو منهك فى هجومه على بيئته الطبيعية وصلت الى نهايتها نتيجة لأزمة اجتماعية ، وكان سبب هذه الأزمة هو نمو نظام العبودية ، اذ بلغت السيطرة الفنية على الطبيعة اذ ذاك حدا جعل أقلية من الاغريق تجد فراغا تكرسه للدراسة ، وفى

نفس الوقت هيا لهم توسعهم الجغرافى فرصة استعباد الشعوب الضعيفة والأكثر تأخرا . وتحولت العبودية من نظام منزلى لا ضرر منه الى محاولة منظمة لالقاء عبء الأعمال الشاقة ، مثل حمل الأثقال والتعدين وكثير من العمليات الزراعية والصناعية على أكتاف العبيد الأجانب الذين كان الاغريق ينظرون اليهم نظرتهم الى ملكيات منقولة . وأصبح المثل الأعلى للمواطن أن ينفصل عن العمل اليدوى كلية ، وانتشرت النظرية التى تقول بأن الطبيعة قد خصت — عن عمد — أجناسا من الانسان بالعمل اليدوى بالذات ، وهى أجناس غير جديرة بأن تنخرط فى سلك المواطنين .

وكانت احدى النتائج السيئة لهذا التغير أن انتقل الاشراف على الأعمال الفنية ومعرفة العمليات الأساسية لكثير من فروع العلم الى أيدي العبيد ، وتكون للعلم مثل أعلى جديد كان لفظيا الى حد كبير ومقطوع الصلة بالتطبيق العلمى . كانت الكلمة هى كل ما يعنى المواطن أما العمل فمن شأن العبد . ولقد عبر السير كليفورد ألبوت فى معرض حديثه عن أفلاطون ، الذائد العظيم عن هذا النوع من التفكير بقوله : « مما يدعو للأسف أن أفلاطون كان يحتقر تطبيق العلم على الفنون العملية للانسان ولم يدرك أن بعض الأسس الالامعة للعلم الأكاديمى ينشأ عن هذه الفنون ، فالطبيعة أكثر عبقرية وأكثر تعددا فى الجوانب من أى معمل من المعامل (الطب الاغريقى فى روما ص ٨٤) .

وتتابعت نتائج أخرى سيئة ؛ فقد أدت العبودية الى أن يصبح الغنى أكثر ثراء والفقير أشد فقرا ، فركزت الثروة فى أيدي هؤلاء الذين يملكون المال اللازم لامتلاك العبيد وسلبت الرجل الفقير ، وكذلك الغنى ، كل دافع للبشكار والانشاء ازاء الطبيعة . وكان لدى الرجل

الفقر أيضا ، بوصفه مواطنا ، مثله الأعلى في تجنب العمل اليدوي .
ومن ثم تكونت طبقة من الكادحين الفقراء تختلف عن مثيلتها الحديثة
في كونها منفصلة عن عملية الإنتاج ، وكثيرا ما كان المواطن الفقير يحيا
حياة خاملة طفيلية . لقد عجز المجتمع عن تجنيده للقيام بهجوم لاستغلال
الطبيعة أو عن توفير الظروف التي يستطيع في ظلها أن يقوم بهذا الهجوم
وكان يرغب هو الآخر ، وهو عديم الملكية ، عديم الهدف ، أن يحمل
على أكتاف العبيد ، وبدأ المجتمع يفقد خاصته كتنظيم للمواطنين يهدف
الى الإنتاج المشترك . وأصبح بدلا من ذلك المسرح الذي يتقاتل فيه
المواطنون ، الأغنياء منهم والفقراء ، في سبيل الحصول على ما ينتجه
العبد . كانت هذه هي الظروف الاجتماعية التي انتقل الاهتمام في ظلها
من الفلسفة الطبيعية الى السياسة والأخلاق ، أى من تنظيم المجتمع
لاستغلال الطبيعة الى محاولة منع المجتمع من القضاء على نفسه في حرب
أهلية مستمرة لا فائدة منها .

كتب اللورد أكتون في مقالاته عن الحرية عبارة مخيفة عن المجتمع
الكلاسيكى هي : « كانت نتيجة السياسة القديمة أن قامت دولة مطلقة
أساسها العبودية » . وكانت تلك هي المثالية التي خططها أفلاطون في
كتابه « القوانين » . وكان الشغل الشاغل للأوليغاركية ، كرد فعل
لعدم الأمن وعدم الاستقرار اذ ذاك ، هو تقرير القوانين الملزمة التي
يمكن الاحتفاظ عن طريقها بشكل المجتمع القائم . أما الفكرة القائلة
بأن زيادة سيطرة الانسان على الطبيعة يمكن أن تكتسب بالمجهود
البشرى ويمكن أن تعود بالخير على البشرية ، وهى النظرة التي تميز
بها العصر السابق ، فقد قلت وضوحا ، وكيف لا وقد قطع التاريخ
البطنى ما يزيد على ألف عام قبل أن يختفى نمط المجتمع القائم على نظام

العبيد وقبل أن يصبح التقدم الفنى شيئاً ممكناً ومثمراً للإنسان ؟ وتبعاً لذلك — وباطراد انهيار المدنية الاغريقية — أهمل الموقف الايجابى التساؤلى التجريبي الذى صاحب توسع هذه المدنية فى القرن السادس وأوائل القرن الخامس ، وصار المجتمع يعتمد على مجموعة من القوانين تعضدها حقوق قدسية ثابتة . لقد ابتهج السير كليفورد ألبوت عندما وجد أن الطبيعة « تكشف عن عبقرية وتعدد فى الجوانب وأشياء غير متوقعة » ،

غير أنه لم يتوخ الدقة التامة عندما قال : ان أفلاطون لم يدرك ذلك ، فاقف أدرك أفلاطون جيداً أن الطبيعة تقدم الكثير غير المتوقع ، ولكن الشئ الذى كان يبحث عنه فى الطبيعة انما هو أنموذج للانتظام والنظام والاستقرار لتطبيقه على البشر ، ولذلك فقد ملأته الطبيعة بالخوف . وكان الفلك هو العلم الطبيعى الوحيد الذى تحسن له . وكان — كما رأينا فى الجزء الأول — لا يبجل الفلك الا على أساس شروط معينة هى أن سلوك الأجرام السماوية يجب أن ينزه عن الاختلاف وعدم التوقع وأن ينظر اليه كسلوك منظم منذ الأزل الى الأبد ، وغير قادر اطلاقاً على أن يفاجئنا بحركة غير منتظرة .

وكان النتاج النهائى لتفكير أفلاطون هو صياغة ديانة متكاملة قائمة على حركة النجوم ، ديانة حاكها فى نسيج دولته ، وإيمان فرضه عن طريق القانون . وكان لوجهة نظر أفلاطون هذه تأثير كبير على تلميذه أرسطو فى خدائته ، وهو الذى لعب — بكتاباته الأولى — دوراً كبيراً فى استكمال هذه الآراء وجعلها فى متناول الجميع . ولكنه بعد أن أسس مدرسة الخاصة جاهد من أجل وضع فلسفة تعتمد على مشاهدة الطبيعة وأجراء التجارب عليها ، وجعلها تتبوأ مكان السيادة فى ميدان الفكر

اذ ذاك . وقد تناولت في الصفحات الأخيرة من الجزء الأول من هذا الكتاب ما بلغه أرسطو من نجاح في هذا الجهد ، وعلى وجه الخصوص ما قام به من أعمال ضخمة في ميدان العلوم البيولوجية .

وستتابع في هذا الجزء الثاني من كتابنا سرد القصة ابتداء من ثيوفراستاس حتى جالينوس ، أى أننا سنبدأ مرة أخرى بليسيوم أثينا بعد موت أرسطو عام ٣٢٢ ق . م ، وسنتهى في روما حوالى ٢٠٠ م . وستكون مهمتنا الأولى وصف الخطوات المثيرة التى خطاها العلم بفضل ثيوفراستاس وستراتو اللذين خلفا أرسطو مباشرة على رأس الليسيوم ، ولا شك أنه بوسعنا أن نصف هذه الخطوات بأنها فاتحة عهد جديد لولا أنها فشلت في تشييد هذا العهد . وسيكون هذا الفشل — شأنه شأن ما قاما به من أعمال — محل اهتمامنا الشديد . وسنتقل بعد ذلك مع ستراتو ، الى الاسكندرية وتتبع مصير العلم لمائتين من السنين تحت حكم البطالة فاذا فرغنا من ذلك اتجهنا الى روما ، تلك المدينة الجديدة في حوض البحر الأبيض المتوسط .

ولما كنا نهتم في هذا الجزء من الكتاب — كما اهتمامنا في الجزء الأول منه اهتماما حيويًا بما يعنيه العلم الاغريقى بالنسبة لنا — فاننا لن نختم بموت العلم القديم ، اذ يجب علينا أن نتناول باختصار بعثه في العالم الحديث ، لأن مولد العلم الاغريقى للمرة الثانية أمر في غاية الغرابة . والتطورات الحديثة لم تجعل من العلم الاغريقى مادة من مواد التاريخ القديم الا منذ وقت حديث ، حسب التقدير الزمنى لمؤرخى المدنية . وعندما بدأ العلم الحديث في اظهار دلائل الحياة الزاخرة في القرن السادس عشر أحس كثير من الرواد — وكانوا في احساسهم من الصادقين — أنهم انما يستأنفون التراث الاغريقى القديم الذى انقطع لفترة تزيد على الألف عام . كان عملهم الجديد ، في نظرهم ، امتدادا

للعلم القديم . وكانت الكتب الاغريقية القديمة التى يسرها لهم اختراع الطباعة وظهور نظام الدراسة الحديث ، هى خير ما يمكنهم الحصول عليه ؛ اذ كانت فى الواقع آخر ما كتب فى فروع المعرفة المتباينة . فكتابات جالينوس أو أرشيدس لم تكن تمثل بالنسبة لفسالياس وستيفن فى القرن السادس عشر مجرد آثار تاريخية ، بل كانت خير الرسائل الموجودة فى التشريح والميكانيكا . بل ان الطب الأبقراطى ظل تراثا حيا بالنسبة لرامازينى فى القرن الثامن عشر ، وهو الذى أسس الطب المرتبط بالصناعة ، كما قدم لوكريتياس بفلسفته الأبيقورية الأساس لعلم جديد فى الاجتماع ، استخدمه « فيكو » أعمق رجال الاجتماع المبدعين قبل ماركس . وهناك مثل يسترعى الانتباه ، فقد ظل أحد أمهات الكتب الاغريقية محتفظا بقيمته دون أن يناقسه فيها كتاب آخر حتى قرننا الحالى ، فمنذ جيل مضى كان أوقليدس والهندسة رمزين متلازمين فى المدارس الانجليزية .

كيف مات العلم الاغريقى وهو على مثل هذه الحيوية التى مكتبته من أن يولد من جديد ؟ هذا الموت ثم البعث الجديد ، أو هذا السبات ثم اليقظة هو موضوع بحثنا . وسنصل الى معنى العلم الاغريقى بالنسبة لنا فى محاولتنا حل هذه المشكلة . وسوف نتساءل تبعا لذلك بعد رحلتنا من أثينا الى روما عن طريق الاسكندرية : لماذا انتفض العلم جيا فى البلاد الواطئة وفى ألمانيا وايطاليا وفرنسا وانجلترا بعد أن لف ذراعيه ليروح فى سبات عميق ؟

وعند اثارتنا لهذا السؤال ، وبحثنا عن اجابة له ، سنتبع نفس المنهج الذى اتبعناه فى الجزء الأول ، أى أننا لن نعالج العلم بمعزل عن التطورات الفنية والاجتماعية والسياسية التى نما فى غمارها بل سنعالجه مرتبطا بها .

الفصل الأول

الأكاديمية بعد أفلاطون — اليسيوم بعد أرسطو — ثيوقراستاس وتقد الغائية
ستراتو والمنهج التجريبي في البحث — الكيمياء — الميكانيكا — الموسيقى

الأكاديمية بعد أفلاطون

عندما مات أفلاطون في ٣٤٨ — ٣٤٧ ق . م خلف وراءه نظرة غامضة عن الكون قدمها في محاوراته بشكل فريد جمع بين المنطق والدراما . ولم تكن نقطة الضعف في هذه النظرة أنها لا تجد ما يعضدها في ميدان الجدل وانما بكونها غير قابلة للتصحيح عن طريق الخبرة ؛ فهي لم تكن مخالفة للعقل بقدر ما كانت مضادة للعلم . وكان الازدواج صفتها العامة اذ يعتمل فيها تباين عنيف بين العقل والمادة ، بين الجسد والنفس ، بين الاله والعالم ، بين الزمن والأبدية . وكانت الآراء الأساسية مشتقة من المذاهب الدينية للأورفية ، التي هذبتها المدرسة الفيثاغورية ووضعتها في قالب معقول . وفي حوارهِ الأخير « القوانين » يظهر مذهب مشتق من البارسية ويعبر عن النفس الدنيوية الشريرة . واعتبر هذا السلف للشيطان في المسيحية مسئولا عن أشياء كثيرة منها تلك المذاهب المزيفة التي ينادى بها الذريون ، منافسو أفلاطون . كان أفلاطون يعارض مذاهبهم وينادى :

١ — بمفهوم نمائي للطبيعة .

٢ — بالايان بتناسخ الأرواح .

٣ — بنظرية التدهور المطرد للخلق (فالنساء مشتقات من رجال منحطين وكافة الحيوانات الدنيا من أنماط منحطة من البشر) .

٤ — بتقديس النجوم وعلى الأخص السيارات كأعلى نمط من أنماط الحياة .

وقد حافظ خلفاء أفلاطون على كتاباته في مدرسته ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا لتطوير أفكاره . فلم تكن معتقداته القائمة على الغيبيات التي عددناها قابلة للتطور ، كما أن نظرية المثل بدورها لم تكن قابلة للتطور . كتب هنري جاكسون أستاذ كامبريدج العظيم يقول : « لم تكن الميتافيزيقا أكثر من فترة قصيرة في تاريخ الفكر الاغريقي . لقد بدأت بأفلاطون وانتهت بأفلاطون » .

ونضيف الى ذلك أن الأمل الذي راود بعض الباحثين الحديثين في أن أفلاطون كان يعرض بالأكاديمية فلسفة قائمة على نهج منظم تختلف عن تلك التي عرضها للشعب في محاوراته ، وأنه من الممكن أن نستعيد تلك الفلسفة عن طريق دراسة أرسطو وتلاميذه ، تقول ان هذا الأمل على وشك أن يتلاشى كسراب مضلل . ومن بين التعاليم التي كانت تلقى في الأكاديمية كانت الرياضيات هي الفرع الوحيد القابل حقا للتطور والذي استمرت فيه الأعمال الممتازة . ولم يكن هناك بجانب هذا الا القليل أو لا شيء على الاطلاق . خلف أفلاطون على رأس الأكاديمية ابن خاله سيوسيباس (٣٤٧ — ٣٣٩) . ويذكرنا جاكسون أنه كان من علماء الحياة ولم يكن يتذوق الميتافيزيقا ، كما أنه لم يكن من أساطين علم الحياة . وكان الرئيس التالي زيتوكراتس (٣٣٩ — ٣١٤) ، ويقول عنه جاكسون : « كان رجل أخلاق عطوفا يعلم فلسفة أفلاطون بهدى من روحه الطيبة المؤمنة ، ولكنه لم يكن يفهمها » . وقد

بين التاريخ أن هذا النوع من الأفلاطونيين هو أكثرهم تمسكا وانتاجا ، ويستطرد جاكسون : « ثم جاء بعد ذلك غيره من رجال الأخلاق ، ومن بعدهم رجال معرفة يميلون الى التشكك . وعلى ذلك فلم يكن بالمدرسة من يستطيع الاحتفاظ بتراث فكرى رفيع » . ومن المهم أن ندرك أن الأفلاطونية لم تحقق رقيا حقيقيا خلال العصور القديمة (استمرت المدرسة حوالى ٩٠٠ عام) . كل ما هناك أنها ظلت باقية .

الليسيوم بعد أرسطو

كان نصيب الليسيوم الذى أسسه أرسطو كتعبير عن هجره للأكاديمية ، والذى توصل فيه خلال الثلاثة عشر عاما الأخيرة من حياته (٣٣٥ — ٣٢٢) الى نتائج فذة فى ميدان البحث البيولوجى والتاريخى يختلف اختلافا يينا عن نصيب الأكاديمية ، فقد كان خلفاه المباشرين تيوفرستاس وستراتو عملاقين مثله . وبالرغم من أن المدرسة لم تكن لها من بعدهما تاريخ حق فى أثينا ، الا أنها لم تلفظ أنفاسها الأخيرة الا بعد أن سلمت الشعلة الى متحف الاسكندرية الذى احتفظ بها متوهجة ساطعة لفترة لا تقل عن خمسين ومائة عام . ومن الليسيوم ووليدته متحف الاسكندرية فاض سيل من الرسائل العظيمة المنظمة (١) خلال المائتى عام التى انقضت بين أرسطو وهياركاس ، وهى كتابات تناولت فروعاً متباينة من العلم — النبات والفيزيكا والتشريح وعلم

(١) لاحظ المؤرخ الاغريقى پوليبياس الذى مات عام ١٢٢ ق . م ، وهو فى سن الثانية والثمانين ، (فى كتابه « التاريخ » ، الجزء العاشر ، صفحات ٤٧ ، ١٢) ما يلى :

« ان كافة فروع العلم قد تطورت لدينا بحيث أصبح التعليم فى أغلبها منظما ومبويا » .

وظائف الأعضاء والرياضيات والفلك والجغرافيا والميكانيكا والموسيقى وقواعد اللغة . وكانت تحتذى الى حد كبير أعمال أرسطو متضمنة روحها ومطورة لها . وهى اذا ما أضيف اليها بعض المساهمات القليلة من رجال أمثال ديوسكوريدس ^(١) وببليوموس وجالينوس تعتبر الحد الأعلى الذى وصل اليه العلم القديم ونقطة بداية العلم فى العالم الحديث .

مات أرسطو وترك لخلفائه مجموعة كبيرة من الاقتاج فى الفيزيكا والميتافيزيكا والأخلاق والمنطق والسياسة والبيولوجيا . وقد بقيت لنا هذه الكتابات غير أن الاطلاع عليها ليس أمرا سهلا على الاطلاق . ذكر لنا أحد الكتاب القدامى أن أرسطو كان يقوم بنوعين من التعليم ففى الصباح كان مكلفا بتعليم بعض الطلبة المنتظمين ممن أثبتوا كفاءتهم ومقدرتهم على التحصيل وأظهروا حماسة وكفاءة ، وفى المساء كان يلقي محاضرات أكثر شعبية على جمهور أكبر . وعندما علم الاسكندر الأكبر — وكان يتلقى العلم عن أرسطو — بأن مواد المحاضرات الصباحية قد تم نشرها ، كتب الى أستاذه معترضا : « اذا كنت قد نشرت على الجميع ما تعلمناه نحن منك فكيف يتسنى لنا أن نكون خيرا من الآخرين ؟ الحق أتنى أفضل أن أفوق الآخرين علما على أن أفوقهم قوة أو ثروة » . وطمأنه أرسطو بقوله : « ان هذه الدروس الخاصة قد نشرت ولم تنشر فى نفس الوقت ، فلن يفهمها الا من استمع اليها بالذات » . وتلك هى الصفة العامة لكتابات أرسطو التى وصلتنا ، فهى تكون مجموعة من الوثائق والرسائل كتبت بلغة فنية أو شبه فنية ، وتتطلب لفهمها تدريباً

(١) نظرا لأننا لن نذكر « ديوسكوريدس مرة أخرى ، يجدر بنا أن نشير هنا الى أنه ألف كتابا عن المواد الطبية (حوالى ٥٠ م) عدد فيه ووصف حوالى ستمائة نبات طبي . ويقع الكتاب فى ثلاثة أجزاء .

خاصا . أما أسلوبها فبعيد عن التتميق الا فيما ندر ، وهى غالبا ما تأخذ شكل مذكرات عن المحاضرات متكاملة أو غير متكاملة .

وبجانب هذه المادة خلق أرسطو لمدرسته مكتبة ومعامل ، الى جانب منهج للبحث المنظم يتصف بالموضوعية والزغبة فى الوصول الى الحقائق ، الشئ الذى هيا الفرصة لتحقيق الجمع بين توجيه الدراسات والعمل الجماعى وحرية الفكر . ولعلها كانت المرة الأولى فى التاريخ الذى يحدث فيها هذا الأمر . ومن المعروف أن عددا كبيرا اشترك فى تجميع الدساتير الثمانية والخمسين بعد المائة لمقاطعات المدن وهى التى تكون منها الأساس الواقعى لفلسفته السياسية . ولا يستبعد كذلك اشتراك عدد كبير فى جمع المواد الخاصة بكتابات البيولوجية . وتتجلى حرية الفكر ، التى كانت احدى الصفات المميزة لليسيوم ، فى التطورات السريعة التى حدثت هناك وفى الآراء المتباينة لأولئك الذين كانوا يعملون هناك فى نفس الوقت . وفى الجيل الذى أعقب أرسطو شهدت المدرسة انقساماً فى رأى حول الحياة النشطة والحياة النظرية ، أيهما أفضل من الأخرى . وهناك مثل يكشف فى وقت واحد عن تقسيم للعمل وعن نظرة جديدة لأهمية تاريخ الفكر بالرغم من أن هذه النظرة لم تكن متطورة تماما اذ ذاك . هذا المثل هو تكليف بعض أعضاء المدرسة بالكتابة فى تاريخ مختلف فروع المعرفة . كانت الفلسفة الطبيعية من نصيب ثيوفراستس ، والرياضيات والفلك من نصيب يوديمس ، والهندسة من نصيب زيتوكراتس ، والطب من نصيب مينون ، أما ديكيركاس فكتب فى تاريخ الحضارة الاغريقية . كان هذا هو المعهد الذى برز فى ظله الرجلان العظيمان اللذان سنخصص للحديث عنهما بقية هذا الفصل .

ثيوفراستاس ونقد الغائية

ولد ثيوفراستاس في ارسوس بجزيرة ليسبوس حوالى عام ٣٧٣ ق.م. ومن ثم فهو يصغر أرسطو بحوالى اثنى عشر عاما . وكان أبوه يشتغل بتبييض النسيج ، وكانت وظيفته ذات بال في تلك الأيام . تلك حقيقة تستحق الذكر تماما كحقيقة أن أرسطو كان ابنا لطيب ، فالأطفال الذين كانوا يولدون في أفنية الأعيان حيث يخلص آباؤهم على دخولهم من مقاطعات يشرف عليها ملاحظون من العبيد لم تكن لديهم فرصة طيبة لفهم الجانب العملى من العلم . غير أن ثيوفراستاس في الواقع كان يدرك بشكل عميق أن دور العلم يجب ألا يقتصر على تقديم اجابات على المشاكل المحيرة ، بل عليه أيضا أن يحقق للمرء النتائج المطلوبة في ميدان التطبيق . بدأ ثيوفراستاس تعليمه العالى في الأكاديمية تحت اشراف أفلاطون ، شأنه في ذلك شأن أرسطو ، فلما مات أفلاطون صاحب أرسطو في الليسيوم كتلميذ ثم كصديق ، وخلفه بعد ذلك . مات أرسطو وهو في العقد السابع من عمره . أما ثيوفراستاس فعاش حتى الخامسة والثمانين ، أى أنه عاش نحو خمس وثلاثين سنة بعد موت أستاذه . وكانت السنوات التى ترأس فيها الليسيوم ، من ٣٢٢ الى ٢٨٧ ، سنوات خصبة أثمر فيها العلم أينع الثمرات . وتلك حقيقة لم تحظ دائما بالتقدير الكافى ، فالواقع أن ثيوفراستاس قد حجبه ظلال أستاذه العظيم الى أن تقدمت الأبحاث في الخمسين سنة الأخيرة فبلغت حدا قلب هذه الفكرة السائدة . وانه لواجب محتم علينا اليوم أن ننظر اليه كشخصية مستقلة ، مبدعة بقدر ما هى خصبة الفكر ، حظى صاحبها ، حتى بلغ الخمسين من عمره ، بفرصة الحياة والعمل مع صاحب شخصية من أعظم ما عرف تاريخ العلم . ولقد وفى الدين الذى فى عنقه بأن سبق أستاذه

يخطوات رائعة . ولو أن كتاباته بقيت لكدت على وجه التقريب مجموعة من خمسين جزءا بكل جزء منها خمسون ألف كلمة ، غير أن المتبقى منها لا يزيد على أربعة أو خمسة أجزاء ، وهى كفيلة بأن تدلنا على التقدم الذى أحرزه صاحبها فى ثلاثة ميادين أساسية : الميافيزيقا والبيولوجيا ومذهب العناصر الأربعة .

من بين ما بقى من كتابات ثيوفراستاس كتيب صغير بعنوان الميافيزيقا ويقع فى تسع عشرة صفحة فقط فى طبعة روس وفوريس ، ومع ذلك هو على درجة كبيرة من الصعوبة والأهمية ، انه صعب لأنه من نوع الكتابات الفنية التى لا يتسنى فهمها فهما كاملا الا لمن كان على علم تام بتعاليم اللسيوم ، وهو هام لأنه يثير مسائل رئيسية تتناول وضع علم للطبيعة قائم على المشاهدة . لقد ميز ثيوفراستاس بين دراسة الأسس الأولى ، أى الميافيزيقا ، وبين دراسة الطبيعة وهى ما يسميها الإغريق بالهيزيقا ، وحاول أن يضع الحدود بين كل منهما وأن يوضح ما بينهما من ارتباطات . وهو يخبرنا أن الطبيعة أكثر تباينا وأقل انتظاما ، وتعتمد دراستها على شواهد الحواس فى حين أن الأسس الأولى مجبدة لا تتغير لأنها تتناول مواد الفكر التى لا تتحرك أو تتغير . ثم يضيف أن الناس يعتبرون دراسة هذه الأسس الأولى أكثر عظمة ووقارا . وواضح أنه لم يكن راضيا عن هذه النتيجة وأنه كان يهدف الى تمهيد الطريق بحيث يسمح بتقدم جديد فى العلم القائم على المشاهدة .

وينبغى ألا تنسى أن أرسطو فى كتابه « الميافيزيقا » مهد الطريق لدراساته فى البيولوجيا ، وذلك عن طريق مذهبه عن الشكل اللامادى . (ارجع الى الجزء الأول) والفكرة العامة فى هذا المذهب هى أن الطبيعة العضوية تتاج عملية تفرض فيها قوة تسمى الطبيعة أو الرب على المادة ،

الى أقصى حد ممكن ، أشكالاً معينة تعتبر خيرة نوعاً ؛ فالشكل الانساني
مثلاً شيء خير ، على أن يكون ذكراً واغريقياً وحرّاً . غير أن الطبيعة ليس
في وسعها دائماً أن تفرض على المادة شيئاً رائعاً كهذا . ومن هنا ظهرت
الأشكال الأقل كمالات من النساء وغير الاغريق والعبيد وبخطوة أدنى
الحيوانات بل والنباتات . ولكن بالرغم من أن الطبيعة ليست لها قوة
شاملة فمن المشروع ، ومن الضروري ، أن نتساءل دائماً ونحن ندرس
أعمالها عن الخير الذي هدفت اليه وأن نفترض ، كمبدأ ، أن الطبيعة
لا تأتي عملاً دون هدف .

وثيوفراستاس يريد أن يضع هذا المفهوم بأكمله في ضوء تحليل
جديد . انه يتساءل أولاً عما اذا كانت هناك أية أسس أولى ، أية مواد
للفكر غير الرياضيات فلا يجد شيئاً ، غير أن هذا يؤدي به الى تساؤل
آخر عما اذا كانت أسس الرياضيات قادرة على تفسير الطبيعة . والجواب
عنده بالنفي ، وذلك لسببين غاية في الطرافة ، فهو يقول : ان الأسس
الرياضية ذاتها يبدو أنها ، أولاً ، من صنع الانسان الذي اخترعها أثناء
عملية لباس الأشياء لباس الأرقام والأشكال والنسب ، فليس لها اذن
وجود مستقل ، وأنها ، ثانياً ، غير قادرة على خلق الحياة والحركة في
الأشياء .

وقد أدى به هذا الاعتراض الثاني الى تخمين طريف يصل الى جذر
الفلسفة المثالية ، كانت الحركة ، في الفلسفة المادية السابقة على سقراط ،
هي الحالة التي توجد عليها المادة . ونادى أفلاطون بالرأى القائل بأن
المادة خاملة وأن حركتها أمر يحتاج الى تفسير ، وحاول أن يصل
لهذا التفسير عن طريق اعتبار النفس علة الحركة ، وأدخل بذلك المفهوم
الازدواجي الذي تقوم عليه في نهاية الأمر المثالية بأكملها . انبرى أرسطو

لهذه المشكلة التي خلقها أفلاطون للفلسفة وهي كيف تكون النفس ،
وهي ذاتها لا تتحرك ، مصدر الحركة في الأشياء الأخرى ؟ وأجاب عليها
بقوله : ان النفس تجذب المادة كما يجذب شخص محبوب من يحبه . ان
حركة الطبيعة وحيويتها بأكملها ، ودوران السماوات بشكل خاص ،
ليست سوى محاولة جاهدة من جانب المادة لتقترب من النفس . ويشير
ثيوفراستاس الآن هذه المشكلة برمتها ولا يذكر الحل الذي قدمه
أرسطو الا لكي يرفضه ويتساءل بدوره عما اذا كان من الضروري حقا
تفسير حركة السماوات ، ويعود في الواقع الى الوضع السابق على
سقراط فيقول : « ان الحركة شيء أصيل في الطبيعة بوجه عام وفي
النظام السماوي بوجه خاص ، وعلى هذا فاذا كانت الحيوية كذلك في
جوهر كل شيء طبيعي ، واذا كان الشيء في حركة عندما يكون حيويا ،
كما في حالة الحيوانات والنباتات (فهي ليست حيوانات أو نباتات
الا بالاسم فقط اذا لم تكن متحركة) ، فيكون من الواضح أيضا أن
النظام السماوي في دورانه انما هو في توافق مع جوهره ، واذا توقف
عن هذا الدوران وأصبح ساكنا فانه لا يكون نظاما سماويا الا بالاسم
فقط ، ذلك لأن الدوران انما هو نوع من أنواع الحياة في الكون .
من المؤكد اذن أنه اذا كانت الحياة في الحيوانات لا تحتاج الى تفسير
أو أنها تفسر بهذه الطريقة فحسب ، أفلا يجوز أن ينطبق هذا أيضا في
حالة السماوات والأجرام السماوية فلا تحتاج الحركة الى تفسير أو أنه
حتم أن تفسر بطريقة خاصة ؟ » .

وما أن يدع ثيوفراستاس جانبا بهذه الطريقة كل المحاولات لخلق
مذهب لاهوتي كما فعل أفلاطون وأرسطو وفق معارفهما أو اعتقادهما
عن حركات الأجرام السماوية ، حتى يمضي في فصله الأخير ليضع يديه

على بيت القصيد ، على قاعدة الغائية ذاتها . « أما فيما يتعلق بالنظرة التي تقول بأن كل شيء يهدف الى غاية معينة ولا شيء مطلقا يسير بلا غاية ، فإن تحديد الغايات ليس يسيرا على وجه العموم كما يقال عادة » . وهو يعضد بحجج قوية هذا الاعتراض الذي يسوقه ضد التأكيد الخاطيء عن كونية الهدف والتسرع الذي يحدد به بعض الفلاسفة الغايات للأشياء ، وهو يتساءل : ماهى غاية السيول أو جزر البحر أو الجفاف أو الفيضانات ؟ وفي الحيوان ، ما فائدة الثديين عند الذكر أو الشعر في مواضع معينة من الجسم ؟ ولكن أهم فشل للهدف في الطبيعة وأكثره وضوحا هو ما يتعلق بتغذية الحيوانات وولادتها . فوجود الظروف اللازمة لحدوث كل منهما أو انعدامها ليست الا مصادفة بحتة ، فاذا كانت الطبيعة تقصد امداد الحيوانات بها ، كان من الواجب عليها أن تفعل ذلك بشكل دائم منتظم . وهو ينتقى بعد ذلك أمثلة من أرسطو — دون ذكر لاسمه — أمثلة لطريقة التفسير الغائية لا شيء الا لنيلها ، وهو يرى أخيرا أنه لكي يجد العلم سبيله الى التقدم لا بد من وضع حد لهذه الغائية الخرقاء . ويختتم بالكلمات الآتية : « يجب أن نعمل على وضع حد لتحديد العلل الغائية . هذا هو الشيء الأولي الذي تتطلبه كل دراسة علمية للكون ، أي للظروف التي توجد فيها الأشياء الحقيقية وعلاقات بعضها ببعض » . ومن رأى « سن » أحد علماء النبات ومؤرخي العلم السويسريين أن من الممكن استخدام النقد الذي وجهه ثيوفراستاس بهذه القوة الى الغائية في كتابه « المتافيزيقا » في تأريخ الأجزاء المختلفة التي وصلتنا من كتاباته عن النبات . ونحن لم يضلنا من مؤلفاته عن النبات سوى مؤلفين ، « تاريخ النباتات » ويقع في تسعة كتب و « غلل النباتات » ويقع في ستة . ويعتقد سن ، ويؤيده

في اعتقاده برونيت وميلى ، أن المؤلف لم يقم بهذا التقسيم ، ولكن الذى فعل ذلك هم الناشرون فى متحف الاسكندرية الذين ميزوا الفقرات التى يستخدم فيها ثيوفراستاس المبدأ الغائى من الفقرات التى يتجنبه فيها بحذر ، وجمعوا كلا منها من مجلد مستقل . ومن ثم فإن « علل النباتات » ليس الا مجموعة تمثل كتابات ثيوفراستاس المبكرة التى كتبها وهو ما زال واقعا تحت تأثير أرسطو « الذى فاق غيره من الفلاسفة الطبيعيين فى الكشف عن العلل » (ديوجينيس ليرتياس الجزء الخامس ، ٣٢) ، فكان أن اتبع فيها الوسيلة الغائية للتفسير ، بينما يمثل « تاريخ النباتات » ما كتبه ثيوفراستاس بعد نقده للغائية الذى ألمنا به من كتابه « المتافيزيقا » .

ونحن نقر « سن » على اهتمامه بنقد ثيوفراستاس للغائية ، الا أننا لا يمكن أن نقبل ما انتهى اليه ، فإن ثيوفراستاس ، كما أوضح أحدث الباحثين ، ريجنيو ، لم يناد بالتخلي نهائيا عن المبدأ الغائى بل اقترح فقط وضع حد لاستعماله ، فهو لا يريد التطويع بعيدا بالمبدأ وانما يرغب فى الحيلة التشكيكية عند تطبيقه . ويبدو فى الواقع أنه انتهى الى رأى الحديث جدا القائل بأن افتراض الهدف أو الغاية من أجل شرح الظاهرة أمر غير مقبول بينما جمع الشواهد التى تشير الى صورة الظاهرة نشاط مشروع للعلم . ومما يبين أن هذا هو التفسير الأدق لمنهج ثيوفراستاس أنه لم يستبعد تماما فكرة الغاية فى كتاب « التاريخ » كما أن كتابه « العلل » لا يخلو فى الواقع من نقد للغائية . وليس هناك من سبب وجيه يدعونا الى أن نقلب رأى القائل بأن كتاب « التاريخ » سابق على كتاب « العلل » . ولقد لجأ « سن » الى ذلك لكى يكون منطقيا مع نفسه ، ويبدو أن الحقيقة هى أن نقد الغائية الذى لم تفتقر اليه حتى

كتابات أرسطو (١) أصبح أكثر حرية وجرأة مع ثيوفراستاس ، غير أننا يجب أن ننظر اليه على أنه علامة على مزاجه العلمى المتشكك الذى لم يتغير طول حياته أكثر منه أزمة فى الفكر أعقبت وفاة أرسطو بسنوات قليلة ، أزمة بدأت به مؤمنا بالغائية وأتتهت به مؤمنا بالتجريبية فليس هناك دليل ما على وقوع أزمة ، بينما تتوفر الأدلة على تحفظه المتشكك .

وفى هذا القدر ما يكفى بالنسبة لنقد الغائية كما يبدو فى المؤلفات الخاصة بعلم الحياة . وليس بوسعنا أن نناقش هذه المؤلفات بالتفصيل ولكن يجدر بنا قبل أن نتركها أن نشير الى ما يعد أعظم ما أسهم به ثيوفراستاس فى المعرفة ، ذلك هو تحديده الواضح للفروق بين المملكة الحيوانية والمملكة النباتية . فى الجزء الأول لفتنا النظر الى فقرة شهيرة كتبها أرسطو (أجزاء الحيوانات ، الجزء الرابع ص ١٠) وقال فيها ، مع أفلاطون ، بالنظرية التى تنادى بأن الحيوانات انحدرت عن الانسان ولو أننا تتبعنا أرسطو الى أبعد من ذلك لوجدناه قد استطرد حتى اشتق النبات من الحيوان . وهذه النظرية ليست نظرية ارتقاء بل نظرية انحدار من الانسان الى الحيوانات الى النباتات . وكل ما يعنينا الآن من هذه النظرية هو أنها لا تشتمل على تمييز واضح بين الحيوانات والنباتات . فأرسطو لم ينجح فى تحديد الفرق وأخذ على عاتقه ، فى تنظيم الأبحاث فى اللىسيوم ، مهمة تصنيف المملكة الحيوانية تاركاً النباتات لحواريه ، غير أنه وضع عقبة أولية أمام اقامة علم نبات متماسك ، وذلك باقتراضه تشابهاً بين أجزاء الحيوانات والنباتات ، يكاد أن يسوى بينها . انه لاحظ يحق ما بين وظائف مختلف أجزاء الحيوانات والنباتات من تشابه ولكنه

(١) أجزاء الحيوانات ، الجزء الرابع ، صفحات ٢ ، ٨ .

استنتج استنتاجا خاطئا هو أنها متشابهة مورفولوجيا أى من حيث الشكل .

وقد خصص ثيوفراستاس الفصل الأول من الكتاب الأول من « التاريخ » لتوضيح ذلك ، وفيه يبادر الى وضع يده مباشرة على الفارق الأساسى بين أجزاء الحيوانات والنباتات فنحن نعى بالجزء فيما يتعلق بالحيوان ، شيئا ما أن يظهر حتى يظل موجودا ، الا أن يفقد بسبب المرض أو الشيخوخة أو الأذى ، أما فى النبات فكثير من الأجزاء مثل الأزهار والنورة الهرمية كما فى الصفصاف ، والأوراق والثمار ، تتجدد وتموت كل سنة . وكذلك الفرع النامى الجديد ينبغى أن تشمل هذه المجموعة لأن النباتات تنمو كل سنة نموا جديدا سواء فوق سطح الأرض أو فى باطنها . فاذا ما اعتبرنا كل هذه الأشياء أجزاء من النبات ، وهى فعلا كذلك ، فان عدد الأجزاء فى النبات (بخلاف الحيوان) يكون غير محدود ودائم التغير . ويستطرد ثيوفراستاس فى عرضه لاختلافه مع أستاذه ، دون أن يذكر اسمه كذلك ، فيقول بأن علينا ألا نتوقع تطابقا كاملا بين أجزاء النباتات والحيوانات ، بل وأن نصل الى حد ادخال الثمار فى عداد أجزاء النباتات بالرغم من أننا لا نعتبر صغار الحيوانات أجزاء منها . وهو يصوغ عرضه فى هذه الكلمات القوية : « من العبث أن تفرض مقارنات حيث لا يوجد وجه للمقارنة ، وحيث تصبح هذه المقارنات عقبة فى وجه نمو هذا الفرع من معارفنا » . بهذا الأسلوب القذى الهادىء فصل ثيوفراستاس مملكة الحيوان عن مملكة النبات وارتفع بعلم النبات الى مستوى لم يكن له أن يرقاه قبل الأزمنة الحديثة .

وبنفس العبقرية نقد ثيوفراستاس النظرية التقليدية للعناصر الأربعة . كانت النظرية المعترف بها من جانب المدارس القديمة أن المادة ، أيا كان

تركيبها النهائي ، فانه تبدو للانسان في أربعة أشكال أولية ، التراب والماء والهواء والنار ، ويتميز كل من هذه الأشكال عن الآخر بخواص معينة ، وطبقا لنظرية أرسطو كان التراب جافا وباردا والماء رطبا وباردا والهواء رطبا وناخنا والنار جافة وساخنة . وما الجاف والرطب والساخن والبارد الا أشكال أوجدت المواد الأولية الأربعة التي تكون منها العالم . عن طريق اكتساب المادة غير المتميزة لاثنين منها : وكل عنصر يشارك عنصرا آخر في صفة من صفاته . واعتبرت هذه المشاركة في الصفة أمرا يسهل تحول العناصر بعضها الى بعض . ومن المفروض أن هذا التحول يحدث في الطبيعة بشكل مستمر . ذلك هو الرأي التقليدي كما وضعه أرسطو . وتستين قدرة ثيوفراستاس على السمو بهذا الرأي والتعمق فيه في نبذة من ثلاث وعشرين صفحة هي جزء من رسالته عن « النار » . والفقرة الافتتاحية هي التي تهمننا بوجه خاص . وفيما يلي ترجمتها مركزة بعض التركيز :

تتميز النار دون باقى العناصر بخواص فريدة ، فبينما الهواء والماء والتراب لا تستطيع أكثر من أن يتحول الواحد منها الى الآخر ، تستطيع النار أن تولد نفسها بل وأن تطفىء نفسها أيضا . كما أن شرارة صغيرة تستطيع أن توقد نارا كبيرة ، وتستطيع نار كبيرة أن تطفىء أخرى صغيرة (وقد شرح ثيوفراستاس ما يعنيه فيما بعد ، فنحن اذا قربنا مصباحا من نار فانه ينطفىء) . كما يبدو أنه لابد لتوليد النار من قوة في أغلب الأحيان . ومن الأمثلة على ذلك قدح الصوان على الصلب ، وحك عصي النار بعضها ببعض ، وتوليد النار من الهواء عن طريق تجمع وتصادم السحب . والتباين بين توليد النار بالقوة والتحول الطبيعي

للعناصر الثلاثة الأخرى فيما بينها أمر شديد الأهمية بالنسبة لنا . فنحن
نستطيع توليد النار ولا نستطيع توليد العناصر الثلاثة الأخرى . وحتى
عندما نحفر بئرا ، فاننا لا نكون قد خلقنا ماء ، وانما قمنا بمجرد اظهارها
للعين ، وذلك بتجميعها بعد تفرق . على أن أعظم الفروق وأهمها بين النار
والعناصر الأخرى هو أن الأخيرة قائمة بذاتها ولا تحتاج الى مادة أخرى
ترتبط بها ، بينما النار لا غنى لها عن مثل هذا الوسط — على الأقل
تلك النار التى نحسها بحواسنا . وينطبق ذلك سواء أدخلنا الضوء
فى مفهومنا للنار أو أغفلناه ، وفى الحالة الأولى لابد للضوء من وسط
هو الهواء أو الماء ، وفى الحالة الثانية أيضا فان نار اللهب أو النار
المنبعثة من قطعة فحم متوهجة تحتاج قطعا الى مادة تنبعث منها . واللهب
دخان محترق وقطعة الفحم جسم من تراب . ولا فرق هناك بين نار
اشتعلت فى السماء أو على الأرض ، فهى فى الأولى هواء محترق ، وهى
فى الثانية العناصر الثلاثة مشتعلة أو عنصران منها . والنار بوجه عام
فى حالة توالد مستمر . انها صورة من صور الحركة وهى تبنى اذ تتولد
وتهلك اذا تركت وسطها . ذلك ما عناه القدماء بقولهم ان النار دائمة
السعى وراء القوت . فقد رأوا أنها لا تقوم دون مادة تلتصق بها . أية
حكمة اذن فى أن نسمى النار عنصرا أول وهى لا يمكنها البقاء دون
وسط ما ؟ انها ، كما رأينا ، ليست شيئا بسيطا أو شيئا يستطيع أن يوجد
قبل مادته . قد يؤكد البعض طبعاً أن هناك بالطبقات البعيدة من الجو
نارا نقية عبارة عن حرارة خالصة ، غير أنها فى هذه الحالة لا يمكن أن
تحترق ، والاحتراق طبيعة النار .

من الصعب أن يلم القارىء بما تسجله هذه الفقرة من تقدم علمى
دون اقتباس مطول من أرسطو وهو أمر لا تتسع له صفحات هذا

الكتاب . انها تستمد روعتها من تجميعها للمشاهدات الدقيقة للعمليات الطبيعية والاصطناعية ومن ارتباط الاستدلال فيها بالحقائق المشاهدة .

ويبدو وجه الجدة في آراء ثيوفراستاس عندما نرجع الى مؤلف أرسطو « ظهور الأشياء وفناؤها » ، ونقرأ الفصول الأربعة أو الخمسة الأولى من الكتاب الثاني . عندئذ سنصادف قدرا كبيرا من المنطق وقدرا ضئيلا جدا من المشاهدة ، وعندئذ سنلم بالفرق بين دراسة الفلسفة الطبيعية عن طريق الاستقراء ودراستها عن طريق الحواس . من الواضح أن الـ ليسيوم قد شهد تغيرات كبيرة ، غير أنها تغيرات تتبع الخط الذي رسمه أرسطو . فحواريه يطبق اليوم على دراسة المادة غير العضوية وغير الحية أسلوب المشاهدة الذي اتبعه أرسطو نفسه بنجاح كبير في ميدان البيولوجيا (راجع أرسطو في الجزء الأول) . ومن الواضح أيضا أن الأسلوب الجديد ، أسلوب المشاهدة ، سرعان ما يكتسح المفاهيم الفيزيائية التي حملها معه أرسطو من الأكاديمية ، فالمشاهدة أوضحت أن النار لا يمكن أن توجد دون مادة ترتبط بها ، وأنها شيء يحترق ، وقد أدى هذا في التو الى النظرية القائلة بأن النار ليست عنصرا وانما هي أقرب الى أن تكون مركبا ، والى التفكير بأن الساخن والبارد ليسا في الحقيقة أساسين بل صفتين . بهذه التطورات الجديدة انتهى عصر فيزيقا أرسطو ومهد الطريق أمام ستراتو .

يدعو ثيوفراستاس في كتابه « الميتافيزيقا » الى أننا في محاولتنا فهم سلوك المادة ، « يجب أن نرجع ، بشكل عام ، الى الحرف المختلفة وأن نقارن بين العمليات الطبيعية والاصطناعية » (١٨ ، ١٩ ، ٢٠) . وقد أسهبنا في الجزء الأول في ذكر أهمية هذا الأسلوب بالنسبة لرواد العلم الاغريقين . ولقد صور ثيوفراستاس ما يعنيه بصورة مستفيضة في

مؤلفه « عن النار » وغيره من الكتابات . ولقد أورد في الصفحات العشرين من هذا المؤلف « عن النار » مئات من المشاهدات لكل من العمليات الطبيعية والاصطناعية . ونحن اذا تعمقنا في دراسة هذه الصفحات تبين لنا أن الاهتمام بما تتضمنه الحرف من عمليات اصطناعية يعمق من فهمه لما يشاهد من عمليات طبيعية ، ويمكنه من تفسيرها . وهو عندما يقول ان النار لا بد لتولدها من قوة أو عنف انما يجمع في جملة واحدة بين الوسائل الصناعية التي يشعل بها الانسان النار وبين ظاهرة البرق الطبيعية وهو في نفس الوقت يقدم تفسيراً لهذه الظاهرة . وهو بعد ذلك يقارن بين اللون الأحمر الذي يكتسبه ضوء الشمس أحياناً وبين اللهب الأحمر الذي ينبعث عند احتراق الأخشاب الخضراء الطازجة ، وينتهي الى أن اللهب المتصاعد من الأخشاب الخضراء يكتسب لونه من الماء الزائد والعنصر الترابي اللذين لا يتوافران في الأخشاب الناضجة ، وأن الشمس تشوبها الحمرة كلما كان الهواء كثيفاً .

ستراتو والمنهج التجريبي للبحث

ومن هذا الجمع المستمر بين مشاهدة الظواهر الطبيعية والعمليات الاصطناعية نمت جذور الفن التجريبي ، غير أنه لم يصبح شيئاً واضحاً في العلم الاغريقي الا مع ستراتو . ويحسن بنا أن نقف هنا لحظة لنسترجع بعض الخطوات التي تحقق بها بالمنهج العلمي مثل هذا التقدم الهام . مرة أخرى يساعدنا عالم النبات السويسري ، سن ، الذي أسهم بالكثير في تاريخ الفكر العلمي . ففي دراسته للكتابات الأبيقراطية نراه يميز بين نوعين من المقارنة في هذه الكتابات . وكثيراً ما نجد مقارنات بين العمليات الفسيولوجية محل البحث وبين الحوادث الشائعة في الحياة

اليومية ، فالكاتب مثلاً يلاحظ الملاحظة التالية : « ان الأمر يماثل توقف غليان الماء اذا أضيف له ماء بارد » . هنا يصور الكاتب ظاهرة في الطب يحاول فهمها بمثال من الخبرة الشائعة ولكن دون أن يطلب الى الطالب أن يجرى التجربة . والى جانب ذلك فانا نصادف ، في بعض الأحيان ، الجملة التالية : « اذا فعلت كذا وكذا فستجد أن الأمر هو كيت وكيت » . ومن الواضح أن الكاتب في هذه الحالة يدعو الطالب الى اجراء التجربة بنفسه .

ويزودنا « الطب القديم » (الباب الثانى والعشرون) بمثال جيد لتجربة من هذا النوع . فالكاتب هنا يدفع الطالب الى الاعتقاد بأن هناك علاقة بين تركيب الأجهزة الداخلية للجسم والوظائف التى تقوم بها هذه الأجهزة ، وهو بذلك يضع القاعدة العامة التى تقول بأن أفضل سبيل لدراسة وظائف الأجهزة الداخلية ، البعيدة عن متناولنا ، هو بحث أشياء ظاهرة تشابهها فى الشكل . « والآن أى الأشكال يصلح أكثر من غيره ليسحب السائل من باقى الجسم ويجذبه اليه ، المجوف ذو الفتحة الواسعة أم المصمت المستدير ، أم المجوف المستدق ؟ اننى أعتقد أن أفضلها وعاء أجوف واسع له فوهة مستدقة . ان علينا أن نتعلم هذه المبادئ من أشياء خارجية وظاهرة ، فمثلاً لو أنك فتحت الفم الى نهايته فان تسحب أية كمية من السائل أما اذا مددت شفتيك وطويتها أو ضغطت واحدة على الأخرى وأدخلت بينهما أنبوبة فانك تستطيع أن تمص بسهولة كل ما ترغب . وكذلك صممت أقداح الحجاماة واسعة مستدقة لتسحب الدم من اللحم وتمتصه . وهناك أمثلة أخرى كثيرة من نفس النوع . أما فيما يختص بجسم الانسان فالمثانة والرأس والرجم تتميز بهذا الشكل

ومن الواضح أنها تجذب السوائل بقوة . وأنها دائما مليئة بالسائل الذي تجذبه .

وهذا شيء يختلف اختلافا واضحا عن مجرد التمثيل بحادث مألوف لتصوير أمر ما أثناء مناقشته . فالمسألة هنا تتطلب عملا تأكيدا ، تتطلب من المستمع أن يجرى التجربة . حقا ان التجربة هنا لا تزال في مرحلة بدائية من التطور ، الا أنها تجربة أصيلة . ومن بين المدارس الأولى كان الفيثاغوريون بالذات أكثر من استخدموا هذا المنهج التجريبي . ولم يستخدمه الفلاسفة الذين سبقوا سقراط الا لاما ، وكذلك الأكاديمية وحتى المشاؤون ، الى ثيوفراستس ، ولم يزدعروا الا لدى ستراتو ، خليفة ثيوفراستس ، وكان ازدهاره مفاجئا .

ومن المؤسف أننا لا نعلم عن هذا الرجل — على أهميته — الا النذر اليسير ، ولد ستراتو في لا مباركوس وعاش بعض الوقت في قصر الملك بالاسكندرية قبل أن يدعى لرئاسة اليسيوم في أثينا . وظل رئيسا له من ٢٨٧ الى ٢٦٩ ق.م. ولا بد أنه كان رجلا مشهورا قبل أن يصبح رئيسا لمدرسة أرسطو ، والا لما دعاه بطليموس الأول (سوتر) ليشرّف على تعليم ولده بطليموس الثاني (فيلادلفاس) . وكان هذا سبب اقامته بالاسكندرية . وعندما وصل أثينا ليتسلم مهام منصبه كان عمره يتراوح بين الأربعين والخمسين . وقد وضع ديوجينيس لايرتياس قائمة بأسماء حوالي أربعين مؤلفا من مؤلفاته ، غير أن الزمن قد حرّما منها جميعا ، ولا تزال أمام الدارسين الجدد مهمة القيام باعداد طبعة علمية تحتوي على شذرات من مؤلفاته التي يمكن اقتطافها ممن تلاه من الكتاب . ومع هذا فنحن نعلم من المؤرخ پوليبياس الذي عاش بعده بحوالي

مائة عام أنه كان معروفا في القدم باسم الفيزيقي (بالمعنى الاغريقي
القديم للكلمة طبعا ، أي الفيلسوف الطبيعي) . ويوضح شيشيرون السر
في اختيار هذا اللقب بأن ستراتو « هجر الأخلاق » ، وهي أكثر نواحي
الفلسفة ضرورة ، ووهب نفسه لدراسة الطبيعة . ومن غير المعقول أن
يكون شيشيرون وحده هو الذي أدان هذا المسلك الذي عرض ستراتو
للنقد في أيامه ، ويتجلى ذلك من قول پوليبياس . لقد كان لامعا في نقده
وجدله غير أنه كان كئيبا في عرض آرائه . ولا أظن القاريء الا موافقا
معي ، اذا ما انتهينا من عرضنا لما قام به ستراتو من أعمال ، على أن قول
پوليبياس (كئيب) انما هو تعبير علمي قاس لا يتفق وروح العصر .
وعندما أراد ديوجينيس أن يزيد هذه النقطة وضوحا ، ذكر لنا في ختام
ملاحظته القصيرة أن ستراتو « تفوق في كل فرع من فروع المعرفة وان
يكن قد بلغ الذروة فيما يسمى بفلسفة الطبيعة ، وهو فرع من الفلسفة
فاق جميع الفروع الأخرى من حيث القدم والجدية » . ونحن لن نخطيء
اذا أدركنا من هذه العبارة كيف كان ستراتو يدافع عن تفضيله الفلسفة
الطبيعية على الأخلاقيات والسياسة ، وأنه اذ يصف الفلسفة الطبيعية
بأنها أكثر قدما ، انما يشير الى المدارس القديمة ، وذلك قبل أن ينتقل
سقراط بالفلسفة من الطبيعة الى الانسان . وهو اذ يصفها بأنها أكثر
جدية ، انما يعنى أنها تتصل بالفنون الأساسية التي تعتمد عليها الحياة
نفسها أكثر مما تتصل بالفنون التي ليست سوى بهرج مبدئية منهارة .
ولقد ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب رأى الفلاسفة الذين سبقوا
سقراط وهو أن « أكثر الفنون جدية في مساهمتها في الحياة الانسانية
ما مزج قوته بقوة الطبيعة مثل الطب والزراعة والرياضة البدنية » . وهو
يوصف أريد به مقابلة هذه الفنون بتلك التي لا تعدو كونها محاكاة

للطبيعة دون أن تغير منها مثل الرسم والموسيقى . ولا شك في أننا نصادف هنا شيئا جوهريا في النظرة العامة لستراتو الذي لا يقتصر اتجاهه التجريبي نحو العلم على مجرد المشاهدة السلبية لعمليات الطبيعة بل يتضمن تدخلا ايجابيا فيها . وكان ستراتو واعيا تمام الوعي بالتطبيقات العملية لنظرياته الفيزيائية ، تلك النظريات التي حافظ الكاتب القديم على خير سجل لها ، وقدم لها بالكلمات التالية : « انها تستطيع أن تمدنا بالمطالب الجوهرية لحياة متمدينة » .

ولم يكن من السهل ، ونحن لا نملك من كتابات ستراتو سوى حطامها ، أن تثبت الكمال الذي صاغ به فكرة البحث التجريبي وتطبيقه حتى توصل « هرمان دييل » بعبقريته النافذة الى اكتشاف كبير في عام ١٨٩٣ . يحتل مؤلف « علم الهواء » مكانا بارزا بين الآثار المتبقية من العلم الاغريقي ، وهو بحث كتبه هيرون الاسكندري ، ويرجع تاريخه الى النصف الثاني من القرن الأول من العصر الذي تناوله . يعرض هذا المرجع في صفحاته الأولى نظرية علمية عن طبيعة الفراغ ، بصورة تتصف بالتقدم الواضح ، فهي تجريبية في المنهج محددة المصطلحات ، وتتضمن نظاما فيزيقيا موحدا . وكان « دييل » هو أول من حلل الصفات الخاصة لهذا القسم من الكتاب ، وقد نجح في أن ينسبه الى ستراتو . وفي السطور التالية يجد القارئ ترجمة مركزة لهذه الفقرة الا أنها خير تعريف بعبقرية ستراتو .

« منذ القدم والفلاسفة والمهندسون يقدرّون علم الهواء تقديرا كبيرا فالفلاسفة يستتجون مبادئه بالمنطق والمهندسون يحددونها بالتجارب . ونحن نرى واجبا علينا أن نعرض في هذا الكتاب المبادئ المقررة لهذا

العلم عرضا متسقا ثم تتبع ذلك بما وصلنا نحن اليه من اكتشافات ،
آملين أن يستفيد بذلك طلاب هذا العلم في المستقبل .

على أننا قبل أن تنتقل الى التفاصيل ينبغي أن نذكر موضوعا عاما
يستحق المناقشة ، ذلك هو طبيعة الفراغ . فالبعض يؤكد عدم وجوده ،
والبعض يرى أنه في ظل ظروف عادية لا يوجد شيء اسمه الفراغ المستمر
كل ما هناك فراغ صغير يوجد مبعثرا في الهواء والماء والنار والأجسام
الأخرى . ذلك هو الرأي الذي يجب أن تتمسك به ، وستظهر الآن
بالتجارب أن هذا وصف حقيقي للمادة .

غير أن علينا أولا أن نصحح اعتقادا شائعا . يجب أن تفهم بوضوح
أن الأواني التي يعتقد الناس أنها فارغة إنما هي في الواقع مليئة بالهواء .
والهواء في رأي الفلاسفة الطبيعيين يتكون من جزئيات مادية دقيقة
لا تراها العين في الأغلب . وعلى هذا فنحن اذا وضعنا ماء في وعاء
يبدو فارغا فان حجما من الهواء مساويا لحجم الماء المصبوب يخرج منه .
ولاثبات ذلك أجر التجربة التالية : خذ وعاء فارغا في الظاهر واقلبه
عموديا ، وانغمره في اناء مليء بالماء ، تجد أن الماء لن يدخله حتى
ولو غطاه ، ذلك لأن الهواء يمنع الماء من دخول الاناء ، لأنه سبقه الى
شغل الحيز الموجود دالا بذلك على أنه شيء مادي . غير أنك اذا أحدثت
ثقبا بقاع الوعاء فان الماء سيتسرب اليه طاردا الهواء من الثقب . ولو أنك
رفعت الاناء عموديا من الماء — قبل أن تحدث بقاعه الثقب — لرأيت
أن البسطح الداخلي للاناء جاف لم تبلله قطرة من ماء وفي هذا ما يوضح
أن الهواء جسم مادي .

١ . وينقلب الهواء زيجا اذا ما دبت فيه الحركة ، فالريح ليس سوى هواء

يتحرك . وفي التجربة السابقة لو أنك — قربت يدك من ثقب الاناء وأنت
تغمره في الماء ، اذن لأحسست بالريح يخرج من الاناء . هذا الريح هو
الهواء وقد طرده الماء . حذار اذن أن تظن أن هناك فراغا مستمرا
فيما حولك من أشياء فليس هناك سوى فراغ صغير مبثر في الهواء
والماء والأجسام الأخرى . ويجب أن يفهم هذا على النحو التالي ، وهو
أن جسيمات الهواء ، ولو أنها ملاصقة بعضها لبعض ، إلا أنها لا تتداخل
تماما وانما تترك فيما بينها أماكن فارغة كما هو الحال في رمال الشواطئ
حيث تقوم حبات الرمل مقام جسيمات الهواء . والهواء بين الحبات مقام
الفراغ بين جسيمات الهواء .

ينتج عن هذا التركيب الفيزيقي للهواء أن من الممكن بمعونة قوة
خارجية أن ينضغط الهواء ويستقر في الأماكن الفارغة وقد انضغطت
جسيماته بطريقة مضادة للطبيعة . فإذا ما زال الضغط رجعت الجسيمات
بفضل مرونتها الى حالتها السابقة . وبالمثل اذا نتج عن أية قوة خارجية
انفصال الجسيمات بعضها عن بعض وخلق أماكن فارغة أكبر مما يحدث
في الطبيعة في ظل ظروف عادية ، فإن الجسيمات ستميل نحو الاقتراب
ثانيا بعضها من بعض . والسبب في هذا هو أن حركة الجسيمات تزداد
سرعة خلال الفراغ حيث لا عقبة أو مقاومة وينتهي بها الأمر الى أن
تتلاقى مرة أخرى .

واليك تجربة لتوضيح النظرية السابقة . خذ وعاء فارغا له فوهة
ضيقة . مص الهواء منه ثم أبعد عنه يدك . سيظل الاناء عالقا بشفتيك
لأن الفراغ سيعمل على جذب اللحم ليشغل المكان الفارغ . يتضح من
هذا أن فراغا مستمرا خلق بالوعاء . واليك برهانا آخر . يستعمل الأطباء

أواني زجاجية ذات فوهات ضيقة يسمونها « بيضا » ، وعندما يريدون ملئها بسائل يمصون هواءها ويسدون فوهاتها بأصابعهم ويقلبونها في السائل الذي ينسحب الى الداخل ليملا المكان الفارغ رغم أنه ليس من طبيعة السائل أن يتحرك الى أعلى .

لنعد الآن الى أولئك الذين يشكرون وجود الفراغ كلية . إن بوسعهم طبعاً أن يكتشفوا كثيراً من الحجج يردون بها على ما قيل ، وقد يبدو اقتصارهم محققاً لو أغفلنا نحن جانب التجربة . ولذلك فإنا سنذكر لهم حقيقتين مستحدثتين من ظواهر لا تستعصى على المشاهدة . هاتان الحقيقتان هما :

١ — أن هناك فراغاً مستمراً ، غير أنه أمر مخالف للأوضاع الطبيعية .

٢ — أن الفراغ يوجد طبيعياً ولكن بكميات ضئيلة مبعثرة ، وسنبين لهم كذلك أن من الممكن بالضغط أن تملأ الأجسام هذه الفراغات المبعثرة . ولن نسمح بثغرة يهرب منها هؤلاء المتلاعبون بالألفاظ .

ولأجراء تجربتنا نحتاج الى كرة معدنية تسع حوالى أربعة سنتات ومصنوعة من صفيحة معدنية تبلغ من السمك حداً يحجبها من التحطيم . ولا بد أن تكون الكرة محكمة لا ينفذ الهواء خلالها . وتثبت في الكرة أنبوبة من نحاس ، أى ماسورة ذات فوهة ضيقة بحيث لا تلمس السطح الداخلى للكرة ، بل تترك مكاناً لمرور الماء . ويجب ألا يقل الجزء الظاهر من الأنبوبة عن ثلاث بوصات ، وأن يقوى جزء الكرة المحيط بالأنبوبة بلجام من القصدير حتى تكون الأنبوبة والكرة سطحاً واحداً . كما يجب أن نحتاط حتى لا يتسرب الهواء الداخل الى الكرة عن طريق شقوق بها .

ولنتحلل الآن بالتفصيل مضمون التجربة . إن الكرة ، كأي وعاء آخر يوصف بأنه فارغ ، مليئة تماما منذ البداية بالهواء الذي يضغط على جدرانها باستمرار . وإذا أخذنا بالمنطق فانه من المحال أن تتسع الكرة ، وليس بها مكان غير مشغول ، لقدر من الماء أو لمزيد من الهواء الا اذا تخلصت من جزء من الهواء الذي يملؤها ، ولو أننا حاولنا أن ندخل بها ماء أو هواء بالقوة فانها ، لا مبتلائها ، لا بد وأن تنفجر . حسنا جدا ولكن ما الذي يحدث في الواقع ؟ أنك تستطيع أن تنفخ بشفتيك داخل الكرة كمية كبيرة من الهواء خلال الأنبوبة دون أن تخرج من الكرة أية كمية من الهواء . ويمكنك أن تكرر هذا عددا من المرات . وفي هذا برهان واضح على أن جسيمات الهواء داخل الكرة قد انضغطت فيما بينها من فراغ . وهذا التقلص مخالف للطبيعة فهو ناتج عن دفع الهواء بالقوة . ولو أنك تمكنت من سد الأنبوبة سريعا بأصبعك بعد هذا النفخ فإن الهواء يظل طول الوقت مضغوطا داخل الكرة . فاذا رفعت أصبعك انطلق الهواء الزائد مندفعاً الى الخارج ومحدثاً صوتاً ، فهو يطرد نتيجة تمدد الهواء الداخلى بفعل مرونته .

وإذا أجريت التجربة العكسية ، ففي وسعك أن تمتص قدراً كبيراً من الهواء من داخل الكرة دون أن يحل محله هواء آخر كما رأينا في حالة « بيضة » الأطباء . ومن هذا يتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن فراغاً مستمراً يتكون في الكرة ، وتنتشر الفراغات بين جسيمات الهواء . فاذا ما استخدمت القوة انضغط الهواء بشكل مجاف للطبيعة داخل الفراغات ولقد سبق أن بينا أن وجود فراغ مستمر مجاف للطبيعة في حالتى تملق الاناء الخفيف بالشفة ومثال « البيضة » . وهناك تجارب أخرى كثيرة عن طبيعة الفراغ ، غير أنه يكفي ما ذكرنا من تجارب لأنها تستمد

برهانها من الظواهر التي يمكن مشاهدتها . وتلخيصاً لكلامنا نقول : ان كل جسم يتكون من جسيمات دقيقة من مادته ، وبين كل جسيم وآخر فراغ أصغر من الجسم . وانه لتلاعب باللغة أن ندعى أنه دون اللجوء الى القوة لا يوجد فراغ اطلاقاً وانما كل شيء مملوء هواء أو ماء أو أية مادة أخرى وانه بقدر ما تتخلى إحدى هذه المواد عن مكانها بقدر ما تدخل أخرى لتحتل هذا المكان .

قرر أحد النقاد من مجلة الدراسات الرومانية (المجلد ٣١ ، ١٩٤١ ، ص ١٤٩) معلقاً على أحد الكتب التي أصدرتها : « ان التجربة كنظرية منظمة ، لم تكن معروفة في العصور القديمة فهذا عمل من أعمال النهضة » . ولا شك أن هذا الرأي لا يستطيع أن يصمد أمام تلك الفقرات التي أوردناها ، الى جانب غيرها من الفقرات . انا نرى في عمل ستراتون ما يشير الاعجاب عن التجربة المنظمة التي تمثل ذروة ما سبق أن صادفناه من وقت الى آخر مع الفيثاغوريين ومع امپيذقليس وأناكساجوراس وبعض الأطباء من مدرسة أبوقراط . انه يعبر عن تجريبية وصلت الى حد تصميم جهاز خاص لحل مشاكل من نوع خاص ، انها التجربة التي تستند الى تأكيد واضح لأهمية التجريب على الاستدلال المنطقي .

وكان من بين حوارى ستراتون طبيب سكندري يدعى اراسيتراتاس وسنعود الى الكلام عنه فيما بعد ، ونكتفى الآن بالإشارة الى تعبير فريد وجد بين بقايا كتاباته ، ينم عن حماسه للفلسفة الطبيعية التي أخذت بلب من وقع من رجال هذا العصر تحت نفوذ اليسيوم . ولقد وردت هذه الفقرة في كتاب جالينوس « المخطوط الصغير » (الجزء الثاني ص ١٧ ، طبعة مولر) ، واقتبسها هيدل في كتابه (العضر البطولى

للعلم ص ٥٣) : « ان أولئك الذين لم يتعودوا البحث اطلاقا تصيبهم الغشاوة وتعمى عيونهم عند أول اختبار لذكائهم ، وسرعان ما يولون الأدبار نتيجة اجهاد قواهم الفكرية وعجزها مثلهم في ذلك مثل من يشترك في سباق دون أن يتمرن على ذلك . أما من اعتاد البحث وشق طريقه كالودودة متحركا في جميع الاتجاهات ، فلن يمله ولن يهجره ، لن أقول يوما أو ليلة ، بل طيلة حياته ، ولن يستريح بل يظل منتقلا من شيء الى آخر مما يراه متصلا بموضوع بحثه حتى يصل الى حل لمشكلته » .

وحتى لا يظن أحد أن البحث الذي صوره اراسيستراتاس في هذه الفقرة الرائعة هو من النوع الذي لا يمكن تناوله الا من ناحية فكرية فقط كما أوصى بارمينيدس وفعل أفلاطون ، فانتا سنذكر — في سياق حديثنا — احدى تجارب هذا الفيسيولوجي العظيم . ولعلنا نتذكر أنه كان يحاول بحث عمليات الحياة وأنه كان معنيا بأهمية التنفس ، كما فعل أمبيذوقليس من قبله بزمين طويل في تجربة الكليسيديرا (ارجع الى الجزء الأول) . غير أن اراسيستراتاس خطا بالفن التجريبي خطوة رائعة الى الأمام . انه شق طريقه كالودودة ، ضاربا في كل الاتجاهات ، وتوصل أثناء بحثه لمشكلته العملية الى تجربة سبق بها ما اشتهر سانكتورياس (١٥٦١ — ١٦٣٦) بتحقيقه في تجربة وصفها سنجر وصفا جميلا في (تاريخ قصير للطب ، ص ١٠٨) . ان سانكتورياس علق نفسه فترة من الوقت في ميزان من تصميمه ، وذلك بهدف دراسة تغيرات الوزن في الجسم الانساني ، كذلك وضع اراسيستراتاس طائرا في قفص ووزنه وتركه دون طعام ، وأعاد وزنه مرة أخرى هو ونهاياته ، فوجد أن وزنه هبط بدرجة ملموسة . وهو يوصي بتكرار هذه التجربة ، واعتبارها تجربة

أساسية . ويجدر بنا أن نشير هنا الى المقياس الدقيق الذى تضمنه
الوزن . هكذا أصبح المنهج التجريبي بهذا الكمال ، وهكذا تنوعت
استخداماته .

وهناك كثير من الشواهد على أن ستراتو هو الآخر قد شق طريقه
وضرب فى كل اتجاه ليحل مسائله . وقد راعت فى ترجمة الفقرة التى
اقتبسناها أن تكون موجزة لأركز الاهتمام على التجربة الأساسية ،
تجربة الكرة . غير أن الأصل الكامل يضم عدیدا من التجارب التكميلية .
فهو عندما قدم نظريته الخاصة بوجود فراغ منتشر بين جسيمات المادة
غامر فافترض أن « الماس » ربما كان المادة الوحيدة التى لا تحوى فراغا
فهو يقول : انه لا يتأثر بالنار وانه يقاوم الطرق لدرجة أنه يغرز نفسه فى
المطرقة أو السندان . ولا شك أنك لو هويت بمطرقة على قطعة من ماس
لا نشقت على طول سطوحها البلورية . وكان بوجدنا أن تحصل على شريح
أوفى لما أجراه ستراتو من تجارب ، فربما كان ما وجدته عالقا بالمطرقة
أو السندان عبارة عن جسيمات صغيرة من الصنفرة أو الكوراندوم .

فالكلمة التى ترجمت فى الأصل الى « ماس » من الممكن ترجمتها
أيضا الى إحدى هاتين المادتين . وهو حين يذكر مرونة الهواء يصور
ما يعنيه بالمقارنة بنشارة القرون أو قطعة من الاسفنج الجاف . وهو
يضيف الى تجربة الاناء الخفيف الذى يتدلى من الشفة عن طريق
امتصاص الهواء تجربة أخرى يستخدم فيها قدح الحجاماة الأثقل وزنا
حيث يتم التخلخل بواسطة الحرارة لا بالامتصاص .

وهو بهذا ينقلنا الى فصل فريد يناقش فيه أثر الحرارة على مختلف
الأجسام ، فيشير الى أننا اذا عرضنا قطعة من الفحم للحرارة فان قطعة

الكوك التي تتخلف عن هذه العملية تبدو للعين ماثلة لقطعة الفحم في الحجم ، غير أننا سنجد أنها أخف في الوزن . وفي هذا دليل آخر على القياس الدقيق للظواهر . وهو يعزو النقص في الوزن الى تحول الفحم بفعل النار الى مواد ثلاث ذات كثافات مختلفة وهى النار والهواء والتراب . ثم يتبع ذلك بتعليق طريف خاص بتأثير النار على الماء . ويجدر بنا في هذا المقام أن بادر فنذكر القارىء أن التمييز بين الهواء والبخار لم يحدث الا في عام ١٦١٥ ، بعد أن وضح عمليا أن قوة ضغط البخار تفوق كثيرا قوة ضغط الهواء . ان أعمال كاردان (١٥٠١ - ١٥٧٦) وپورتا (١٥٣٨ - ١٦١٥) هى التى أدت الى أن يجزم سولومون دى كاو (١٥٧٦ - ١٦٣٠) بأن البخار ليس الا ماء تبخر وأنه يعود بالتبريد الى حالته الأولى . ولكن ستراتو لم ينجح في التمييز بين الهواء والبخار وان كان قد قال بوضوح « ان البخار الصاعد من وعاء فوق نار مجرد ماء مخلخل يتحول الى « هواء » . ولم يكن يعرف الى أى حد يختلف هذا البخار عن الهواء الذى تتنفسه .

وقد استخدم ستراتو نظريته عن الفراغ المتقطع في محاولته تفسير كثير من الظواهر . ولهذه النظرية أهمية واضحة فيما يتعلق بفسالة اختلاف المواد من حيث الكثافة . وقد حاول هو أن يفسر بها أثر أشعة الشمس في تبخير الرطوبة وظاهرتى الندى والينابيع الساخنة . ولكن ربما كان أهم تطبيق لها هو ذلك التطبيق الذى يهدف الى شرح ظاهرة انتشار الضوء : « لولا الفراغات لما كان في مقدور الضوء أو الحرارة أو أية قوة مادية أن تغلغل في الماء أو الهواء أو أى جسم آخر ، فكيف تستطيع أشعة الشمس مثلا أن تصل الى قاع اناء ملىء بالماء ؟ لو أن الماء كان يخلو من الثغرات ، وكان على أشعة الشمس أن تقسم الماء

بالقوة ، لفاضت الأوعية الممتلئة . غير أن هذا أمر لا يحدث . واليك
برهان آخر . إذا سلطنا بأن أشعة الشمس تقسم جسيمات الماء بالقوة ،
أذن لو ضلت جميع الأشعة الى القاع بدلا من أن يصل البعض وينعكس
البعض الآخر . والذي يحدث هو أن الجزء الذي يصل هو الذي صادف
الفراغ أو صادف قليلا من جسيمات الماء ، أما الجزء الذي ينعكس فهو
الذي اصطدم بجزيئات الماء . « وهناك دليل آخر قدمه ستراتو على
مسامية الماء . اذا صببت نبيذا في الماء فانه ينتشر خلال الماء بأجمعه ، كما
أن تداخل الضوء في الضوء يؤدي بنا الى نفس النتيجة . « اذا أضىء
مكان ما بعدد من المصابيح ثم ازداد هذا العدد ، فإن الضوء الزائد
يتوزع بالتساوي على المكان كله وذلك لأن أشعة الضوء قادرة على أن
تتشر متداخلة فيما بينها . « ولا تخلو هذه الأمثلة بالطبع من نقط
ضعف كثيرة ، غير أن الانسان عادة يفضل المثال على الحجة فيما يختص
بالحقائق الفيزيائية . ويزودنا سميليكياس (٦٥٩ ، ٢٢) بمثل يثبت أن
ستراتو كان كثيرا ما يلتجئ الى الحقائق ، فهو يخبرنا أن ستراتو واجه
نقاشا طويلا عما اذا كان من الممكن أن يتغير المكان دون افتراض وجود
فراغ متصل ، فحسم الأمر بمثال بسيط ، اذا وضع حجر في اناء مغلق
ملئ بالماء وقلب الاناء فان مكان الحجر سيتغير .

ولم يكن ستراتو بارعا في تصميم التجارب فحسب بل لقد طبق
أيضا مبادئه بشكل قفاذ في كثير من النواحي الجديدة . واليك مثالا
لذلك . من بين مخلفات أرسطو مؤلف لا يحمل اسما ، ويتضمن بعض
جمل ثبت أنها بقلم ستراتو ، وهو في هذه الجمل يرسى الأساس لنظرية
صحيحة عن الصوت : « تنشأ الأصوات جميعا ، أحاديث الانسان
أو أي صوت آخر ، من سقوط أجسام على أجسام أو من سقوط هواء

على أجسام . ولا يرجع انتشار الصوت الى تشكل الهواء ، كما يظن البعض ، بل الى كونه وسطا مرنا يتقلص ويتمدد وفقا لما يتعرض له من نبضات ، فعندما يصطدم النفس بالهواء يتحرك الهواء بعنف ناقلًا نفس الحركة الى الهواء الذي يجاوزة ، وتكون النتيجة أن يسرى الصوت في كل اتجاه ولا يتوقف الا بتوقف الحركة .

يتضح من هذه الأمثلة أن ستراتو قد أسس المنهج التجريبي وأنه طبقه بشكل واسع ورائع . ومن المهم بالنسبة إلينا أن ندرك مدى الاستقلال الذهني الذي أظهره وهو يقوم بهذا العمل . وقد سبق أن قلنا أن ثيوفراستاس طوح بعيدا بالمفهوم الأرسطوي عن المادة . غير أن ستراتو يذهب الى أبعد من هذا اذ يطوح أيضا بنظرية أرسطو عن الوزن : وقال أرسطو أن عنصرين من العناصر هما التراب والماء يميلان بطبيعتهما الى الانحدار الى أسفل وهو يسمى هذه الظاهرة بالجاذبية ، وأن العنصرين الآخرين ، الهواء والنار ، يميلان بطبيعتهما الى الارتفاع الى أعلى ويسمى ذلك بالصعود . أى أن أرسطو حاول أن يربط بين نظريته عن الوزن ونظرية « المكان الطبيعي » التي تقول بأن لكل عنصر في الوجود مكانا يميل اليه بطبيعته . وقد استبدل ستراتو هذا الرأي برأى ديموقريط القائل بأن الوزن انما هو حركة تتجه نحو المركز ، وأن العناصر كلها ذات جاذبية ولا يتصف أى منها بالصعود ، وأن ما يحدث هو أن الأخف وزنا يطفو على الأثقل وزنا وأن كتلة حجم معين تتناسب تناسبا مطردا مع مقدار ما يحويه من مادة . غير أن ستراتو لم ينبذ أرسطو ليقدم ديموقريط وذراته ، كلا ، فمع أنه يقبل فكرة ديموقريط عن الفراغ داخل الأجسام ، الا أنه يرفض فكرة الفراغ

الخارجي المتصل . وبينما هو يعتقد أن المادة تتكون من جزئيات دقيقة لا ترى ، نراه يرفض فكرة توقف خواص الأشياء على حجم الذرات وشكلها وموضعها . ويتجلى هذا مثلا في نظريته عن الصوت . وهناك ما ثبت أيضا أنه حاول الابتعاد عن نظرة ديموقريط الميكانيكية .

من المناسب الآن أن نرى ماذا كانت نظرة هذا التجريبي الكبير الى العالم . من الواضح أنه لا يهتم بتاتا بجميع الآراء التشبيهية والغائية . يخبرنا شيشيرون (عن طبيعة الآلهة الجزء الأول ، ص ١٣ ، ٣٥) ان « الفيزيقي ستراتو كان من رأي أن القوة الالهية بأجمعها تكمن في الطبيعة ، وأن الطبيعة ، وهي قوة ليس لها شكل محسوس أو سعة محسوسة ، تضم في ذاتها كل أسباب الخلق والنمو والفناء . وفي فقرة أخرى (الأكاديميات الجزء الثاني ، ص ٣٨ ، ١٢١) تصور أسلوب ستراتو الحي المثير للجدل ، يعرض شيشيرون آراءه ببعض التفصيل : « يعنى ستراتو اللامبساكوسى الاله من مهمته المضنية قائلا : انه اذا كان قس الآلهة يتمتعون بحق الراحة فمن العدل أن يتمتع الآلهة أيضا بنفس الحق . ومن رأي أن الآلهة لا شأن لهم بخلق العالم ، فكل شيء موجود من صنع الطبيعة ، غير أنه يستدرك فيقول : انه لا يعنى بذلك ما عناه ذلك الرجل العظيم الذى قال بأن كل الأشياء ليست الا تجمعات من الذرات ، الخشنة والناعمة ، الشائكة والمعقوفة ، مزوجة بالفراغ . وهو يعتبر هذه الآراء من جانب ديموقريط مجرد أحلام تمنها ولم يستطع اثباتها . أما هو فيتغلغل الى أجزاء العالم جزءا بعد جزء مثبتا ان كل ما هو كائن أو فى سبيله الى الكينونة قد صنعه قوى وحركات طبيعية بحة أو هى بسبيل صنعه . » وبهذا تتضح وجهة نظر ستراتو ، فهو

يريد أن يجعل من الاله والطبيعة شيئا واحدا مع اعتبار الطبيعة في نفس الوقت ميدانا مباحا للبحث العلمى . وانها لمحاولة جريئة لاستئصال فكرة ما فوق الطبيعة وإن لم تكن الأولى في تاريخ الفكر الاغريقى . وهو رأى اعتنقه أيضا بعض الأبيقراطيين (ارجع الى الجزء الأول) .

وكان ستراتو ، على النقيض من ثيوفراستاس ، يكره التأرجح بين رأيين ، ولذلك فانه سارع الى تطبيق مبادئه حتى نهاياتها المنطقية في كل فرع من فروع العلم . وسنختم حديثنا عنه بإشارة الى آرائه عن طبيعة الانسان ومكانه فيما يحيط به من أشياء .

كان لعلم النفس تاريخ طويل مشرف بين الاغريق خلال المائتى سنة التى تقع بين الكمايون وأرسطو . غير أن ستراتو سجل هنا أيضا تقدما بارزا . لقد واجه السؤال القديم هل تنبع المعرفة من التجربة أم أن المعرفة الحقة هى ، كما قال أفلاطون ، شىء بعيد عن التجربة ، شىء ملازم للنفس قبل أن تتقمص الجسد الفانى ، فلم يتردد فى الاجابة على هذا التساؤل وقال بأن المعرفة تنبع من التجربة ، ووافق فى نفس الوقت على التمييز الشائع الآن بين أعضاء الحس والعقل . غير أن أصالته وتقدمه البارز بالنسبة لآراء أرسطو المتعلقة بعلم النفس تتضح بجلاء فى الطريقة التى أدرك بها العلاقة بين الحواس والعقل . ولعله كان أول اغريقى ، ان لم يكن ديوجنيس الأبولونى قد سبقه الى ذلك ، لعله أول اغريقى يقول فى وضوح أن تحول المنبه أو الحافز الموضوعى الى احساس انما يتم فى العقل لا فى أعضاء الحس . وهذا تحليل ذو أهمية جوهرية حقا .

وقد تمكن ستراتو بادراكه لدور العقل فى عملية الاحساس من

تأكيد فكرة وحدة الروح تأكيداً حاسماً . فالادراك والفكر ، في رأيه ،
مظهران من مظاهر نشاط نفس الروح . وهو بهذا يهدم فكرة أفلاطون
القائلة بأن الروح زائر غير مادي اتخذ من التراب مسكناً مؤقتاً له ،
بل أنه يقتلع بذلك الجذور التي تقوم عليها محاولة أفلاطون التبشير
بفناء الروح (النفس) وخلود العقل (نحن) . ولنظرية ستراتو ، أثر
أبعد من هذا إذ تسمح بالاعتراف بقراءة الانسان الى الحيوان ، فاذا كنا
نفكر ونذكر عن طريق نفس الجهاز ، العقل ، فان الحيوانات ، ولها
أعضاء حس وفي ميسورها أن تدرك ، لا بد وأن يكون لها عقل الى
حد ما . كان ستراتو يرى أن كل كائن حي يمكن أن يتمتع بشكل
أو آخر من أشكال العقل . ويحتفظ لنا بلوتارخ برأى ستراتو في هذه
النقطة . « ويتبع من ذلك أن كل ما يدرك لا بد وأن يكون على درجة
أو أخرى من الذكاء ، هذا اذا كانت الطبيعة قد جعلت الذكاء طريقنا
الى الادراك » . ويرى رودير ، وهو أول ناقد حديث درس الآراء
الفيزيكية لستراتو ، يرى أن الفيلسوف أبيقور أثر فيه تأثيراً قوياً .
وأغلب الظن أن هذا صحيح تماماً . وعلى أية حال ليس ثمة شك في أن
ستراتو كان يتفق مع الأبيقوريين ، وهم أفضل علماء الانسان في العصور
القديمة ، في أن الانسان نوع راق من الحيوانات ، لا أن الحيوانات نوع
منحط من الانسان .

بهذا نكون قد قدمنا عرضاً وافياً ، رغم ضيق المجال ، لأعمال
ثيوفراستاس وستراتو . ولكن خوفاً من أن يظن أحد أن نشاط الليسيوم
كان قاصراً على رؤسائه ، نبادر فنذكر ثلاثة مؤلفات علمية أخرى
أتجهها الليسيوم في ميادين الكيمياء والميكانيكا والموسيقى ، ونحن لا نعلم
من كتب المؤلفين الأولين أما المؤلف الثالث فمن وضع أريستوكسنياس .

الكيمياء

إن ما أسميته الكيمياء إنما هو الكتاب الرابع من مجموعة أرسطو «الأرصاد الجوية» . يصف «روس» محتويات هذه المجموعة بالكلمات التالية : « أن موضوع الكتب الثلاثة الأولى هو ظواهر الطقس أساسا كالرياح والأمطار والبرق والرعد وذلك الى جانب ظواهر فلكية معينة (كالمذنبات والمجرة) اعتبرها أرسطو ظواهر جوية ، وكان مخطئا في ذلك . أما الكتاب الرابع فيتناول مجموعة من الحقائق المختلفة كل الاختلاف ، اذ يتناول المواد المركبة كالمعادن وخواصها المحسوسة » . ويعتقد الكثيرون أن هذا الكتاب من وضع مؤلف آخر غير أرسطو لأنه يتناول عدیدا من أوجه النشاط العملى المتصلة بالحرف . فاذا كان حقا من تأليف أرسطو لكان هو وكتاب « الميكانيكا » خروجاً غريباً على ما عرف عن أرسطو من عدم اكتراث بالطرق الفنية فى الإنتاج . وذلك لأن هذا الكتاب يستهدف كما يقول روس : « البحث بالتفصيل فى كيف تعمل الصفات الايجابية من حرارة وبرودة وكيف تتعدل الخواص السلبية من جفاف وسيولة » ، وتتضمن مواده الممتعة برنامجا ممتازا للبحث فى طبيعة المواد المختلفة يهدف الى تقسيمها وفقا لمذى استعدادها للتأثر بغيرها من المواد . واليك ترجمة لفقرة قصيرة . « لنبدأ بحصر تلك الخواص التى تدل على قابلية شىء ما أو عدم قابليته لأن يتأثر بطريقة أو بأخرى . هذه الخواص هى : القدرة أو عدم القدرة على أن يتجمد ، وأن ينصهر ، وأن يلين بالحرارة أو بالماء وأن يلتوى وأن ينكسر وأن يتفتت وأن يضغط وأن يتشكل وأن يعصر وأن يسط وأن يطرق وأن ينفلق وأن يقطع وأن يكون لزجا أو هشاً وأن ينضغط

أو لا يتضغط وأن يشتعل أو لا يشتعل وأن يطلق أبخرة أو لا يطلق » .
ان التجارب التي تتضمنها هذه الفقرة جديرة برجل مثل فرانسيس
بيكون ، وقد علمت ^(١) أن أرسطو ذكر في كتابين لا شك في أنها من
وضعه (أجزاء الحيوان ١ ٦٤٩ ، وتناسل الحيوان ٧٨٤ ب) أنه ينظر الى
النتائج التي انتهى اليها الجزء الرابع من « الأرصاد الجوية » على أنها
تعبير عن آرائه الخاصة . وفي هذا ما يدل على أن هذا النوع من الأبحاث
الكيمائية — وهي من نفس نوع الأبحاث التي ذكرها ثيوفراستس في
كتابه « عن النار » — كان شائعاً في الليسيوم أيام أرسطو . ولا يشك
انجار دوهرنج ، وهو آخر من نشر هذا الكتاب ، في أنه من تأليف أرسطو ،
وينتقى من تعاليمه التي تتباين من حيث قيمتها ، ينتقى تعريفاً للاتحاد
الكيمائي « كأهم ما حققه أرسطو في هذا الفرع من فروع العلم » .
والتعريف تعريف رائع حقاً ، وهو يقع في جملة من سبع كلمات يستحيل
علينا ترجمتها دون أن نال من بهائها ، ولكننا سنوردها لأنها من الأمثلة
لما وصل اليه العلم الاغريقي في هذه الفترة من كمال في المنطق . « الاتحاد
الكيمائي اتحاد بين عدة أجسام قادرة على مثل هذا الاتحاد الذي
يتضمن تغيراً في خواص المواد المتحدة » .

الميكانيكا

أما المؤلف الخاص بالميكانيكا فهو ، في رأى روس ، ينتمى الى
واحد من مدرسة المشائين القديمة « ربما الى ستراتو أو أحد تلاميذه »
ويلاحظ الأستاذ ا . س . فورستر وهو الذي زودنا بأفضل ترجمة لهذا
المؤلف أنه « بينما تعبّر الناحية العلمية فعلاً عن رأى المشائين ، إلا أن

(١) أخبرني بهذا مستر دافيد ايتشهولز من جامعة بريستول .

اهتمام المؤلف بالتطبيقات العملية للمسائل التي تضمنها المؤلف ليس من الأرسطوية في شيء . « غير أننا يحق لنا الآن أن نشك في سلامة هذا الرأي . ويعرض المؤلف ، قبل أن يتطرق الى مسائل بعينها العبارة العامة التالية : « تحدث الأشياء اما في اتفاق مع الطبيعة أو مخالفة لها . وهي تشير عجبنا في الحالة الأولى . طالما جهلنا أسبابها . أما ما يثير عجبنا في الحالة الثانية فهو اليراعة التي يستخدمها الانسان في سعيه وراء منفعة فكثيرا ما تتصرف الطبيعة على النقيض مما نريد . والسبب في هذا هو أن الطبيعة تعمل بشكل متسق بسيط بينما حاجيات الانسان متعددة ومتغيرة . واذا احتجنا الى أمر يتناقض مع الطبيعة أحاطت بنا المصاعب وضللنا الطريق واحتجنا الى مهارة فنية . ونحن نسمى الابتكار الماهر الذي يذل لنا عقبتنا بالاختراع أو النظام الآلى . قال اتيغون الشاعر :

بالمهارة تقهر الطبيعة المنتصرة .

وهو محق فيما قال ، والأمثلة لما قصد اليه متوفرة حيث تتحكم أشياء صغيرة في أخرى كبيرة وحيث تدفع قوى صغيرة أثقالا كبيرة ، أو بوجه عام حيثما نواجه مسألة ميكانيكية . والمسائل الميكانيكية لا تطابق المسائل الفيزيائية ولا تتميز عنها تمام التميز فهي تستند الى مزيج من الرياضة والفيزيكا . وتختص الرياضة بالمبدأ العام أما علم الفيزيكا فيختص بالتطبيق . «

ثم تلى ذلك محاولة بارعة لتوسيع نطاق التفسير الرياضى ليشمل نواحي أكثر من نواحي النشاط الانساني المتعلقة بالروافع والميزان ومكان المجدفين من القارب وموضع السكان وترتيب القلاع وأنواع الحركة الدائرية لعجلة العربة والطاردة وعجلة الفخاوى والمقلاع وقوى

الأموال المختلفة من الخشب والوتد والقبان وت فوق الكلاب على اليد في خلع الأسنان وتكسير البندق ، والنسب السليمة اللازم توفرها عند صنع الأسرة ، ونقل العروق الطويلة من الخشب وشواديخ الآبار وحركة العربات (بما في ذلك مشكلة القصور الذاتى) . ثم يذكر بعد ذلك مسألتين من صنع الطبيعة أكثر مما هما من صنع الإنسان : تشكيل النحصى على الشواطىء والدوامات فى المياه . والكتاب كله بحث رائع فى الرياضة التطبيقية . ولقد نجح المؤلف نجاحا مذهلا فى شرح بعض المبادئ الأساسية لعلم الأجسام الساكنة (ستاتيكا) كقانون السرعات التقديرية ومتوازي أضلاع القوى وقانون القصور الذاتى .

وان أعجب شىء فى عبقرية هذا العصر أن تمكن كبار مؤسسى العلوم من أن يحيلوا القوضى الى نظام ، وذلك بتحديد المجال الحقيقى لفروع معينة من فروع المعرفة . وقد كان أرسطو نفسه أستاذا عملاقا فى هذا الميدان فبقدر ما كان ملما بمبادئ المعرفة الانسانية كلها كان قادرا على أن يميز بوضوح بين مختلف الفروع . كان ينظر الى المعرفة العلمية باعتبارها جسما عضويا يشمل حقل التجربة الانسانية بأسره ، مع التمييز بين فروعها المختلفة ودراسة علاقاتها المتبادلة . وكانت هذه الخطة فبراسا اهتدى به حواريوه فى اتمام عمله ، تارة باعادة النظر فى المبادئ الأساسية للمسألة بأسرها (كما فعل ثيوفراستاس عندما أثار مسألة سلامة المبدأ الغائى) ، وتارة أخرى بتحديد حدود كل علم بشكل أكثر وضوحا (كما فعل ثيوفراستاس عندما ميز علم الحيوان من علم النبات بتحليله لطبيعة أجزاء الحيوانات والنباتات) . هكذا رأينا ستراتو يعيد بناء فرعين من فروع العلم : نظرية التركيب الأساسى للمادة ، ونظرية طبيعة الروح ، كما شاهدنا عضوين آخرين من نفس المدرسة ،

لا نعرف على وجه المعرفة اسميهما — وفي هذا دليل على أن العمل كان
يجرى بشكل جماعى لا بشكل فردى — يؤسسان فرعى الكيمياء
والرياضة التطبيقية . بقى الآن أن نتكلم عن رجل عظيم آخر هو
أريستوكسيناس الذى نظم فرعا من أكبر فروع الفن ، ألا وهو الموسيقى .

الموسيقى

ولد أريستوكسيناس فى تارتنام التى كانت مهد ثقافات متنوعة ، وهو
معاصر لثيوفراستاس . وكان أبوه ، سينتاراس ، موسيقيا بارزا مولعا
بالسفر مما هيا له فرصة الاتصال بكثير من عظماء عصره . وكان لابد
أن ينخرط سليل هذه العائلة المثقفة والعريقة فى سلك الليسيوم . والواقع
أن أريستوكسيناس لم يكتف بأن أصبح من المشائين ومن تلامذة أرسطو
بل تبوأ فى المدرسة مكانا جعله يطمح فى أن يخلف أستاذه . ولا نغنى
بهذا أنه كان أجدر من ثيوفراستاس برئاسة الليسيوم ، غير أنه جدير
بأن يذكر كباحث فى الفلسفة وفى التراجم الى جانب كونه باحثا فى نظرية
الموسيقى .

يتسم العمل الذى قام به هذا الرجل ذو المعرفة العملية الواسعة
بالموسيقى والتدريب الفلسفى العميق ، يتسم بالطابع المميز للمدرسة التى
ينتمى اليها . وينصب عمله على تحديد مجال علم الموسيقى تحديدا
دقيقا ، وعلى ارساء مفهوم حقيقى لطبيعة الموسيقى . لقد كان اليونانيون
ينظرون الى الموسيقى ، قبل أريستوكسيناس ، على أنها فن من الفنون ،
وكانت هناك بالطبع مدارس للفن الموسيقى ومقارنة واعيه بين مختلف
أساليب التأليف فى الموسيقى . واتسعت المنافسة بين الموسيقيين حتى تعلم
جمهور واسع كيف يميز بشكل سليم بين أسلوب ومواهب مختلف

العازين . واشتهر صنّاع الآلات يتفوقهم في الصناعة ، وتناقل الصنّاع والملحنون والعازون ما تمخض عن هذا الجوّ من تقاليد جيلا بعد جيل . وبالرغم من ذلك لم ينظر أحد الى المبادئ الأساسية للموسيقى على أنها علم .

لنر الآن كيف وجدت هذه النظرة . كانت المدرسة الفيثاغورية هي المدرسة الوحيدة التي حاولت محاولة جدية خلق علم للموسيقى ، غير أن الفيثاغوريين ، بالرغم من تعرضهم للمسألة ، لم يرتفعوا عن مجرد دراسة الأصوات . وكان الصوت في نظرهم ذبذبات هوائية ، فاذا علا أو انخفض ردوا ذلك الى أسباب رياضية يسهل على العقل قبولها . وبالرغم من أن هذه أعمال علمية ممتازة الا أنها لا تجعل من الموسيقى علما ، فان مبادئ الصوت وحدها لا تمدنا بالأساس اللازم لنقد الموسيقى أو تقييمها . وقد أدرك أريستوكسيناس أن الفيثاغوريين ، بالرغم مما حققوه ، لم يصلوا الى جوهر المسألة . ورأى أن العلم الموسيقي الحق يجب أن ينظر الى الصوت والفاصلة والعالي والمنخفض والتوافق والنشاز وغير ذلك من المصطلحات مع أنها عناصر أولية لا تحتاج الى تفسير ، وان مهمته هي أن يختزل الظواهر الموسيقية الأكثر تعقيدا الى هذه الأشكال البسيطة وأن يثبت القوانين العامة التي تتحكم في العلاقات التي تربط بينها .

وهكذا أدى التحديد الواضح لميدان العلم الموسيقي الى فهم أعمق للموسيقى نفسها . ان جوهر الموسيقى يكمن في العلاقات الديناميكية بين الأصوات بعضها ببعض لا في مقدماتها الفيزيائية والرياضية . لقد اهتدى أريستوكسيناس الى تعريف للموسيقى ، يجعل من الممكن فهم جوهر القطعة الموسيقية كنظام صوتي مركب من عدد من الأصوات التي

اكتسبت معنى يفضل ما دخلت فيه من علاقات متبادلة ، وبحيث لو انفصل صوت منها عن باقى الأصوات لفقد معناه . واليك البيان :
« تعتمد طريقتنا فى النهاية على وظيفتى السمع والتفكير فبالسمع نحكم على مقادير الفواصل ، وبالتفكير تأمل وظائف النغم » .

ولعل مؤلف أرسطو « علم العروض » هو أقرب نظير لعمل أريستوكسيناس ، فإن أرسطو كان أول من نجح فى استخدام العلم فى تحليل الشعر ، ذلك الفرع الهام من فروع الفن . ويعتبر مؤلف أرسطو « علم العروض » ومؤلف أريستوكسيناس « الهارمونى » أساس النقد الواعى الذكى لطبيعة الفن ووظيفته . لقد أحرزت النفس الانسانية مكاسب جمة اذ وعت نفسها .

بهذا ينتهى عرضنا لما حققه الليسيوم من أعمال عملية ، ولا يبقى الا أن نعرف بأن شهرة المعهد كانت فى الحضيض وقت موت ستراتو ، فقد انقضى العهد الذى كانت قاعة المحاضرات فيه تغص بحوالى ألفى طالب (ديوجينيس لايرتياس الجزء الخامس ، ٣٧) ، وانقضى عهد ثيوفراستاس اللامع الذى حافظ على أوجه النشاط المتعددة الثقافية والعلمية والتي عرفت بها المدرسة أيام نشأتها ، وأصبح المواطن يسعى وراء معرفة الناس والأمور وموهبة الكلام . وكان أهم ما يحتاج اليه المشتغل بالمسائل العامة ، أن يجد ما يقول وأن يتكلم بحيث يستحوذ على السامعين . ذلك ما فشل فيه المعهد بعد أن حول ستراتو اهتمامه الرئيسى نحو البحث فكان أن انقض عنه الطلبة . اختار ستراتو « لا يكون » ليخلفه فى رئاسة المعهد بعد موته . لم يكن لا يكو كفاء كعالم ولكنه كان ممتازا من الناحية الثقافية . وتكشف وصية ستراتو عن أن المعهد

كان في حال سيئة فهو يقول فيها « انتى أترك المدرسة للايكو فليس بين
الباقيين الا من هو طاعن في السن أو مشغول بأمور أخرى » وهو قول
ظاهره المدح وباطنه الذم . « ويا حبذا لو عاونه الآخرون » . هناك شقاق
اذن . « وانى أوصى له بكل كتبى الا ما كان من تأليفى » . أيقصد أن
لايكو أعجز من أن يستفيد منها ؟ والذي حدث على أية حال هو أن
لايكو عاد بالمعهد الى الاهتمام أساسا بالأخلاقيات والخطابة ، بدلا من
الفلسفة الطبيعية محاولا أن يحيى قسمااته الشعبية التى تميز بها ،
والمحاضرات المسائية بوجه خاص . ولنا أن نستنتج من هذا أن برنامج
البحث الفيزيقي المتجه نحو التطبيقات العملية للعلم كما يتجلى في كتاب
ثيوفراستاس « عن النار » ، وكتاب ستراتو « عن الفراغ » وكتابه
« الأرصاد الجوية » الجزء الرابع ، وكتاب « المسائل الميكانيكية »
لم يعد له وظيفة في مدينة كاثينا أصابها التحلل وأفلت من يدها زمام
الأمر بين الإغريق .

وما كان الليسيوم الا مدينا بالشىء الكثير لرعاية المقدونيين ، فأرسطو
مقدونى وكان أبوه طيبيا في بلاط فيليب الملك المقدونى ، وكان أرسطو
نفسه أستاذ الاسكندر الأكبر ، ابن فيليب ، وكان الليسيوم ، من كل
الأوجه ، مركزا للنفوذ المقدونى في أثينا . وقبل أن يدعى ستراتو الى
أثينا لرأس المدرسة ، كان قد اختاره مؤسس الأسرة المقدونية في مصر
أستاذا لابنه . وهناك من الشواهد ما يدل على أن الليسيوم لم ينج تماما
من أثر التقلبات السياسية في أثينا . وكانت مصر تشهد ميلاد سلطة
مقدونية جديدة تحلم بأن تكون سيدة البحر الأبيض . وبرهن البطالمة
بما لا يدع مجالا للشك على أنهم كانوا مدركين تمام الإدراك لما يمكن
أن يؤديه العلم للحكومة من خدمات ، ومن ثم لم يكن عجيبا أن استغلوا

نضوذهم القوى لينقلوا من أثينا الى الاسكندرية كل نشاط يقوم به
الليسيوم ويعتقدون أنه مفيد لهم . ان مستقبل العلم لم يكن في يدي
لايكو أو أيدي من خلفه في أثينا من رجال مغبورين ، بل كان في أيدي
الباحثين والعلماء اللامعين الذين جمعهم سحر ذهب البطالة بمتحف
الاسكندرية .

الفصل الثاني

تاريخ المتحف وتنظيمه - الدين الموجه والعلم الموجه - المهندسون -
الأطباء - الرياضيون - الفلكيون - الجغرافيون - الفلك مرة أخرى -
تنظيم التعليم - قواعد اللغة (الأجرومية)

تاريخ المتحف وتنظيمه

كان يحيط بالمركز الثقافي الجديد في عاصمة مصر جو من البذخ
الأمريكي . والأصل في المتحف ، كما يوحى بذلك اسمه اللاتيني^(١) ،
أنه معهد لربات الفنون ، وكان رئيسه من كبار القسس : غير أنه أنشئ
في حقيقة الأمر ليكون معهد أبحاث ثم استخدم أيضا للتدريس . وهو
يحذو في هاتين الناحيتين حذو الليسيوم ، ولكن على نطاق أوسع كثيرا .
فكان بمكتبته التي أضيفت لها مكتبة أرسطو حوالي نصف مليون لفيفة ،
والظاهر أن مهمة البحث والتدريس كانت من اختصاص أمين المكتبة .
وكان بالمتحف حوالي مائة أستاذ يدفع الملك مرتباتهم ، وخصصت به
حجرات للأبحاث والمحاضرات والدراسة . وكان الليسيوم يدرس الفلك
وعلم الأحياء والنبات ، وأعد المتحف مرصدا وحديقة للحيوان وأخرى
للنبات بغرض مواصلة الدراسة في هذه الفروع . وزود المتحف أيضا
بغرف للتشريح . لقد هيا المتحف فرصا للدراسة والبحث لم تتوفر من
قبل وقد أحسن استغلال هذه الفرص .

لننا نعلم على وجه الدقة تاريخ انشاء المتحف . غزا الاسكندر مصر

(١) المتحف Museum ، وربات الفنون Muses (الترجم) .

عام ٣٣٢ ق . م . وفي ٣٢٣ مات الاسكندر وخلفه قائده بطليموس ابن لاجوس ، الذى كان قد عين مرزبانا . وعندما نصب نفسه ملكا فى عام ٣٠٥ سى نفسه سوتر (المنقذ) . وقبل أن يموت بعامين تخلى عن الحكم لابنه فيلادلفاس الذى كان تلميذا لستراتو . واستمر حكم فيلادلفاس من عام ٢٨٥ الى ٢٤٧ ق . م . وتكون المتحف ابان حكم هذين البطليموسين ، وكانا أول وثانى البطالمة ، وامتد عمر المتحف الى حوالى ستمائة عام ، غير أن القرنين الأولين ، من أوقليد الى هيباركوس هما أهم فترات حياة هذا المتحف ، ففيهما نظمت الفروع المختلفة للعلم القديم واكتمل فن وأسلوب كتابة الرسائل المرتبة التى تشرح موضوعا بادئة بمبادئه الأولى الى أن تنتهى بأحدث ما وصل اليه ، تلك الرسائل التى أهلت هذه الفترة لأن تسمى بعصر المراجع أو عصر أمهات الكتب . انها فترة تمثل بحق مرحلة من مراحل التقدم الانسانى .

كان الحكام المقدونيون الذين أنشأوا المتحف وصانوه من سلالة عائلة حاكمة عرفت بفهمها للعلاقة بين العلم والحكم . ولقد أحرز فيليب والاسكندر انتصاراتهم الحربية بفضل المهندسين ، ولم يسمحوا أن توقعهم الأسوار . وقد دل الاسكندر على أنه يعرف كيف يشيد وكيف ينظم . وما كان للبطالمة الحاكمين لمصر أن يهملوا واجبا واضحا كالعمل على اعداد مهندسين وأطباء وفلكيين ورياضيين وجغرافيين . ولقد كان حكام المدن الاغريقية الرئيسية فى الماضى يعدون أمثال هؤلاء الرجال بطريقة تلقائية ليقوموا بمهام محدودة أما الآن ، وقد اتسعت المساحات التى تتطلب تنظيما ، أصبح من الضرورى وضع خطة تضمن تخريج العلماء الفنيين . كما أدى ذبوع المدارس الأثينية الى لباس كل فرع من فروع الثقافة الأدبية لباسا جديدا من الفخر والعزة .

وهيأت الظروف الجديدة في مصر بيئة جديدة للعلم والثقافة الاغريقين
الذين كان يغلب عليهما دائما طابع القومية والمحلية . فبينما بزغ كل
من اليسيوم والأكاديمية نتيجة لمجهودات شخصية ، كانت الاسكندرية
هي العاصمة الاغريقية لبلاد مصرية عظيمة وكانت الدولة وراء تنظيم
المتحف . وكان مطلوبا من العلم الاغريقى أن يمد جذوره في أرض
جديدة وأن يلعب دورا مغايرا . كان الطابع العالمى للمدينة الهائلة شيئا
جديدا . وكان البلاط والجيش من الاغريق ، واعتمد بطليموس الأول
في توفير المال اللازم على رجال الأعمال الاغريق الذين كانت الطبقة
الحاكمة تتكون منهم . وكان بالمدن بروليتاريا دولية تتكون أساسا من
الاغريق وتضم صغار التجار وأصحاب الحرف ومن شابههم . ومن بين
سكان المدن كان اليهود ، بعد الاغريق ، هم أهم الناس ثقافيا واجتماعيا .
أما باقى الشعب فمن المصريين الذين ظلوا يبنأى عن الحكم المقدونى
الذى وفد عليهم حاملا ثقافة الاغريق ، ولو أن هناك ما يشير الى حدوث
تزاوج بين بعض الاغريقين والمصريين .

وكانت العبودية المعتادة هي في نظر الاغريقى الثرى من أفراد الطبقة
الحاكمة السمة الرئيسية في تكوين مجتمعه وفكره ، فلم تكن الحياة
متصورة بالنسبة له دون امتلاك العبيد ، غير أن الثقافات المصرية
واليهودية وغيرها من الثقافات اصطدمت اصطداما مباشرا بهذه النظرة ،
ووجه البطالة بما خلفه لهم الحكم الفرعونى من مشاكل بالاضافة الى
مشكلة كونهم غرباء . وقد ألقت مصادر مختلفة . اكتشفت أخيرا ، ألقت
بعض الضوء على تكوين المجتمع المصرى ، فعند قاعدة الهرم الاجتماعى
شعب مقهور كبير التعداد يقوم ، ضمن ما يقوم به قسرا من مهام ، بمهمة
فرضتها طبيعة التربة نفسها . يقولون : ان مصر هبة النيل . غير أنها لولا

الكدح المتصل لعشرات الآلاف من الأيادي جيلا بعد جيل لكانت هبة جرداء ، فالنيل لا يروى أرض مصر تلقائيا اذ لابد من عون الانسان . لقد كانت هناك شبكة ضخمة من قنوات الري تمتد بعضها بعيدا تحت الأرض ليزود بالماء آبارا تحفظه لوقت الحاجة . لقد كان تقيس الحظ ، ذاك الذي يولد من أبوين ينتميان الى الطبقة التي قامت بهذا العمل . وكان المنجمون القدماء يعتقدون أن « حافري القنوات الذين أضناهم الكدح ، وحاملي المياه المكدودين ، وحافري الأنفاق تحت الأرض الذين يتقاضون أجورا بائسة لا تدع لهم أى أمل فى أن يتركوا شيئا لقاء كدهم » . يعتقد المنجمون أن هؤلاء قد ولدوا نتيجة كارثة حدثت تحت تأثير أوضاع خاصة للكواكب . والى جانب هؤلاء تقابل عمال المهن المتواضعة الأخرى — الخبازين مثلا التي كانت مصيبتهم ، وقتئذ كما فى العصور التالية ، أنهم مضطرون الى العمل ليلا حتى يأكل غيرهم نهارا ، وحاملي الأثقال على ظهورهم كأنهم دواب عجماء ، وعمال المحاجر وأولئك الذين ينقلون الأحجار المقطوعة ، ودع عنك الصغار الذين كانوا يحملون الزلط ، والغائصين وراء الاسفنج وخدمة الحمام الذين « كانوا يموتون فى شبابهم » بسبب خطورة مهنتهم . وطبقا لأحدث الأدلة لم يكن أولئك المصريون المساكين عبيدا بل كانوا عمالا لقاء أجر ، غير أن ذلك لا يغير من بؤسهم شيئا . تلك هى مصر التي كان الفقر فيها تقليدا والتي أخذ البطالة على عاتقهم حكمها . ولسنا بحاجة الى أن نذكر أن اهتمامهم لم يكن موجها نحو تغيير ظروف الحياة بها . ولم يكن من الممكن ، فى تلك المرحلة من مراحل تاريخ العالم ، أن يستغل العلماء والميكانيكيون الذين كانوا فى المتحف ، مواهبهم الخلاقة بطريقة روسية من أجل تخليص الجماهير من شقاءها . بل على العكس من ذلك تراجع

العلم عن وظيفته كسلاح في يد الانسان في حربه ضد الطبيعة ، واقتصر على أن يكون رياضة عقلية للمتأملين ، باستثناء حالات قليلة دعت اليها احتياجات الدولة (امدادها بالآلات الحرب) أو ترف الأغنياء (كنافورات الحدائق) . أما تخفيف آلام الفقير فقد ظلت مهمة يقوم بها الدين .

الدين الموجه والعلم الموجه

لم يكن المصريون يفتقدون هذه السلعة وهى الدين ، قبل وفود البطالمة ، غير أن تأسيس حكومة اغريقية بأرض مصرية أثار عددا من المشاكل الجديدة . وتكفل اله من الآلهة يرسم طريق الحل ، فقد علم أول البطالسة من حلم رآه ليلاً أنه لابد من دين جديد ، وأمر بأن يحضر من معبد المشتري في سينوب تمثالا لبلوتو يكون مركزا للنحلة الجديدة . ولم يكن تنفيذ هذه الاشارة الالهية بالأمر الهين اذ كان لابد من اتمامه بعناية واتقان . ووجد الحكام أن مزيجا من الديانة المصرية الوطنية والديانة الاغريقية المستوردة كفيل بأن يحل المشكلة ، وتعاون القس المصري مانيثو والقس الاغريقى تيموثياس على وضع صفات الاله الجديد ، واتفقا على أن يطلق عليه اسم سيراپيس . وكان معبده ، السيراپيوم ، واحدا من أفخم آثار العالم القديم . واختير تمثال من نحت پيراكسيس الذى يتنى الى مدرسة سكوياس فى منتصف القرن الرابع ، ليكون رمزا للاله . وكانت الطقوس تؤدى باللغة الاغريقية . كان الدين الجديد كما يقول لوىسى (١) « تكييفاً ماهرا لدين مصر بحيث يتفق وروح الاغريق وعاداتهم » .

ولم يتوان الاله الجديد فى اظهار علامات الحيوة . فمن صفاته أنه

(١) الأسرار الوثنية والسر المسيخى ، ١٩٣٠

يشفى المرضى وقد أتى بالمعجزات منذ البداية ، فلقد رد الى ديمترى
الغاليراس بصره ، وكان فيلسوفا من فلاسفة أثينا المشائين ومن تلامذة
ثيوفراستاس ، مما جعله ينظم أنشودة فى مدحه ظلت تنشد لعدة قرون .
ولم يكن من الجائز أن تقتصر بركاته على العاصمة دون غيرها من البلاد ،
فلم يحل القرن الثانى الميلادى الا وكان بمصر اثنان وأربعون سيرايموما .
غير أن طموح الاله لم يكن ليقف عند هذا الحد ، فامتد نفوذه فى وقت
مبكر جدا الى قبرص وصقلية وأنطاكية وأثينا ثم بعد ذلك الى سواحل
سوريا وآسيا الصغرى واليونان وجزر ايجه وهيليسبونت وتراقيا . وفى
ديلوس ، وكانت أيضا مركزا لتجارة الرقيق ، نافس التجار الرومانيون
الأرستقراطيين الاغريق فى عبادة الاله . وقد استمر هذا الدين حتى بعد
أن انتهى العصر الوثنى ، وتغلغل فى ايطاليا حيث اعتمد فى بوتيولى قبل
نهاية القرن الثانى ق . م . ، ووصل الى بومبي فى نفس الوقت تقريبا .
وحاول البرلمان أن يوقف انتشاره بين جماهير روما مفضلا أن يتقدم ،
هو نفسه ، بأديان جديدة على أن يسمح بأديان تتقدم بها الجماهير ،
غير أنه عجز واستسلم فى نهاية الأمر . ومن المحتمل أن يكون الامبراطور
كاليجولا قد بنى معبده العظيم لايونيس (التى شاركت فى عبادة
سيرايس) فى ساحة مارتياض فى سنة ٣٨ ميلادية .

- يلاحظ كومونت (١) أن فن الاغريق وأديهم سخرا لخدمة الدين
الجديد الذى خلقه بطليموس ونسى أن يذكر العلم الذى كان عليه هو
أيضا أن يساهم بنصيب فى خدمة هذا الدين . وذلك لأن العلم لا يستطيع
أبدا أن يبقى محايدا ، أن يبقى نقيا . فما ان تخلى عن طموحه فى تغيير
الحياة المادية للانسان بأن يستخدم فى الصناعة ، حتى اكتسب بسرعة

(١) الأديان الشرقية فى الوثنية الرومانية ، ١٩٢٩ .

مجالات جديدة وأصبح تابع الدين الأمين واستخدم في صنع معجزات في السيرايوم ومعابد مصر الأخرى . لقد أعلن ستراتو في فخر أنه غير محتاج لأن تساعد الآلهة لكي يصنع عالما بأسره . غير أن الآلهة لم تأنف من أن تطلب العون من ستراتو لتصنع عالمها ، فان هيرون الاسكندري ، الذي احتفظ بسجل لعمل ستراتو في « علم الهوائيات » ، يشرح لنا كيف نستفيد من هذا الفرع وغيره من فروع العلم « لا في سد الحاجيات الأساسية للحياة المتمدينة فحسب بل في احداث الحيرة والفرع » ، وهو يعنى بالحيرة والفرع معجزات المعابد .

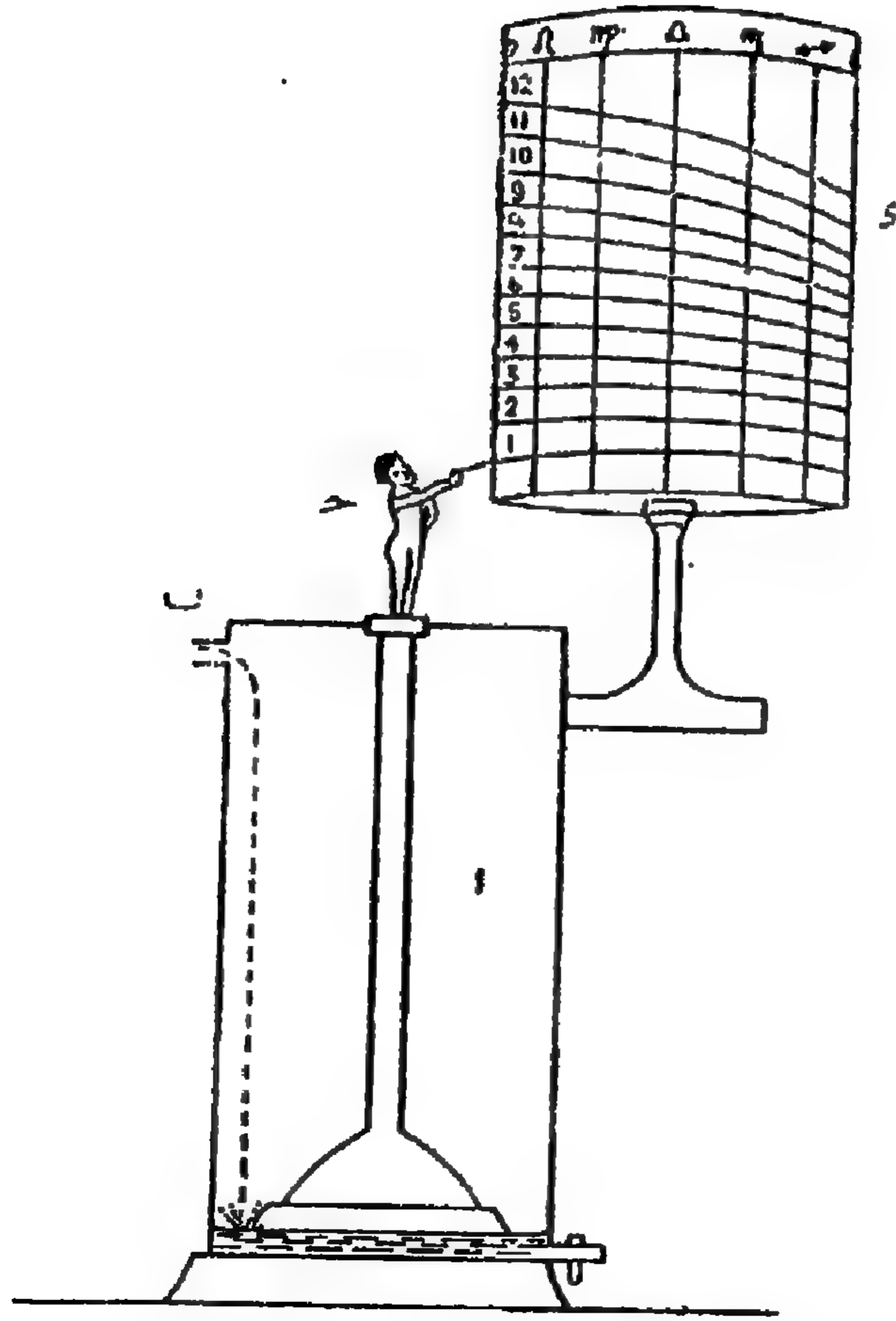
تستند معظم المعجزات التي وصفها هيرون الى واحد من مبدئين -- السيفون وقوة التمدد للهواء المسخن . وما كانت هذه المعجزات الا تطبيقات لهوائيات ستراتو . واستخدام مبدأ السيفون بعدة طرق بارعة متنوعة للايهام بأن الماء صار خمرًا وذلك بأن يمرر الماء خلال جهاز من السيفونات ليخرج منه خمرًا . أما قوة التمدد للهواء المسخن فقد أتت بحركات خارقة للطبيعة . كان بالمذبح غرفة للهواء موصلة بمقام الرب في أعلى ، فاذا حرق القربان على المذبح تمدد الهواء وفتح باب المقام دافعا بالرب الى الأمام فيبدو كما لو كان يحيى العابد . وقد استخدمت هذه القاعدة في حالات أخرى كثيرة . كما ثبت أن مبادئ علم البصريات ، وهو علم اسكندري ، استغلت دينيا في احداث الأطياف . ولم يحس ضمير هذا العصر بأى فرق ، من حيث المبدأ ، بين استغلال العلم لأغراض دينية وبين استخدام المؤثرات الضوئية أو موسيقى الأرغن التي كانت هى أيضا من نتاج هذا العصر ، فى نفس الغرض . فلم يكن الهدف سوى خلق شعب متدين وجعل الدين جذابا ومؤثرا . ويبدو أن الهدف قد تحقق .

ولقد وصلنا وصف كتبه الشاعر المثقف كلوديان لنوع غريب من معجزات المعبد ، وهو ينقل إلينا أيضا الأثر الذي كانت تحدثه الطقوس الدينية التي صاحبت احتفالات الدجل الدينى . وكانت قوة المغناطيسية هي القوة الطبيعية التي استغلت في هذه الحالة . المنظر معبد مشترك بين مارس وفينوس حيث تعد العدة لعقد قرانهما . ومارس تمثال من حديد مصقول أما فينوس فمن حجر المغناطيس . أبواب غرفة الزفاف مزينة بأكاليل من أزهار الآس ، والمضجع مفروش بالورود وأغطيته أرجوانية اللون . يبدأ القس مراسيم الزواج وتدخل الجوقة تغنى تسبقها شعلة الزفاف ويضج المكان وقد غمرته الأضواء بالموسيقى والألوان والروائح والطقوس . والمفروض طبعاً أن يستجيب الجمع لهذه المؤثرات ثم تأتى المعجزة ، فيؤتى بمارس داخل المجال المغناطيسى لفينوس « وتجذب فينوس دون أن تغادر مكانها ، الإله ، بفضل سحرها القوي وتحتضنه بذراعيها وتضمه الى صدرها الحنون » ، كما يقول الشاعر ، متفناً في اظهار فكرته (١) . يرجع تاريخ هذه القصيدة الى حوالي سنة ٤٠٠ ميلادية . ولم يتوقف استغلال العلم في عمل المعجزات طوال فترة نهضة العلم الاسكندراني وأقوله . وكان لهذا الدور أثره على العلم ، حتى اذا ما بدأ يزدهر مرة أخرى في العالم الحديث كان له هدف آخر غير خداع الناس .

(١) يقول له . أ . ن . برومهيدي (الجيولوجيا الجينية) ، نشرات جمعية الجيولوجيين ، المجلد السادس والخمسين ، الجزء الثاني ، ١٩٤٥ ، ص ١١٥ ، أنه وان كان من الممكن ان تجذب قطعة كبيرة من المغناطيس تمثالا صغيرا الا أنه ليس من المستبعد أن يكونوا قد استخدموا حبالا رفيعة لا تظهر بسبب الضوء الدينى الخافت .

المهندس

وكذلك كان للعلم القديم أهداف غير خداع الناس ، ولكن الى درجة محدودة : « وسنقتبس عن برونيت وميلى ما يزودنا بفكرة أولية عن طبيعة العلم السكندري الذى حان الوقت لأن ندرسه . يقول الكاتيان : « من المؤكد أن محاولات المهندسين القدماء عموما ، لا الاسكندرانيين فحسب ، لاستغلال آلاتهم فى أعمال مفيدة كانت شيئا استثنائيا . فهم لم يفكروا مثلا فى أن يستخدموا قوة الماء أو الهواء المضغوط أو البخار كمصدر للقوة يساعدهم فى تجارتهم ، أو ليحصلوا على نتائج مماثلة لما كشف عنه تطور المدنية الحديثة . ولن نكون مخطئين اذا قلنا انه كان فى ميسورهم ، وهم على ما كانوا عليه من معرفة ، أن يتوصلوا الى مثل ما فاخر به القرن الثامن عشر لو أنهم استفادوا من النواحي الميكانيكية التى ابتدعوها للعبهم . ومع هذا فإن علينا ونحن نسجل فشلهم ، وهو فى حد ذاته أمر يعده العقل الحديث غريبا ، أن نتذكر أن الفنين القدماء لم يقصروا اهتمامهم على اللعب ، فقد صمموا بعض الآلات المفيدة حقا ، كطلمبات رفع المياه واطقاء الحريق . وتبدت عبقريه الاسكندرانيين أكثر ما تبدت فى اتفاق صنع عدد كبير من الآلات الدقيقة التى لا غنى عنها حتى لتقدم العلم ، وهى العدد الفلكية والساعات المائية » . هناك الآن اتفاق عام على أن كتيبياس هو مؤسس المدرسة السكندرية فى الميكانيكا . ولقد عاش فيما بين عامى ٢٨٥ ، ٢٢٣ ق . م ، أى أنه شهد جانبا من حكم بطليموس الثانى وجانبا من حكم بطليموس الثالث ، وكان أبوه خلاقا بالاسكندرية . ومن أغماله الأولى أنه صمم طريقة تجعل من السهل رفع مرآة الحلاق وخفضها ، وذلك بموازنتها بكتلة من الرصاص معلقة فى حبل وتتحرك الى أعلى وإلى أسفل داخل ماسورة يحجبها لوج



الساعة المائية التي صنعها كستيبسياس

- (أ) اناء به عوامة .
- (ب) فتحة في الذهب أو في حجر ثمين ، تدخل منه المياه .
- (ج) التمثال الصغير الذي يرتفع مع العوامة ويشير إلى الساعة .
- (د) اسطوانة تدور دورة كل عام ، وهي تبين الساعات التي تتغير أطوالها حسب الفصول . وتشير الخطوط الرأسية إلى الشهور .

من الخشب . واذا توفر الذكاء الفطري فان اكتشاف شيء سرعان ما يؤدي الى اكتشاف آخر . وهذا ما حدث لابن الحلاق العبرى ، فانه تنبه الى أن كتلة الرصاص عند سقوطها تدفع الهواء الى الخارج مصحوبا بصوت مسموع ، ومن ثم اهتدى الى اختراع الآلة الموسيقية الميكانيكية التي تطورت فيما بعد الى الأرغن المائى الذى وجد شيشيرون بعد حوالى مائتى عام متعة فى الاستماع الى نعماته . ويستمد الجهاز قوته من عمود من الماء يستند الى وسادة من الهواء . ويمر الهواء خلال صمام الى أسطوانة أفقية متصلة بسلسلة من المواسير الرأسية تسمح للهواء أن يتخللها عن طريق صمامات .

ان اختراع الموسيقى الميكانيكية ليس أمرا هينا فى تاريخ المدنية غير أن هذه الآلة المائية لم تكن العمل الوحيد الذى قام به كستيسياس ، فان ساعاته المائية لا تقل عنها شهرة . واليك وصفا لها نقلا عن فيثروقياس (الكتاب التاسع ، الجزء الثامن ص ٤٠ ، ٥) . ويساعد الرسم المقابل على فهم هذا الوصف : « يدخل الماء من ثقب فى قطعة من الذهب أو من الدر ، وذلك لأن الذهب أو الدر لا يبلى ولا ينسد مما يضمن استمرار جريان الماء . وعلى سطح الماء يطفو وعاء مقلوب وكلما ارتفع منسوب الماء ارتفع الوعاء الذى يسمى بالفليئة أو الطبلية التى تتصل بعمود وأسطوانة تدور حوله ، والعمود والأسطوانة مزودان بأسنان متداخلة . وبهذه الطريقة تتحول الحركة العمودية للفليئة الى سلسلة من الحركات الدائرية الضيقة . وبإدخال التحسينات على هذا الجهاز أمكن كستيسياس بواسطة عدد من القبضان والأسنان أن يحصل على تشكيلة من الحركات ويتحرك التمثال الصغير فيشير الى الوقت ، وتدور أسطوانة الساعة ، وتسقط أحجار أو تبقى ويعزف الطبل وغير ذلك من المؤثرات » .

ويلاحظ القارئ الفطن أن هذا الوصف يتضمن معرفة لصفات بعض المواد الى جانب الالام بمبادئ الميكانيكا . وجدير بالذكر أن هذه الساعات كانت معقدة في غير ما ضرورة وذلك بسبب نظام الوقت القديم الذي كانت تختلف بمقتضاه الساعات الزمنية في الطول باختلاف الفصول . كان النهار والليل ، الظلام والنور ، مقسمين الى اثني عشر قسما غير أن ساعات النهار كانت أطول في الصيف منها في الشتاء وكان لا بد أن يراعى كستيسيبياس هذا الاصطلاح غير الملائم في تصميمه لساعاته كما نكيف نحن العدد والجداول بحيث تتفق مع نظامنا المتري البدائي .

والى جانب الأرغن المائي والساعة المائية اخترع كستيسيبياس أسلحة للمدفعية تعمل بالهواء المضغوط ومضخة ماصة كاسبة مزدوجة لرفع المياه اللازمة لآلات اطفاء الحريق . غير أن الاختراع الأول لم ينجح بسبب صعوبات ميكانيكية واجهت صنعه . أما آلة الحريق ، وهى على نفس القدر من الأهمية النظرية ، فقد أحرزت نجاحا عمليا أكبر . وهى تعتبر بوجه عام أهم أعماله .

ونحن لم نعرف كستيسيبياس الا عن طريق ما كتب من تقارير عن اختراعاته الرئيسية ، أما معاصره الأصغر سنا ، فيلو البيزنطى ، فقد كان أسعد حظا ، اذ وصلت الينا أجزاء من مؤلفه الشامل في الميكانيكا . ونحن نستطيع أن نلم برسالة العلم الاجتماعية في هذا الوقت بدراستنا لمحتويات الكتب التسعة التى يتضمنها هذا المؤلف . ولدينا من الأدلة ما يجعلنا نقول : ان هذا المؤلف يتناول استخدامات الرافعة وبناء الموانئ والقذائف أو المدفعية والهوائيات أو الآلات التى تقوم على الهواء المضغوط وبناء الآلات التلقائية وتحصين المدن وحصار المدن وربما بعض الجوانب العسكرية الأخرى . ومن الواضح أن الاستخدام الأساسى للميكانيكا

كان في ميدان الحرب . ويصور لنا الاهتمام بالموانيء النشاط الانشائي
لذلك العصر . وما في شك في أن الاستخدام الأساسي للآلات وقوى
الهواء كان في ميدان اللهو والمعجزات . أما استخدام الميكانيكا في
الصناعة فأمر لم يحدث .

ومن الفقرات الهامة بوجه خاص في كتاب فيلو عن القذائف فقرة
ترجمها كوهين ودرابكين (ص ٣١٨ ، ٣١٩) وتصف التجارب الواسعة
التي جرت في مبادئ صنع المدفعية والتي تمت بفضل سخاء البطالسة .
ووجه الأهمية هو أنه بينما تكمن قوة العلم الاغريقي التقليدية في طابعه
المنطقي الاستدلالي يتجلى هنا بوضوح الجانب التجريبي ، اذ يستهدف
البحث اكتشاف معادلة تجريبية تخدم صناعة المدفعية . وهذا هو الجانب
الذي لم يظهر في العلم الاغريقي ، فأفلاطون لم يكن يعترف به ، ومعروف
عن أرشميدس أنه طمس الخطوات التجريبية التي توصل بها الى نظرياته
بمجرد أن تمكن من صياغة مكتشفاته في قالب من المنطق .

الطبيب

نتقل الآن من الميكانيكا الى الطب . لقد تعرفنا بأعمال كستيسيبياس
وفيلو اللذين استأنفا عمل اليسيوم في الميكانيكا والهوائيات ، وستعرف
الآن بهيروفيلاس وأراسيستراتاس اللذين واصلتا نشاط اليسيوم في
ميدان البحث البيولوجي .

نشأ هيروفيلاس في تشالكيدون في بيشنيا ، واشتهر حوالي
عام ٣٠٠ ق . م . وكتب مؤلفا عاما في التشريح وبحثا خاصا بالعينين .
وكتابتا أوليا للقائلات يصف فيه بشكل مبسط تشريح الرحم ، وهو مثال
جديد لتلك النخوة الانسانية التي كانت تشع بين وقت وآخر بين طبقات

تاريخ الطب الاغريقى . ومن الممكن أيضا أن يعد وقاء لما يحس به رجل العلم من دين ازاء المرأة الحرفية . ومن المعروف أن أرسطو مدين للصيادين ورعاة الماشية فى حصوله على بعض معلوماته الواسعة الخاصة بالمواضيع البيولوجية . غير أن الدين الذى يدين به لمهنة الولادة غير معروف جيدا وجدير بأن يذكر . ففى كتابه « تاريخ الحيوانات » (الجزء السابع ، ص ١٠) نجد الفقرة التالية : « ان مهمة قطع الحبل السرى من واجب القابلة وهى مهمة تتطلب ذكاء متوقدا . ان كل شىء فى حالات الولادة الصعبة يتوقف على مهارتها . يجب أن تكون حاضرة البديهة حتى لا ترتبك ازاء أى طارئ وحتى تستطيع ربط الحبل . والخلاص اما أن يخرج مع الطفل أو يبقى داخل الأم . وفى الحالة الأولى يجب عقد الحبل السرى ثم قطعه بين العقدة والخلاص ، عندئذ سيلتئم الحبل حيث عقد . غير أنه لو حدث أن انفكت العقدة فان الدم يتدفق ويموت الطفل . أما فى الحالة الثانية فيجب عقد الحبل وقطعه بعد ولادة الطفل وأثناء وجود الخلاص بالداخل . وكثيرا ما يظن أن الطفل ولد ميتا وذلك اذا كان ضعيفا وتسرب الدم الى الحبل وما يجاوره من أجزاء وفى هذه الحالات تضغط القابلات المحنكات على الحبل ليعود منه الدم ، وتعود الحياة الى الطفل وكأنما كان قد استزفت دماؤه . والأطفال كما سبق أن ذكرنا ينزلون برؤوسهم شأنهم فى ذلك شأن الحيوانات الأخرى ، وهم ينزلون أيضا وأذرعهم ملاصقة لجوانبهم . وما أن يولدوا حتى نجدهم يصرخون ويحركون أيديهم تجاه أفواههم . والبعض يتبرز على الفور ، والبعض الآخر بعد مضى فترة من الوقت . وعلى العموم فانهم يتبرزون خلال يوم من ولادتهم . ويسمى هذا البراز الأول الميكونيا . ويتميز من التبرز العادى بوفرته » . والقول بأن تسرب الدم

الى الحبل قد يسبب الموت عند الولادة ليس صحيحا ، وربما كان الخطأ في ترجمة الاصطلاح *Asphyxia Neonatorum* . على أنه لا شك في أن أرسطو استقى حقائقه من القابلات ، وينبىء عن ذلك دقة ملاحظاته وشمولها . إن هيروفيلاس يحافظ على الصلة بين البحث البيولوجي والولادة .

(من أهم ما أسهم به هيروفيلاس في التشريح بحث عن موضع الذكاء في الانسان . كان الكمايون قد نجح في القرن الخامس في تحديد موضعه على أنه في المخ ، ثم جاء أرسطو بعده بقرن من الزمان فنقله من المخ الى القلب وأورد لذلك عشرة أسباب رائعة ، غير أنها ثبت خطأها . وقد عاد هيروفيلاس الى رأى الكمايون بعد أن قام بتشريح دقيق للجهاز العصبى والمخ . وكان المشرحون قد أحرزوا قبله بعض التقدم في تتبع أعصاب الحواس أما هو فكان أول من حصل على صورة عامة للجهاز العصبى وأول من ميز أعصاب الحركة من أعصاب الحس ، ولا تزال أسماء أجزاء المخ تحمل آثارا من عمله .)

واصل أراسيستراتاس الكيوسى ، وهو معاصر لهيروفيلاس غير أنه أصغر منه سنا ، واصل عمله من ناحية واختط لنفسه اتجاها خاصا . من ناحية أخرى : يقول سنجر أن أراسيستراتاس طور ما وصل اليه هيروفيلاس بخصوص الأوعية الليفافية حتى بلغ بها نقطة لم تتقدم بعدها الى أن جاء جاسبارو أسيللى (١٥٨١ - ١٦٢٦) . غير أن الجانب الأكبر من عمل أراسيستراتاس كان في ميدان جديد . فإذا كنا نعتبر هيروفيلاس مؤسس التشريح فإن أراسيستراتاس هو مؤسس الفيسيولوجيا . وكان لعمله ، رغم أنه لم ينته الى النتيجة الصحيحة ، أثره البالغ في موضوع الدورة الدموية . ومما ثبت نجاحه في تطوير معلوماتنا

عن القلب أنه اهتدى الى الصمامات شبه الهلالية والصمامات الثلاثية وذوات التاجين ، وتتبع تفرع الشرايين والأوردة حتى حدود البصر وكان واثقا من أنها لا بد وأن تكون ممتدة الى أبعد من ذلك . ويعتبر فشله بعد كل هذا في أن يتوصل الى نظرية الدورة ، مثلا للعقبات الكبيرة التي تواجه العلم في تقدمه .

وان الظواهر الطبيعية على درجة لا نهاية لها من التنوع والتعقيد حتى ليضل رجل العلم طريقه بينها ان لم يجعل له هدفا معينا . ووجود الهدف يعنى أنه يهتدى بنظرية معينة . غير أن الاهتداء بنظرية يجعله يميل الى أن يرى ما يدعم نظريته ويغفل الحقائق الهامة الأخرى . ولا مخرج من هذه العقبة الا بالصبر والنظام اللذين يمكنه أن يستمدهما من التقاليد القديمة للعلم . في مثل هذه الظروف يكون العقل المتحمس والغيرة أكثر عرضة للوقوع في الخطأ من العقل الذى لا يتحلى بهاتين الصفتين الجذابتين . وما من شك في أن أراسيستراتاس كان متحمسا لمثله الأعلى ، العلم . وهناك رأى شائع ، تؤيده الحقائق ، يقول بأن أراسيستراتاس وستراتو أثر كل منهما في الآخر تأثيرا عميقا . وأغلب الظن أنهما كانا على صلة شخصية . ولقد بلغ من تشابه نظرتهما للأمور أننا لم نجد ما يمنعنا من أن نستخدم كلام أراسيستراتاس لنصور العلم التجريبي لستراتو . ولم يكن الاتجاه التجريبي هو وحده الذى جمع بينهما فإن كلا منهما كان يبحث نفس المشكلة التى يبحثها صاحبه في مختلف الفروع . فأراسيستراتاس كان من أقوى المتحمسين لنظريات ستراتو عن الفراغ ، وقد اتخذ منها أساسا لنظامه الفسيولوجى . وكان في ذلك فشله في نهاية الأمر . فبينما لم يشك هيروفيلاس في أن وظيفة الشرايين والأوردة هى نقل الدم ، نجد أراسيستراتاس ، وقد فتنه كلام

ستراتو عما تتعرض له السوائل من جذب بسبب الفراغ ، ينتهى الى أن الشرايين خالية من الدم . وهو بالطبع كان يعلم أنك لو قطعت شريانا فى حيوان حى لنزف دما ، ولكنه كان يعلم أيضا أن هناك حقيقة أخرى على العكس من الأولى وهى أن شرايين حيوان ميت تكون خالية من الدم ، وممتلئة بذلك الهواء الذى لو تخلخل لاستطاع ، كما بين ستراتو أن يمتص السوائل . وكان لاهتداء أراسيستراتاس الى التفرعات الدقيقة للأوردة والشرايين فضل اقتناعه بأنها متصلة بوساطة أوعية شعرية . مكنته معرفته بهوائيات ستراتو من أن يوفق بين الحقيقتين المتناقضتين فى الظاهر وهما أن جرح حيوان حى يتسبب فى احداث نزيف وفى نفس الوقت يثبت التشريح أن شرايين حيوان ميت خالية من الدم ، وانتهى الى أن الشرايين فى أى الحالات لا تحتوى الا على هواء وأنه عند قطع شريان ما يهرب الهواء مخلفا وراءه فراغا يجلب ، بما له من قوة جذب ، الدم من الأوردة الى الشريان عبر الأوعية الشعرية . ثم ينزف الشريان هذا الدم فى أعقاب الهواء الخارج . وكان تفسيراً ماهراً وقائلاً فى نفس الوقت ، فقد ظل لفترة من الزمن عقبة فى طريق التوصل الى رأى صحيح عن وظيفة الجهاز الدموى . حتى اذا ما جاء جالينوس بعد أربعمائة وخمسين عاما ، هدم رأى أراسيستراتاس بأن أجرى تجارب تشريحية دقيقة على الحيوان وهو حى ، وهى تجارب أجراها فيسالياس مرة أخرى بعد ذلك بحوالى ١٤٠٠ سنة أمام طلبته فى بادوا . وقد صارت هذه التجارب التى ترمى الى اثبات وجود الدم فى الشرايين عملا تقليديا قاد هارفى بعد حوالى ثمانين سنة أخرى ، وكان من طلبة بادوا ، الى اكتشافه العظيم . ولم يكن نجاح هارفى راجعا الى خلو فكره من النظريات الزائفة فلقد كان لديه منها قدر ما كان لدى أراسيستراتاس ، غير أنه لم يعرها أى اهتمام . وكان جوهر التقدم هو التحلى بموهبة المثابرة على الملاحظة.

الرياضيون

كان الطب والميكانيكا هما فرعى العلم الاسكندري اللذين تجلى فيهما بشكل واضح ارتباطه تاريخيا بالليسيوم . أما الرياضيات — التي يعتبرها الكثيرون أعظم ما توصل اليه العلم الاغريقى — فكانت تعكس بدرجة أكبر نفوذ الأكاديمية . وليس معنى هذا بالطبع أن الليسيوم لم يكن مهتما بهذا الفرع ، فقد ذكرنا من قبل أن أحد تلامذة أرسطو وهو يوديماس كتب تاريخا للرياضيات ، غير أن هذا المؤلف ، ويرجع تاريخه الى ما قبل عام ٣٠٠ ق . م ، لا يمكن أن يزودنا ، حتى اذا وصل الينا ، بأية معلومات عن أوقليد مؤسس الهندسة السكندرية ، والذي يعتبر كتابه « المبادئ » الذى يقع فى ثلاثة عشر مجلدا ، أبظم مرجع لتاريخ العلم بأجمعه . غير أنه بعد انقضاء حوالى سبعمائة عام على يوديماس ظهر فيلسوف من الأفلاطونيين الحديثين يدعى پروكلاس (٤١٠ — ٤٨٥ م) . وكان هذا الفيلسوف منشغلا بكتابة تعليق على الكتاب الأول لأوقليد ووجد فيما كتبه يوديماس عن الأيام الأولى لتاريخ الهندسة عوناً له على أن يتوصل الى ما قام به أوقليد من أعمال . ولا يزال تعليق پروكلاس موجوداً ، وسنفحص الصفحات الأولى منه آمليين أن نحقق بذلك ثلاثة أشياء : أولاً ، الوصول الى بعض الحقائق عن الأيام الأولى لتاريخ علم الرياضة الاغريقى الذى لم تتعرض اليه بعد ، ثانياً ، تحديد ما تحلى به أوقليد من صفات كانت موضع الاعجاب فى الأزمنة القديمة والحديثة على السواء ، ثالثاً ، ضرب مثل ، من كاتب تقادم به العهد مثل پروكلاس ، لما اتصف به الاغريق من حرص على الاحتفاظ بتراثهم العظيم حتى بعد أن فقدوا القدرة على أن يضيفوا اليه جديداً . انها حقاً مفخرة من مفاخر المتحف العظيمة أن ابتدع تقليد

المنح العلمية التي لولاها لتضاءلت فرص البقاء أمام ما خلفته العبقريات من أعمال .

يقول پروكلاس ان الهندسة نشأت أول ما نشأت في مصر بسبب الحاجة المستمرة الى اعادة مسح الأرض كلما أطاح فيضان النيل بالحدود وهذا حق ، فان أى علم لابد وأن ينشأ بطبيعة الحال عن حاجة عملية . فالحساب مثلاً نشأ بين الفينيقيين نتيجة لمقتضيات التجارة والعقود . كان طاليس أول من نقل الدراسة من مصر الى اليونان ، وكان قد أحرز نجاحاً في التعميم اتخذى به خلفاؤه . أما الرجل الذى جعل من الدراسة تعليماً متحرراً فكان فيثاغورس ، اذ حاول أن يرسى دعائم العلم على مبادئ أساسية مختبراً نظرياته عن طريق العقل المجرد بمعزل عن المادة . وقد اكتشف نظرية الكميات المتناسبة وتركيب الأشكال الكونية . ومن الرجال البارزين الذين ظهروا بعده ، أناكساجوراس الكلازومينى وأوينوبيدس الكيوسى وأپوقراط الكيوسى الذى اكتشف تربيع الهلال وثيودوراس السيرينى . وأپوقراط هو أول من كتب « المبادئ » . وجاء أفلاطون من بعده فدفع الهندسة بتحمسه لها دفعة هائلة الى الأمام فقد ملأ محاوراته بإشارات للرياضة وغرس في نفوس محبى الفلسفة جميعاً احترام هذا العلم . وعاصر أفلاطون ليوداماس من ثاسوس وأرتشيتاس من تارتنام وثياتيتاس من أثينا . ومن بين تلامذة ليوداماس تلميذ يدعى ليون قام بكتابة « المبادئ » من جديد مدخلاً عليه بعض التحسينات . وتولى تلميذ آخر يدعى ثيودياس كتابة « المبادئ » بشكل أكثر تنظيماً . وكان ثيودياس عضواً بالأكاديمية مثل يودوكساس الكندى وأميكلاس الهيرقلى ومناثماس وأخيه دنيوستراتاس ، وأثيناياس من سايزيكامس وهيرموتيماس من كولوفون وفيلب من مدمما .

ويضيف پروكلاس أن جامعي التاريخ تتبعوا تطور العلم حتى هذه النقطة . ولم ينقض وقت قصير الا وظهر أوقليد مؤلف « المبادئ » والذي برهن بالدليل القاطع على تفكك ما قام به أسلافه . وما يثبت أنه عاش في عصر بطليموس الأول أن أرشميدس أشار إليه في كتاباته . ولدينا كذلك قوله المشهور ليس هناك طريق ملكي خاص يؤدي الى الهندسة ، قاله ردا على بطليموس عندما سأله عن طريق يكون أقصر من « المبادئ » ويؤدي الى الهندسة . وكان أوقليد بارزا في الفلسفة الأفلاطونية ، واختتم « المبادئ » بتركيب الأشكال الأفلاطونية أو الكونية . كما كتب كثيرا من المؤلفات العلمية الممتازة مثل « البصريات » و « مبادئ الموسيقى » . أما العمل الفذ الذي أكسبه المجد فهو « مبادئ الهندسة » الذي يمتاز لا بحسن ترتيبه فحسب ، بل باختيار المواد أيضا ، فقد حرص على ألا يحشوه بكل ما يعرف مقتصرا على ما يعد بحق من المبادئ . والمبادئ مرجع واف ولا يرقى اليه الشك في ميدان البحث العلمي المتعلق بالرياضيات . وفي هذا ما يكفي بخصوص تلخيص پروكلاس .

ان الطلبة الانجليز الذين يدرسون الهندسة الاغريقية سعداء بالحظ فالى جانب المؤلفات القديمة الممتازة مثل « الهندسة الاغريقية » لألمان و « المختصر في تاريخ رياضة الاغريق » لجاو ، ظهر في عام ١٩٢١ الكتاب المشهور « تاريخ الرياضة عند الاغريق » وهو من جزأين وضعهما سيرتوماس هيث . وأعقبه في ١٩٣٩ ، ١٩٤١ « الأعمال الرياضية عند الاغريق » طبعة لويب من جزأين ، وهو تأليف ايفورتوماس ، ويتناول نفس الموضوع الذي يتناوله هيث ولكن بطريقة تجعل الدراسة أمرا سهلا وتزيد من قيمة المؤلفات القديمة . فبينما يعرض هيث تاريخا متصلا

لموضوعه انتقى توماس عدة منتخبات من الكتابات الاغريقية التي وصلت
اليها ونسقتها وقدم لها وشرحها كما نشر أمام كل جزء منها ترجمته
الانجليزية . حقا ليس هناك طريق ملكى خاص يؤدي الى هندسة الاغريق
غير أن القراء الانجليز قد توقرت لهم سبل الاطلاع على الموضوع بأكمله
أو على ما يشاءون من أجزائه . ونلفت نظر أولئك الذين يقرءون اليونانية
الى طبعة هيث المدرسية المشروحة للكتاب الأول لأوقليد . ولم يكن هيث
مخطئا أبدا عندما فكر في أن الكثيرين « يهمهم حقا أن يروا اللغة التي
علم بها الاسكندري القديم صفوة شباب عصره وطلابه ، ويتخيّلوا أنفسهم
في أمكنة زملائهم منذ اثنين وعشرين قرنا مضت » .

وبأوقليد وخليفته المباشرين أرشميدس من سيراكيوز وأبولونيوس
من بيرجا بلغت الرياضيات السكندرية من التطور حدا لا يستطيع فهمه
أو وصفه الا الاخصائي . وأنا على أية حال لست من الكفاءة في الرياضة
بحيث أفهم ما وصل اليها من أعمال أرشميدس وهي « الكرة والأسطوانة »
« المخروطى والكروى » ، « الحلزونات » ، « عن تربيّع القطع
المكافىء » ، غير أن مؤلفه الصغير المسمى « محصى الرمال » أقرب الى
فهم الرجل العادى ، وموضوعه أن الاغريق كانوا يستخدمون في
حساباتهم الرياضية علامات أبجدية ، الأمر الذى جعل من الصعب تناول
الأرقام الكبيرة ، اذ بينما لا نستعمل نحن الا عشرة رموز ومن ثم نعبر
بسهولة عن الأرقام وفق ما لأوضاعها من معان ، استخدم الاغريق سبعا
وعشرين علاقة أبجدية ولم يستغلوا ميزة العلامات الموضعية . وهكذا
ظلوا يرهبون التعبير عن الأرقام الكبيرة جدا لأنها تستلزم في اعتقادهم
عددا ضخما من الرموز . وقد بدد أرشميدس هذه المخاوف في كتابه
الصغير الذى أهداه الى الملك جيلو ملك سيراكيوز ، وذلك بأن عرض

نظاما اخترعه يمكن المرء بواسطته أن يعبر بسهولة ووضوح عن أى عدد حتى ولو كان هذا العدد هو عدد حبات الرمل التى يتكون منها العالم ، اذا افترضنا أن العالم مكون من حبات من الرمل عددها معروف وكان أكبر عدد عبر عنه مساويا فى نظامنا الحالى لرقم ١ وأمامه ثمانين ألف مليون مليون من الأصفار .

اشتهر أبو لونيّاس بمؤلفه « القطاعات المخروطية » . وقد وصف مجال هذا المؤلف فى خطاب اهداء الى صديق له ، جاء فيه أن عالما هندسيا يدعى نوكراتس يقيم معه بالاسكندرية هو الذى اقترح عليه تأليف هذا الكتاب ، وأنه أتم تأليف الكتب الثمانية بأسرع ما يمكنه لأن نوكراتس كان مضطرا الى السفر ولم يكن هناك لذلك وقت كاف للمراجعة . ثم قال انه بصدد نشر طبعة منقحة ويرجو صاحبه ألا يدهش اذا وجد أن بعض المسائل لا تزال كما كانت عليه أصلا من عدم الدقة . تحوى الكتب الأربعة الأولى عرضا منظما لمبادئ المخروطيات بينما تتناول الأربعة الأخرى عددا من المسائل حيثما اتفق . والموضوعات الأساسية فى الكتب الأولى هي :

- ١ — طرق عمل القطاعات الثلاثة .
 - ٢ — خواص أقطار القطاعات ومحاورها .
 - ٣ — النظريات اللازمة لتركيب المحال الهندسية الملموسة ولتحديد حدود الاحتمالات .
 - ٤ — البحث فى عدد المرات التى يمكن أن تتقابل فيها قطاعات المخروط مع بعضها ومحيط الدائرة .
- وهو حريص على أن يذكر ما أضافه هو الى مجموع المعرفة المتعلقة بالموضوع .

وستعرض لهندسة الاغريق مرة أخرى عند تناولنا لعلم الفلك لديهم
فهو المجال الأساسى الذى طبقوا فيه هندستهم غير أن هناك ملاحظة
عامة نحب أن نذكرها قبل أن نترك الموضوع ، وهى أن نجاح أوقليد
الكبير فى عرضه كل الهندسة بطريقة الاستدلال المنطقى ، بادئا بعدد
صغير من التعريفات والقضايا المسلم بها والأفكار العامة ، بمثابة مقياس
للصدق العلمى . ولقد حاول الاغريق تطبيق هذه الطريقة لا فى ميدان
الرياضة البحتة فحسب ، بل كذلك فى ميدان العلوم القائمة على المشاهدة
والتجربة كالفلك والميكانيكا ، ولكن المحاولة لم تأت بالنتيجة المرجوة
فالعلماء كانوا يميلون الى أن يعتبروا علما كل ما يمكن ادراجه ضمن
الاستدلال النابع من مبادئ قليلة قائمة بذاتها على أن تبنى بناء منطقيا .
وكان الانسياق وراء التماسك المنطقى يعوق أى استعداد لامتحان
الافتراضات الأساسية على ضوء ما يجد من مشاهدات سواء فى عالم
الطبيعة أو فى العمليات التى يتحكم فيها الانسان . وبدأ بناء الأنظمة
يحل محل البحث فاذا لم يتلاءم شئ مع النظام المفروض ترك جانبا .
وسيتضح فيما يلى نواحي القوة والضعف فى هذا الأسلوب :

يعتبر الكثيرون أرشميدس (٢٨٧ — ٢١٢) أعظم رياضى ، وكذلك
أعظم ميكانيكى ومهندس فى الأزمنة القديمة ، وقد يعتبره البعض أيضا ،
مع بعض الشك ، أحسن من فهم المنهج التجريبى بعد ستراتو . وقد سبق
أن تكلمنا عن مؤلفاته الرياضية . أما أعماله الهندسية فتتضمن صنع
مسيار (١) مكنة ، كما قال شيشيرون ، من تمثيل كل الحركات غير
المتكافئة والمختلفة للأجرام السماوية ، واختراع طنبور لرفع المياه
استخدم فى الرى بمصر وفى رفع المياه بالمناجم . ولسنا نعرف على وجه

(١) آلة تمثل حركة الكواكب (المترجم)

الدقة الطريقة التى كان يعمل بها هذا الطنبور غير أن المعلومات الأخيرة تدل على أنه كان مرهقا للعبيد ، فقد كان يحرك كميات كبيرة من الماء بوساطة مجموعة من البكر المركب . أما الآلات الحربية التى ابتكرها بغرض الدفاع عن سيراكيوز فيبدو أنها لم يكن لها مثيل فى العالم القديم . ويتجلى تعلقه بالتجربة فى أكثر من فقرة . وربما كان أهم هذه الفقرات وصفه فى الصفحات الأولى من كتابه « محصى الرمال » لما بذله من جهود للتوصل الى تحديد أكثر دقة للزاوية التى يواجه بها قرص الشمس عين الانسان . وكان أريستاركاس قد قدر أنها تساوى جزءا على ٧٢٠ من دائرة البروج أى نصف درجة . ولكى يحصل أرشميدس على تقدير أدق راقب الشمس بمجرد أن اعتلت الأفق ، فذلك هو الوقت الوحيد الذى يمكن مشاهدتها فيه بالعين المجردة ، وراقبها بوساطة قرص دائرى منحنى بعناية ومثبت بنهاية مسطرة طويلة على شكل زاوية قائمة ، ومركب بحيث يمكن إبعاده أو تقريبه من العين . وسجل أرشميدس قراءتين الأولى عندما غطى القرص عين الشمس كلها والثانية عندما بدأ يعجز عن تغطيتها ورسم مناسين للقرص . ينتهيان عند العين ، وأعطته القراءة الأولى بالضرورة زاوية كبيرة بينما أعطته الثانية زاوية أصغر . أما الزاوية الصحيحة فتتراوح بين القراءتين . وقد بذل أيضا مجهودا لتصحيح الخطأ الناجم من أن الانسان لا يرى بنقطة من عينه بل بجزء منها . وتستحق هذه التجربة أن تنضم الى تجارب ستراتو كمثال لما يكون عليه بناء جهاز لغرض معين مع اتخاذ الاجراءات اللازمة لمنع الوقوع فى خطأ عند استعماله .

ومع ذلك فلو أننا درسنا من زاوية سليمة طابع العمل العلمى الذى قام به هذا الرجل الفريد فى عظمته ، لاستطعنا أن نلبس فيه ضعفا معيناً

بسبب اعجاب صاحبه اعجابا غير محدود بالرصانة المنطقية في الهندسة .
ويمكننا أن نفهم هذا خير الفهم لو قارنا بين كتاب أرشميدس عن
« الاستاتيكا » ومؤلف أرسطو في « الميكانيكا » الذي سبق وصفه .
ان مؤلف أرسطو ، أو بالأحرى المؤلف المعزو الى أرسطو ، يعرض علم
الميكانيكا في مستوى أكثر بدائية وتعثرا من المستوى الذي أوصله اليه
أرشميدس ، وان كان أكثر شمولاً واقداماً . ولعل القارىء يذكر الشبكة
الواسعة من مسائل الاستاتيكا والديناميكا التي عالجها المؤلف الأول .
وقد بذلت جهود كبيرة لتحقيق الوحدة في هذا الحقل الواسع من المسائل
عن طريق تفهمها في ضوء الخواص العجيبة للدائرة . « ولهذا ، كما سبق
أنه لاحظنا ، فليس عجيباً على الإطلاق أن تكون الدائرة هي المبدأ وراء
كل هذه العجائب . فالحقائق المتعلقة بالميزان تعتمد على الدائرة والحقائق
المتعلقة بالرافعة تعتمد على الميزان وكذلك تعتمد كل المسائل الأخرى في
الحركة الميكانيكية على الرافعة » (مسائل ميكانيكية — ١٨٤٨) . انك
لا تجد مثل هذه الجرأة في محاولة أرشميدس ، فقد اخترع كثيراً من
آلات قذف الأثقال ولكنه لم يدرس القذائف . وكان على المام شامل
بما يعترض فكرة الحركة من صعاب منطقية . وكان على وشك أن يضع
علماً . والعلم ، في رأيه ، يجب أن يعرض كاستدلال منطقي مرتب من
عدد محدود من القضايا الواضحة والمسلم بها . وهكذا نحى أرشميدس
الديناميكا جانبا وقصر اهتمامه على الاستاتيكا . غير أن بيير دوهم
(أصول الاستاتيكا ، الجزء الأول ، ص ١١) كان على حق في ملاحظته
أن « الطريق الذي اتبعه أرشميدس في الميكانيكا ، بالرغم من روعته في
العرض ، لم يكن طريق البحث . انما يرجع ثبوت مبادئه وتآلقها الى كونها
قد جمعت — اذا صح التعبير — من على سطح الظواهر ولم تنتزع من

أعماقها » . وكذلك كان أرنولد ريموند محققا في تكراره لهذه الملاحظة في فصل ممتاز ورد في كتابه « العلم في العصر الاغريقي الرومانى القديم » ص ١٩٥ .

ان هذا الاعجاب المفرط بما هو منطقى بحث في العلم لن يفهم الا في ارتباطه بالطابع الكامل للمجتمع الذى نما فيه . الوجه الآخر للمسألة هو احتقار التطبيق العملى للعلم . لقد كان أرشميدس أعظم مهندس في العصور القديمة ، ولكنه رفض أن يكتب كتابا مبسطا في الهندسة عندما طلب اليه ذلك (بلوتارخ ، حياة مارسيلاس ، الفصل السابع عشر) . « لقد كان يعد عمل المهندس وكل عمل يتعلق بضروريات الحياة ، عملا مشينا وسوقيا » . وكان يرغب في أن تقوم شهرته على ما حققه في ميدان النظرية البحتة فحسب . وانها لسخرية من التاريخ أن يعد مؤلفه عن الاستاتيكا ، رغم كماله المنطقى ، أقل عمقا وأقل ثراء من حيث التطور المثمر من العمل المشوش غير الناضج في التراث الأرسطى .

الفلكيون

وسيكشف لنا العمل الرائع للفلكيين الاسكندرانيين عن نقائص أخرى تتصل بشكل أو بآخر بالظروف الاجتماعية لهذا العصر . وقد سبق أن تتبعنا في الجزء الأول من كتابنا تاريخ صياغة أفلاطون الشهيرة للمسألة الأساسية في الفلك . كان أفلاطون يعتقد اعتقادا مرده الدين أنه أيا كانت الحركات الظاهرية للأجرام السماوية فإن التحركات الحقيقية لا بد وأن تكون دورات تتخذ شكل دوائر كاملة وبسرعة منتظمة . وهكذا صيغت المسألة على الوجه التالى : « ما هى الحركات الدائرية المنتظمة والمرتبة التى بافتراضها يمكن تفسير الحركات الظاهرية للكواكب ؟ » سبق أن

ذكرنا كيف أدى حل يودكساس وكاليبوس وأرسطو لهذه المسألة الى
 رأى القائل بأن العالم مكون من تسع وخمسين كرة متحدة المركز حيث
 توجد الأرض ، بينما تتكون الطبقة الخارجية من سماء النجوم الثابتة .
 وعلينا الآن أن نرى ماذا كانت تلك الاختلالات الظاهرية التي كان
 لابد لتفسيرها من الافتراض الذي وضعه أفلاطون . كان أفلاطون يعلم
 جيدا أن هذه الاختلالات لم تكن مقصورة على الكواكب ، ففى كتابه
 « القوانين » (الجزء السابع ، ص ٨٢٢ أ) يقول : ان من الالجاد أن نطلق
 لفظ « الكواكب » (المتجولات أو المتشردات) على الآلهة فى السماء
 كما لو كانت هذه الكواكب والشمس والقمر لا تتبع طريقا منتظما بل
 تتجول هنا وهناك . المسألة اذن أكبر من مجرد كون الكواكب تبدو كما
 لو كانت تختلف من حيث السرعة أو تتوقف أو ترجع الى الوراء ، فان
 هناك حقائق أخرى تشير الى أن القمر والكواكب تختلف فى الظاهر من
 حيث بعدها عن الشمس وأن سرعة الشمس هى الأخرى غير منتظمة .
 ولو أن الشمس تتحرك على شكل دائرة وبسرعة منتظمة ، لوجب أن
 تتساوى الفصول الأربعة . غير أنه بمجرد أن أمكن تحديد موعد وصول
 الشمس الى المنقلين الاعتداليين والمنقلين الاستوائيين بدقة تقريبية حتى
 صار من الواضح أن الفصول تختلف اختلافا ملحوظا من حيث طول
 كل منها . وقد أثبت ميتون ، الفلكى الاثينى هذا الاختلاف ، وذلك قبل
 أن يولد أفلاطون فى ٤٢٨ ق . م . بسنوات قليلة . واستمرت هذه
 الظاهرة موضوعا للبحث الدقيق . وبعد مضى مائة عام ، أى فى ٣٣٠ ق . م .
 سجلت أطوال الفصول فى هذه السنة وهى لا تختلف عن حسابنا اليوم
 الا بمقدار نصف يوم . تلك هى الاختلالات التى كان على القائلين بنظام
 الكرات المتحدة المركز ، الذى يتزايد تعقيدا يوما بعد يوم ، أن يضعوها

في اعتبارهم ، وتلك هي الظواهر التي كان عليهم أن يجدوا لها تفسيراً .
وكان التوتر الداخلي الذي نتج عن التناقض بين الحقائق المشاهدة وبين
الأساس الديني الرياضي لنظرتهم الى العالم شبيهاً بالتوتر الذي نتج
في القرن التاسع عشر عن التناقض بين حكاية الخلق كما وردت في سفر
التكوين وبين المعارف البيولوجية والجيولوجية الحديثة .

يصف أفلاطون في كتابه « تيمائس » (٣٩ ب - د) « تجولات »
الكواكب بأنها « معقدة بشكل عجيب ولا يمكن أن يحصرها عدا » .
ويعلق هيث على هذا في كتابه « أريستارخوس الساموسي » ، ص ١٧١ ،
فيقول : ان هذا الاقرار يتباين تبايناً شديداً مع افتراض أن المسارات
المستقلة للكواكب تتخذ شكل دوائر كبيرة ، بل انه يتباين الى درجة
أكبر مع ما تؤكد « القوانين » من أننا نخطئ ، بل وتلحد ، اذا وصفنا
الكواكب « بالتجول » ، لأن كلاً منها يقطع نفس المسار لا عدة مسارات
وهو دائماً مسار دائري . ويضيف هيث « وهكذا يرتضي أفلاطون لنفسه
أن يستخدم لغة الفلك الظاهري ، الفلك القائم على المشاهدة . وفي هذا
ما قد يذكرنا بأن فلك أفلاطون ، حتى في آخر أشكاله كما عرضه في
« تيمائس » و « القوانين » انما قصد به أن يكون فلكا مثالياً .

وانها لمجاملة من هيث لأفلاطون المثالي أن يصف تشبته العنيد ،
القائم على أساس من الدين ، بغرض لا يتفق مع الواقع ، أن يصف ذلك
بالمثالية . ويبدو هيث (المرجع السابق ص ٢٠٠) أقل مجاملة ليودوكسوس
الذي وضع النظام الذي تحتل الأرض موضع المركز منه ، فهو يقول عنه :
« يفترض يودوكسوس أن الحركة السنوية للشمس حركة منتظمة تماماً
وهكذا يتجاهل عن عمد ما اكتشفه ميتون وبوكسيمون قبل ذلك بستين
أو سبعين عاماً من أن الشمس لا تقطع الأجزاء الأربعة المتساوية من

مدارها بين النقط الاستوائية والاقلاية في أوقات متساوية . غير أن
توالى الكشف فتح ثغرة في رأى القائل بأن الأرض تحتل مركز الكون
بينما تدور الأجسام السماوية في دوائر حول الأرض الثابتة . وكان
المبتكر الجريء هو هيراقليدس البوتاسى (٣٨٨ — ٣١٠) الذى كان
زميلا بالأكاديمية . لقد قدم هيراقليدس فكرتين ثوريتين ، لاحظ أن
الكوكبين الزهرة وعطارد لم يظهرأ إطلاقا على بعد زاوى كبير عن الشمس
ومن ثم اقترح :

- ١ — تفسير ذلك على أنهما يدوران حول الشمس لا حول الأرض.
 - ٢ — وأنه من الممكن تفسير الدوران اليومى للسماوات حول
الأرض على أساس افتراض أن الأرض تدور يوميا حول محورها .
- وكان هذان الافتراضان مزعجين حقا ، فقد هذا أسس الكون من
ناحيتين ، أولا وضع الشمس مركزا لهذا الكون ، وثانيا القول بدوران
ذلك المركز الثابت القديم ، الأرض .

ولم يكن من السهل التنازل بهذا الشكل أمام العلم القائم على
المشاهدة . ولعل القارئ يذكر كيف خاض المفهوم الدينى الرياضى
للكون القائم على خواص الدائرة والكرة ، معركة قاسية ضد رأى
المنافس حتى يتمكن من ارساء دعائمه . كان الذريون يعتقدون فى لانهاية
عوالم تأتى الى الوجود وتختفى فى فضاء لا حدود له ، وكان الفيثاغوريون
يعتقدون فى وحدانية عالمنا وأبديته وتناهيه . وبدت اقتراحات هيراقليدس
بمثابة تنازل كبير للرأى الذرى . هكذا كانت حال الفلك عندما بدا
الفلكيون السكندريون نشاطهم فى هذا الميدان .

كان هيراقليدس البوتاسى من سكان أثينا . وكان أريستاركاس

الساموسى ، أول الفلكيين السكندريين الكبار ، تلميذا لستراتو من لامباكاس . وأغلب الظن أنه عاش فيما بين عامى ٣١٠ ، ٢٣٠ م ، مما يجعله أصغر بحوالى خمسة وسبعين عاما من هيراقليدس وأكبر بخمسة وعشرين عاما من أرشميدس . وسيظل يذكر الى الأبد كأول من تقدم بالفرض القائل بمركزية الشمس . وكان كوبرنيكاس فى القرن السادس عشر يعلم أنه انما يحيى من جديد فرض أريستاركاس . وبالرغم من ضياع الرسالة التى عرض فيها أريستاركاس فرضه الا أن لدينا من البيئة ما يثبت وجودها فعلا . يخبرنا أحد معاصريه الأصغر منه سنا ، أرشميدس ، فى كتابه الممتع الذى أشرنا اليه أكثر من مرة ، « محصى الرمال » أن أريستاركاس قد نشر كتابا يحتوى على عدد من الفروض من بينها الفرض التالى : بينما تبقى النجوم والشمس ثابتة دون تحرك تدور الأرض حول الشمس فى محيط دائرة ، وتقع الشمس فى وسط المدار . وبالرغم من أن أريستاركاس كان اذ ذاك من أنصار الحركة الدائرية ، ولم يكن — على الأرجح — يقصد من افتراضه أكثر من مجرد التقدم بفرض رياضى ، الا أن الدلائل تشير الى هذا الافتراض قد أحدث هزة كبيرة . فان كليش ، رئيس الرواقين فى أثينا ، وكان من المتعلقين بعبادة النجوم ومن معاصري أريستاركاس (وقد مات الرجلان واحدا بعد الآخر بعام أو عامين) ، دعا الاغريق الى أن يدينوا أريستاركاس بتهمة الالحاد . ويبدو أن هذه التهديدات من جانب المدارس الفلسفية (لم يكن كليش الا مرددا لوجهة نظر أفلاطون كما وردت فى القوانين) تضمنت خطرا حقيقيا على العالم . ذلك هو رأى المؤرخين الكبار من أمثال بول تانرى وبير دوهم (دوهم ، نظام العالم ، الجزء الأول ، ص ٤٢٥) . ولا تعرفه العصور القديمة فلكيا واحدا أيد رأى أريستاركاس سوى سيليوكاس ،

وهو بابلي ظهر بعده بحوالى مائة سنة . بل ان سيليو كاس ذهب ، فى الواقع ، الى أبعد من أريستار كاس ، اذ قدم هذا الرأى ، لا على أساس أنه فرض رياضى فحسب ، بل على أساس أنه حقيقة فيزيقية . غير أن قطرة واحدة لا تصنع بحرا فقد ظل الرأى القائل بمركزية الشمس للعالم فى حكم الوليد الميت .

سبق أن ذكرنا أن رسالة أريستار كاس التى عرض فيها فرضه قد فقدت ، غير أن مؤلفاً آخر من مؤلفاته ظل باقيا ، وهو « بحث فى أحجام الشمس والقمر وأبعادهما » . ويبدو أنه كتبه قبل أن يكتب تلك الرسالة فهو لا يشير فيه الى مركزية الشمس ويقيم بعضا من حججه على أساس تقدير خاطئ جدا لزاوية مدار الشمس المواجهة للعين . وقد عاد هو نفسه فصصح خطأه فى مكان آخر . غير أن هذا المؤلف يعد من أدق الأمثلة للعلم السكندرى وأجملها بحيث يستحق أن تقدم له وصفا مختصرا . وتعد النسخة التى نشرها ت . ل . هيث فى كتابه « أريستار كاس الساموسى » أحد المراجع الحديثة فى تاريخ العلم .

يبدأ الكتاب على الطريقة البسكندرية بذكر ستة فروض هى أساس البحث كله :

- ١ — أن القمر يتلقى ضوءه من الشمس .
- ٢ — أن الأرض فى حكم النقطة والمركز للكرة التى يتحرك فيها القمر .
- ٣ — أنه عندما يبدو لنا القمر نصفا تكون الدائرة الكبيرة التى تفصل بين أجزائه المظلمة واللامعة فى مواجهة أعيننا (أى أن مراكز الشمس والأرض والقمر تكون مثلثا ذا زاوية قائمة تقع عند مركز القمر) .

٤ — أنه عندما يبدو لنا القمر نصفاً يكون بعده الزاوى عن الشمس أقل من ربع الدائرة بمقدار $\frac{1}{4}$ من الربع (وتقدير بعد القمر الزاوى عن الشمس بمقدار ٨٧ درجة خاطيء جداً ، فالزاوية الحقيقية أكثر من ٨٩ درجة) .

٥ — أن عرض ظل الأرض ضعف عرض القمر .
٦ — أن القمر يواجهنا بزاوية تساوى واحداً على ١٥ من دائرة الأبراج (وهذا أيضاً تقدير خاطيء ، فكما رأينا من قبل ، صحح أرشميدس ، فيما بعد ، تقدير أرسطاركاس فأقصه من درجتين الى نصف درجة) .

ثم يستطرد أرسطاركوس فيقرر ثمانية عشر اقتراناً أهمها ما يلى :
١ — تبلغ المسافة بين الشمس والأرض أكثر من ثمانية عشر ضعفاً وأقل من عشرين ضعفاً المسافة بين القمر والأرض .

٢ — قطر الشمس أكبر بثمانى عشرة مرة ولكن أقل من عشرين مرة قطر القمر .

٣ — نسبة قطر الشمس الى قطر الأرض أكبر من نسبة ١٩ الى ٣ وأقل من نسبة ٤٣ الى ٦ .

ولم يتناول أرسطاركاس سوى المقارنة بين أحجام الشمس والقمر والأرض . وكان التقدير على أساس وحدات قياسية معيارية أمراً غير متوفر أو غير دقيق . وقد قام بسد هذا النقص اراتوذينس ، الفلكى والجغرافى السكندرى العظيم (حوالى ٢٨٤ — ١٩٢) ، اذ لاحظ أن الشمس عند الانقلاب الصيفى تكون وقت الظهر فوق الرأس مباشرة ، وذلك فى سين (أسوان الآن) ، بينما فى الاسكندرية التى تبعد عنها

بحوالى ٥٠٠٠ ستاد^(١) وتقع تقريبا على نفس خط الطول أظهرت المزولة الشمس على بعد من نقطة السميت يبلغ $\frac{1}{2}$ من الدائرة الطولية . ويعنى هذا أن طول محيط الأرض ٢٥٠٠٠ ستاد . ونحن لا ندرى بالضبط ما هو ذلك المقياس (الستاد) الذى استعمله اراتوذينس ، فاذا ما اعتبرنا هذا فى صالحه تبين لنا أن تقديره للقطر القطبى للأرض لا يقل عن تقديرنا الحديث الا بحوالى خمسين ميلا .

الجغرافيون

ان اراتوذينس هو الذى وضع أسس علم الجغرافيا الرياضية والفلكية وقد اتسمت الجغرافيا فى نهضتها ، بعد بدايتها المتواضعة ، بالسرعة التى تميز بها تطور باقى العلوم الاغريقية . وما من شك فى أن كثيرا من العمل التمهيدى تم على أيادى رجال مجهولين عاشوا فى كثير من بقاع العالم الاغريقى . وكذلك الحال بالنسبة لعلم الفلك ذاته . يقول تيوفراستاس فى كتابه « عن علامات الطقس » : « يجب أن تنتبه جيدا الى ظروف المنطقة المحلية التى يوجد بها المرء . غير أن من الممكن دائما أن نعثر على من يشاهد ذلك محليا . وان العلامات التى نستقيها عن أمثال هؤلاء المشاهدين لعل أكبر قدر من الصدق . وهكذا شهدت بعض المناطق فلكيين لا بأس بهم ، فمثلا لاحظ ماتريستياس الانقلابات من جبل ليپتمنوس فى ميثينا ، وكذلك كليوستراتاس من جبل ايدا فى تينيدوس ، وفاينوس من جبل ليكابتاس فى أثينا . وكان ميتون الذى وضع دورة التقويم ذى التسعة عشر عاما من تلامذة فايثوس وكان يقيم بأثينا وان لم يكن من أهلها . وهناك غير هؤلاء كثير من الفلكيين

(١) مقياس يونانى طوله ٦٠٠ قدم يونانى = ٥٨٢ قدما انجليزيا .

المحليين» (١) . كما أن موانئ البحر الأبيض المتوسط لا بد وأن تكون قد وضعت ورسمت في خرائط بدائية أعدتها أجيال من البحارة وذلك قبل أن تبدأ الأعمال العلمية .

كان أناكسيماندر ، كما سبق أن ذكرنا في الجزء الأول . أول من رسم خريطة للعالم غير أنه من المستبعد جدا أن يكون أول من رسم خريطة لمرفأ أو لجزء من ساحل . وكثيرا ما أشار الجغرافيون الاغريق في الأزمنة التالية الى وثائق تدعى « الموانئ والرحلات الساحلية » . ومن رأى ريتشارد أوهدن ، وهو رأى مقنع ، (صورة العالم ، الجزء الأول ، ص ٢ ، ٣) أن هذه الوثائق ليست كتباً بل خرائط .

وأيا كان الأمر في هذه المسألة ، وأيا كان الوقت الذي بدأ فيه رسم الخرائط المحلية ، فإن الجغرافيا الاغريقية قد تميزت ابتداء من أناكسيماندر بتطور سريع . فهيكاتيوس ، وهو من معاصري أناكسيماندر الأصغر منه سناً ومن مدينته ، ألف كتاباً سماه « وصف للعالم » . وتاريخ هيرودوت ملئ بالمعلومات الجغرافية . كما كتب يودكساس مؤلفاً آخر بنفس الاسم « وصف للعالم » . ويحتوى مؤلف أرسطو « علم الرصد الجوى » على كثير من المعلومات الجغرافية . وكان تلميذه ديكاركاس مشهوراً بخريطة وضعها للعالم المأهول وبتقديراته المعقولة لارتفاعات الجبال .

من كل هذا النشاط ظهرت تدريجياً صورة كرة أرضية جغرافية لها قطبان وخط استواء وبروج ومدارات وخطوط طول وعرض . وعرفت خمس مناطق — منطقتان متجمدتان عند القطبين ومنطقة حارة عند الاستواء ومنطقتان معتدلتان ، ولو أن حدود هذه المناطق لم تكن ثابتة

(١) ثيوفراستوس ، طبعة لويب ، الجزء الثانى ، ص ٣٩٣ .

فى بادىء الأمر اذ كانت تحدد بطرق رصدية أكثر منها فلكية . ولقد ساعد على دفع الجغرافيا الفلكية الى الأمام أمران ، اختراع أدوات فلكية — فأرستاركاس مثلا له فضل اختراع مزولة أفضل من المزاويل القديمة — ثم رحلة بحار جمع بين الحماس للعلم والحماس للتجارة . ففى قصة مشهورة أنه فيما بين عامى ٣١٠ ، ٣٠٦ عندما كان القرطاجنيون سادة الطرف الغربى للبحر الأبيض ، مشغولين بصراع مميت ضد اغريق صقلية ، تسلل بحار اغريقى من مارسيليا يدعى بشياس ، تسلل بين أعبدة هيرقل شاقا طريقه صوب كورنوبول جريا وراء تجارة الصفيح . ومن المحتمل أن يكون قد بلغ النرويج والبلطيق فاغتنم الفرصة وحسب عددا من خطوط العرض غير المعروفة . وما من شك فى أن جغرافية اراتودينس قد تأثرت بهذا العمل .

منذ ذلك الوقت أصبح الامام العام بالجغرافية الفلكية جزءا من تعليم المواطن وأصبح علم الجغرافيا بفرعيه الرئيسين — الوصفى والرياضى — ضروريا لإدارة الولايات ادارة ناجحة . ويعتبر المؤلف الذى كتبه سترابو (ثمانية أجزاء فى مكتبة لويب) فيما بين القرنين التاسع والخامس قبل الميلاد أحسن ما تبقى من الكتابات الجغرافية القديمة ، ولا يبعد أن يكون قد كتبه لتنتفع به بيثودوريس ملكة بونتاس . وقد مكنته اقامته السابقة بالاسكندرية لأربع سنوات أو خمس من أن يلم بأفضل المراجع المتعلقة بموضوعه . وكان (كلما قرأها) لا يتردد فى الاقتباس منها بوفرة . وبعد أن أوضح سترابو أن عمله وصفى ، فى المقام الأول ، مضى يقول : « غير أنه لابد للقارئ أن يكون مثقفا بحيث يكون قد درس الكرة ودوائرها ، المتوازية والمتعامدة معها والمنحرفة عنها وعليه أن يكون ملما بمواضع المدارات الاستوائية وخط الاستواء

والأبراج ، اذ بدون المام أولى بهذه الأشياء — الآفاق والدوائر القطبية وما شابه ذلك — لن يتمكن من متابعة الكتاب . أما اذا كان لا يعرف حتى ما هو الخط المستقيم أو المنحنى أو الدائرة أو الفرق بين سطح كروي وآخر مسطح ، وكان عاجزا عن أن يميز ولو نجوم الدب السبعة في سماء الليل ، فان كتابي لن يكون ذا نفع له — الآن على الأقل . فلا بد له من أن يلم بالدراسات الاعدادية اللازمة لمعرفة الجغرافيا . وهذا النقص في التدريب الاعدادي هو الذي جعل عمل مؤلفي ما يسمى « الموانى والرحلات الساحلية » عملا ناقصا ، اذ فشلوا في أن يزودونا بالتفاصيل الرياضية والفلكية الصحية » (الكتاب الأول ، الجزء الأول ، ص ٢١) .

الفلك مرة أخرى

لندع الآن ما أسهم به الفلك في تقدم علم الجغرافيا ولنعد الى الفلك مرة أخرى ، قفضلا عن أنه أعظم مبتدعات العلم في العصر السكندري فان الصورة الخاصة بتطوره تعتبر أفضل مثل على أثر الفلسفة السائدة اذ ذاك على علم ذلك العصر . رأينا أنه من الصعب أن يتجاهل الفلكيون التغير في تحركات الأجرام السماوية ، ذلك التغير الذي فشلوا في تفسيره . غير أن موقفهم كان أصعب مما ذكرنا . فلم تكن المسألة مجرد وجود ظواهر غير مفهومة بل كانت مسألة وجود ظواهر لا يمكن فهمها اطلاقا على أساس فرضهم . والحقيقة العارية هي أن الفرض القائل بوجود مركز واحد تحتله الأرض كان في مبدئه الأساسي غير مقبول ، وكانت أسباب ذلك معروفة عموما لدى أولئك الذين كانوا يعملون ، رغم ذلك ، على تحسينه .

ان سلامة هذا الفرض انما تعنى أن كل جرم من الأجرام السماوية

يظل على بعد ثابت لا يتغير من الأرض ، أى أن الأجرام تدور حول الأرض دون أن تقترب منها أو تبتعد عنها . غير أن بعد الكواكب عن الأرض يتغير كل يوم في الواقع كما هو واضح بسهولة في حالتى الزهرة والمريخ من التغيرات في لمعانهما . وكذلك يتغير بعد القمر عن الأرض ، ويتضح ذلك من التغيرات في قطره الظاهرى التى يمكن قياسها والتى يدل عليها كذلك أن كسوف الشمس يكون جزئيا في بعض الأحيان (عندما يكون القمر بعيدا عن الأرض بحيث لا يغطى الشمس كلها) ، وكليا في أحيان أخرى (عندما يكون القمر أقرب من الأرض) . ثم ان هذه التغيرات ناتجة عن حقيقة ما يحدث من تغيرات في سرعة الأجرام السماوية فاذا تغيرت السرعة الزاوية لجرم سماوى فلأننا لسنا عند المركز الذى يدور حوله .

ترى في أى وقت عرفت هذه الحقائق ؟ استمع الى كلمات سوسيجينس أحد الفلكيين في القرن الثانى بعد الميلاد ، وقد توفرت له فرصة الاطلاع على مالم نطلع عليه من الكتب القديمة : « ان كرات أنصار يودكساس لا تفسر الظواهر ، لا تلك الظواهر التى اكتشفت بعدهم فحسب ولا تلك التى كانت معروفة قبلهم والتى اعتبروها هم صادقة . فهل بوسعنا القول بأن يودوكساس أو كاليباس قد نجح ؟ هناك على الأقل شىء واحد ظاهر للعيان ، وهو أن أحدا منهما لم يستطع أن يستنتج من فروضه كون بعض النجوم تقترب منا أحيانا وتبتعد عنا أحيانا أخرى ، وهى ظاهرة يمكن مشاهدتها في حالتى الزهرة والمريخ اللذين يبدوان أكبر كثيرا عند منتصف طريق عودتهما حتى أن الزهرة يعكس ظلالا في الليالى غير القمرية . ومن الممكن أن نشاهد نفس التغيرات في القمر اذا ما قارناه بأشياء ثابتة الحجم . ومن الممكن اثبات

هذه الملاحظة باستخدام الآلات ، فاذا وضع أحد الملاحظين قرصا على مسافة معينة من عينه ليحجب القمر ، فان عرض هذا القرص سيكون أحد عشر اصبعاً في مرة واثنى عشر اصبعاً في مرة أخرى مع بقاء القرص على نفس المسافة من العين . ولو تتبعنا كسوف الشمس فالتنا نخرج بنفس النتيجة ، فالقمر يحجبها أحيانا فترة من الوقت وأحيانا أخرى لا يحجبها كلها . كما تؤدي بنا التغيرات اليومية في السرعات الظاهرة للأجرام السماوية الى نفس النتيجة . كل هذه ظواهر لم يفسرها أتباع يودوكساس ، بل انهم حتى لم يحاولوا تفسير التغيرات في السرعة ، ولو أنها مشكلة تستحق البحث . وليس من المعقول أنهم لم يعلموا بالتغيرات التي تحدث في بعد النجم الواحد فبوليماركوس السيزيكوسى كان على علم بها ولو أنه تجاهلها على أساس أنها غير هامة ، وما كان ذلك الا لأنه من أنصار النظام الذى يرتب جميع الأفلاك دائريا حول مركز الكون . ومن الواضح أيضا أن أرسطو تشكك في كتابه « مسائل طبيعية » في هذا الفرض الذى قدمه الفلكيون ، وكان مبعث شكه أن حجم الكواكب لا يظل ثابتا .

ذلك ما قاله سوسيجينس ، ويتضح منه أن نهاية القرن الرابع شهدت أزمة فكر في الأكاديمية وفي الليسيوم بأثينا . وسوسيجينس يبنى رأيه ، أو جزءا منه على الأقل ، على تاريخ الفلك الذى كتبه يوديماس تلميذ أرسطو . والرجال الذين ذكر عنهم أنهم ناقشوا المشكلة أو تجنبوها — يودكساس وكاليباس ويوليماركاس وأرسطو وغيرهم ممن لم نذكرهم في اقتباسنا المختصر — كل أولئك الرجال ينتمون الى تلك الفترة . وكان تولى هيراقليدس وأرستاركاس عن رأى الأرثوذكسى

بما يتضمنه من ارساء النظام القائم على وحدة المركز على أساس تجاهل الحقائق التي لا تتلاءم معه بمثابة نتيجة من نتائج هذه المناقشة ، وقد حاول الاثنان أن يفسرا على الأقل بعض الظواهر التي لم تفسر وذلك يجعل بعض الكواكب تدور حول الشمس أو يجعل الأرض نفسها تدور حول الشمس . غير أن الخوف من اقتلاع الأرض من مركز العالم كان شديدا جدا كما رأينا . وبذلك فشلت جهودهما وتخلي العالم القديم نهائيا عن النظام القائم على مركزية الشمس .

ونحن اذا ما نظرنا في الأمر بعمق أكثر لوجدنا كثيرا مما يدعو الى العجب ، فخطأ نظام الكرات المتحدة المركز كان واضحا في نفس الوقت الذي كان يقوم فيه يودكساس وكالياس بوضعه . وبالرغم من ذلك فانه ساد حوالى ألفى سنة . صحيح أنه لم يسلم من التحدى ولكنه ظل ثابت الأركان طوال تلك الفترة . لماذا ؟ يكمن السبب في المفاهيم الفلسفية الأكثر عموما التي كان على الفلك أن يتشكل بحيث يتسق في اطار معها . كتب أرسطو بحثا « عن السماوات » ، وهو ليس بحثا فلكيا بل فيزيقيا وذلك بنفس المعنى الذي يكون به مؤلف أفلاطون « تيمائس » عملا فيزيقيا ، أى أنه في طبيعته عمل لاهوتى استقرائى . يقول أرسطو في كتابه هذا ، انه لما كان نشاط الاله هو الحياة الأبدية ، ولما كانت السموات الهية فان حركتها لا بد وأن تكون أبدية ، ومن ثم تكون السموات فلكا دوارا أو كرة لفافة ، بل أكثر من هذا ، لما كان مركز الجسم الدوار ساكنا فان الأرض لا بد وأن تكون ساكنة عند مركز الكون . وتتكون الأرض ، مملكة التغير ، من العناصر الأربعة التراب والهواء والنار والماء ، أما الأجرام السماوية ، وهى الخالدة ، فتتكون من عنصر خامس لا يشوبه التغير أو التوالد أو التحلل وهو يتحرك لا في خط مستقيم كما تتحرك عناصر الأرض بل على شكل دائرة .

هكذا كانت طبيعة العالم كما تعرضها المفاهيم الفيثاغورية الأفلاطونية والأرسطية والرواقية المبكرة . كانت السماوات ذات النجوم هي الصورة الظاهرة للقوة القدسية . ويرتبط مصيرها أوثق ارتباط بمصير الآلهة ، ويختص بها رجال اللاهوت . وكانت هذه المفاهيم عندهم بمثابة الشكل الذى تكشف به العقل الالهى أمام الإنسان . ولقد لعبت دورا كبيرا فى حكم المدن والامبراطوريات . وارتبط ثبات المجتمع الأوليجاركى القديم برأى معين عن الفلك ، واعتبر اعتناق آراء أخرى كفرا لا مجرد خطأ علمى . كان الفلك قديما موضوعا شائكا تماما كنقد الانجيل فى الأزمنة الحديثة . وأخضع الفلك القائم على المشاهدة لاستقصاء حذر واشراف دقيق . وما كان أحد ليجرؤ على تجاهل هذه المفاهيم المصطلح عليها الا اذا بلغ من التهور مبلغ كولنسو أو من العناد مبلغ لويبسي . وكانت تجولات الكواكب وما يصيب أطوال المواسم وأبعاد الأجرام السماوية عن الأرض من تغير ، كانت كلها مواضيع غامضة حرجة كالمعجزات أو النصب أو التعذيب . وكان الفلكيون أنفسهم كثيرا ما يتنازعهم ولاءان ، فالمؤرخون المحدثون للدين كانوا ذوى ضمائر علمية ، ولكنهم كانوا يعلمون أنهم يطأون أرضا يتضمن رأى فيها تبعات سياسية واجتماعية . وكثيرا ما كانت معتقداتهم الدينية الخاصة مخالفة للحقائق المشاهدة وكان الكثيرون من ذوى العقول العظيمة يؤمنون بالآلهة والنجوم فى اخلاص وحرارة .

لهذه الأسباب ليس عجيبا أن لاقى الجهود المبذولة لتغيير المفاهيم الفلكية على أساس من علم المشاهدة ، الذى لم يكن يؤمن به الا قلة نادرة ، أقول ليس عجيبا أن لاقى هذه الجهود مقاومة عنيفة لا من جانب القسس والفلاسفة والملوك فحسب بل من جانب الفلكيين أيضا .

يقول دوهام « ان العقبات التي وضعتها الكنيسة البروتستانتية في القرن السابع عشر ، ثم من بعدها الكنيسة الكاثوليكية ، في طريق تقدم المبدأ الكوبرنيكى لا تعطينا سوى فكرة طفيفة عن الاتهامات بالالحاد التي وجهتها الوثنية القديمة الى الانسان ، ذلك المخلوق الفانى الجرىء الذى جرؤ على أن ينال من الكون الأزلى للأرض ، مصطلى الآلهة ، وأن يقرن ذات النجوم الالهية والتي لا تفنى بذات الأرض ، تلك المملكة الوضيعة للتحلل والموت (المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ٤٢٥) . ولم يكن ليخبرؤ أحد غير الأبيقوريين أن يعتنق بايمان مثل هذا الكفر وأن ينطق به مبصما على أن السماوات لها بداية وسوف يكون لها نهاية وأن الأجرام السماوية أبعد من أن تكون الهية فليست سوى كتل من مادة ميتة . وكان من الصعب عليهم أن يقنعوا أتباعهم أن اللعنة لن تنال من يدعو لمثل هذه الآراء (لوكريتياس ، الجزء الخامس ، ١١ — ٢٥) .

لأسباب كهذه الأسباب نبذ الفلك القديم ضلالات هيراقليدس وأرستاركاس وعاد الى رأى القائل بمركزية الأرض .

وكان هذا يعنى تأخرا في تكوين آراء أكثر صدقا عن شكل الكون وحجمه ، كما كان بمثابة عقبة أمام التأمل الميكانيكى والكهربائى لحركة الأجرام السماوية ومادتها ، ولكنه لم يوقف استمرار الفلك الوضعى ولم يمنع تحسن التقويم . ويجوز للمرء فى هذا الصدد أن يتندر آمنا بقول روزينى الشاعر « أى فرق هناك بالنسبة لأى شخص أكانت الأرض هى التى تدور حول الشمس أو أن الشمس هى التى تدور حول الأرض » . وقد كان عمل الفلكى العظيم هيباركاس مبنا على القرض الأخير . وهيباركاس فى رأى الكثيرين هو أعظم فلكى فى العالم القديم . وسنعرض الآن لنظامه .

ان نظرية الدوائر اللامركزية والتداوير هي أساس نظام كل من هيباركاس (مات حوالي ١٢٠ ق . م) وبطليموس (مات بعد ١٦١ م .) وهي على الأغلب من اختراع المدارس الفيثاغورية بجنوبي ايطاليا ومن هناك اتخذت طريقها الى الاسكندرية . ومن السهل فهم المبادئ الجديدة في أبسط أشكالها ولو أنها في صياغتها الكاملة في مؤلفات بطليموس تستدعي دراسة عميقة . فإذا ما التزمنا بالفرض القائل بتحرك الشمس في دائرة كاملة وبسرعة منتظمة فلن نستطيع تفسير التغيرات في سرعتها الزاوية كما نشاهدها سوى بأن نفترض أننا لسنا واقعين في مركز الدائرة التي تدور فيها . ان دائرة الشمس لامركزية بالنسبة للأرض . وتتضمن هذه النظرية ضرورة افتراض أن جسما كالشمس يستطيع أن يدور حول نقطة هندسية ، الشيء الذي كان يصعب على الفلكي القديم أن يقبله ، ولكنه أصبح التفسير المقبول . أما نظرية التداوير فأكثر تعقيدا . فلننظر الى حركات الزهرة . اننا نجد حركتين تستدعيان تفسيراً — الدورة السينودية ، عندما تعود الزهرة الى نفس الوضع بالنسبة للشمس والأرض ثم دورة الأبراج . والفرض القائل بأن الزهرة يدور في دائرة حول نقطة هي نفسها تدور حول الأرض فيه تفسير لكل من الحركتين . فالدائرة الأولى هي التدوير وفيها تكمل الزهرة رحلتها ابان الدورة السينودية . والدائرة الأكبر التي يقطعها مركز التدوير حول مركز الأرض هي الدائرة الناقلة ويتم مركز التدوير هذه الدورة ابان دورة الأبراج للكوكب . وإذا مددنا نصف قطر من مركز الأرض الى مركز الشمس فانه يمر خلال مركز التدوير . وقطر التدوير هو أقصى بعد للزهرة عن الشمس .

وينطبق نفس الكلام على عطارد الذي يظل هو أيضا مجاورا للشمس .

أما في حالات الكواكب التي لا تظل الى جوار الشمس ، فليس من الممكن افتراض أن قطر الأرض الذي يمر خلال مركز التدوير سيمر دائما بمركز الشمس لأن الفترة البروجية لكل من هذه الكواكب أطول من فترة الشمس بثلاثين عاما في حالة زحل واثنى عشر عاما في حالة المشتري وعامين في حالة المريخ ، وذلك حسب التقدير الذي كان معروفا ليودكساس . غير أن الفرض يمكن أن يعمم ليشمل كل الكواكب ، وذلك بالطريقة التالية : لكل كوكب دائرة ناقلة تقع في مستوى الشمس وتتخذ من مركز الأرض مركزا لها . هذه الدوائر الناقلة ترسمها نقطة هي مركز التدوير الذي يتحرك فيه الكوكب . وتسمى الفترة التي تقطع فيها الدائرة الناقلة بالفترة البروجية والتي تقطع فيها التدوير بالفترة السينودية .

وللفلك الاسكندري أيضا جانبه العملى ، فنحن اليوم ننظر الى التقويم وكأنه أمر مفروغ منه ، غير أن الوصول به الى درجة الكمال لم يكن أمرا سهلا ، هذا اذا اعتبرناه قد بلغ الآن درجة الكمال ، بينما يطالب الكثيرون باصلاحه . كتب الفلكي الاغريقى جيميناس فى حوالى عام ٧٠ ق . م . يحدد المشكلة الأساسية كما يلى : « كانت المشكلة التي واجهت القدماء هي أنهم يحددون الشهر تبعا للقمر أما السنين فتبعا للشمس » . وكان التوفيق بين الطريقة القديمة لحساب الوقت تبعا للقمر والطريقة التي تلتها ، حساب الوقت تبعا للشمس ، ومن ثم عمل تقويم شمسي قمري ، عملا من الأعمال التي حققتها المدنية القديمة . ويرجع الى الاغريق جزء من الفضل في ذلك ، ولو أن البعض يرى أنهم لم يفعلوا أكثر من أنهم كانوا حلقة وصلت بين الأعمال العلمية في بابل والاحتياجات المدنية للامبراطورية الرومانية . ونحن نعرف أن السنة الشمسية $\frac{1}{4}$ ٣٦٥ يوما على وجه التقريب ، بينما الشهر ٢٩ر٥ يوما

تقريبا . ولا يوجد رقم صحيح يمكن أن يسوى بين أيام الشهور وأيام السنة ، فإن سنة من اثني عشر شهرا تكون ذات ٣٥٤ يوما أى أقصر من السنة الشمسية بأحد عشر يوما . وما زال العرب يتبعون هذا النظام . ولقد كسبوا منه حوالى ٤٠ عاما منذ الهجرة (٦٢٢ م) ، غير أن ذلك أمر لا يهمهم من الناحية العملية ، هذا ، وقد بذلت جهود فى وقت مبكر جدا من تاريخ مدينة الشرق الأوسط لإيجاد دورة من السنين تتطابق فيها السنوات القمرية والشمسية . وفى القرن الثامن استعار الاغريق من البابليين دورة ذات ثمانى سنوات . وبعد انقضاء ثلاثمائة سنة تقدم الفلكى مينون الى الأثينيين فى عام ٤٢٣ ق . م . بدورة ذات تسعة عشر عاما ، ولا يبعد أن يكون قد اقتبسها هو الآخر من بابل . ولقد بلغ هذا النظام حدا من الدقة يجعل التقويمين القمري والشمسى يتفقان لأكثر من مائتى عام ثم لا يختلفان بعد هذه المدة الا بيوم واحد . غير أن هناك من الشواهد ما يدل على أن الأثينيين لم يلتفتوا الى هذا النظام ، وفى هذا ما ينبىء أن الادارة فى أثينا كانت قديما أقل كفاءة منها اليوم . وبعد مائة سنة أخرى صمم كاليباس دورة ذات ستة وسبعين عاما ثم أتى هيباركاس ، بعده بمائتى سنة ، بدورة من ٣٠٤ عاما . وكانت هذه التعديلات تجذب اهتمام الفلكيين ، وربما المنجمين ، أكثر مما تجذب اهتمام واضعى التقويم المدنى ، غير أننا لا ننسى أن يوليوس قيصر عندما أراد أن يصلح تقويم روما ، استدعى خيزا من الاسكندرية أتم هذا العمل بكل مهارة .

ان كل مؤلفات هيباركاس تقريبا قد فقدت ، غير أننا نعلم من بطليموس أن ثلاثة منها تشير الى التقويم أو الى مشكلات ناجمة عن تحسينه . والمؤلفات الثلاثة هى : الشهور والأيام الكبيسة ، وطول

السنة ، وحركة النقط الانقلابية والاستوائية . وقد توصل هياركاس
— في أثناء انشغاله بتحديد طول السنة بأكثر ما يستطيع من دقة —
الى اكتشاف الفرق بين السنة الاستوائية والسنة النجمية ، وهكذا
اكتشف ظاهرة تقدم الاعتدالين بل وقاسها بدقة عجيبة حقا . اننا نعلم
من الفلك الحديث أن الأرض تتذبذب قليلا في دوراتها حول محورها
نتيجة لانتفاخها عند الاستواء ، وهذه الذبذبة تجعل قطب الأرض غير
ثابت بل متحركا في دائرة ، مكملها الدورة مرة كل ست وعشرين ألف
سنة ، كما أن موقع الشمس والكواكب من الأرض يتغير نتيجة لهذه
الذبذبة تغيرا طفيفا بالنسبة الى النجوم الثابتة . هذا التغير هو ما لاحظته
هياركاس وقد قام بتحديد السنة الاستوائية ، أى الوقت الذى يفصل
بين وصول الشمس مرتين متتاليتين عند نفس النقطة الاستوائية ، كما
حدد أيضا السنة النجمية أى الوقت الذى تحتاجه الشمس لكى تعود
الى نفس النجم . فلما قارن مكتشفاته بسجلات من سبقه من الفلكيين
لاحظ أن النقطة الاستوائية لا تحتفظ عبر القرون بنفس علاقتها بنجم
ثابت ولكنها تتحرك ببطء الى الأمام عابرة الحزام البروجي من الشرق
الى الغرب . ومن هنا جاء مصطلح تقدم الاعتدالين . يقول هياركاس
في كتابه عن طول السنة : ان التقدم لا يقل عن درجة في القرن ، وهو
يحدد هذا التقدم فى مؤلف تال بدرجة أكبر من الدقة ، فيقرر أنه ، كما
ذكر تانرى ، درجة وثلاث وعشرون دقيقة وعشرون ثانية . ولا يزيد
التقدير الحديث عن تقدير هياركاس الا بعشر ثوان .

ويظن أنه كانت لدى هياركاس سجلات بابلية ، بل واغريقية ،
ساعدته على الوصول الى هذه التحديدات الدقيقة . وأيا كانت الظروف
التي استفاد منها فقد حقق نتائج تملأنا اعجابا وترتفع بالجهود العلمية.

الى مستوى يحق للأجيال التالية أن تنظر اليه في فخر وتقدير . ولقد أدرك هياركاس كم هو مدين لمن سبقوه ، وكان يعلم أن السجلات التي انتقلت اليه عبر الأجيال هي التي مكنته من الوصول الى نتيجة دقيقة لتقدم الاعتدالين ، ومن ثم عقد العزم على أن يوفى الدين لخلفائه ، فانشغل بحساب مواضع ما يقرب من ثمانمائة وخمسين نجما ثابتا مع تسجيل مظاهرها ، كيما يستطيع فلكيو المستقبل أن يفتنوا الى ما يحدث بها من تغيرات . ولقد علق بلينى العجوز على ذلك بالكلمات التالية : « لقد جعل من السماوات تراثنا المشترك ، هذا لو وجد الشخص الذى يبلغ من العظمة حدا يخول له الاشتراك فى هذا التراث (التاريخ الطبيعى ، الجزء الثانى ، ٢٦ ، ٩٥) .

ومن سوء الحظ أن المؤلف الوحيد الذى كتب له البقاء من بين مؤلفات هياركاس ليس من أهم أعماله أو أكثرها فائدة ، ولكنه رغما عن ذلك يعطينا فكرة عن عصره وسوف نصفه باختصار . فى حوالى ٢٧٠ ق . م كتب أراتاس ، وكان شاعرا على قسط وافر من المهارة ، قصيدة تثقيفية عن الفلك ، حظيت خلال العصور القديمة بشعبية كبيرة . وكتب شاب صديق لهياركاس يسأله رأيه عن مدى دقة هذه القصيدة ذات الأثر الكبير . ورد عليه هياركاس شاكرا له صدق اهتمامه بالعلم ومقررا بادىء ذى بدء أن الشاعر أراتاس اعتمد فى حقائقه على الفلكى يودكساس ، ثم استطرد ينقد الأخير على ضوء المعارف الجديدة ، وهو أمر لا يخلو من فائدة كما يستبين من المثال التالى : « يظهر يودكساس جهله بالقطب الشمالى فى الفقرة التالية » « هناك نجم يظل ساكنا أبدا . هذا النجم هو قطب العالم » ، والحقيقة هي أنه لا يوجد نجم عند القطب بل توجد منطقة خالية ، وعلى القرب منها تقع ثلاثة نجوم تكون مع

النقطة التي عند القطب ما يشبه المربع ، وذلك كما يقول بتياس المارسيلى
(تعليق على أواتوس) .

تنظيم التعليم

يذكرنا هذا التعليق على قصيدة بعد أن انقضى على نظمها حوالى
مائة وثلاثين سنة بوظيفة من وظائف المتحف يجب ألا نسقطها من اعتبارنا .
سبق أن ذكرنا أن المكتبة الملحقة بالمتحف كانت تضم حوالى مليون
لغافة . وقد يقودنا هذا الى المبالغة فى تقدير كمية المؤلفات فى ذلك
الوقت ، غير أنه يجب علينا أن نتذكر أننا لو طبعنا اليوم مؤلفا من
مؤلفات هوميروس لما زاد عن جزء صغير يمكن حمله فى الجيب ، بينما
كان فى عصره يحتاج الى خمسين لغافة أو أكثر . ولئن كنا قد خشينا
المبالغة فى عدد الكتب وقتئذ ، فليس ثمة مجال للمبالغة فى دور المتحف
فى خلق كل ما يتعلق بتكتيك الدراسة وجهازها وتقاليدها . يصف بويخ ،
أحد العلماء المحدثين المشهورين ، يصف المثل الأعلى لما كان يسميه الألمان
بفقه اللغة بأنه « المعرفة المنظمة لما كان معروفا » .

وكان المتحف أول من وجه الاهتمام الكافى للدراسة ، وهى مهمة
لا تقدر أهميتها للجنس البشرى بثمان ، فهى الأساس الذى لا غنى عنه
للمعرفة التاريخية . وربما كان الشعب البريطانى اليوم أقرب الى فهم
أهمية العلوم الطبيعية منه الى فهم أهمية التاريخ . انه أكثر فهما لمعنى
الدراسة ، وقد أدرك الكثيرون ما للمفاهيم العلمية وللموقف العلمى
إزاء الحياة من قوة محولة . وهم يعلمون ، من خبرتهم الخاصة ، أن
الرجل اذا تعلم طريقة البحث العلمى ازداد عقله قوة . أما أولئك الذين
ينظرون نفس النظرة الى الدراسة والتعليم ، أولئك الذين أحسبوا أن

المعرفة المنظمة لما كان معروفا ليست شيئا ميتا بل هي أكثر الأشياء حياة ،
اذ ترتفع بالوعي الانساني الى مجال جديد ، فقلة فادرة . والعجيب في
الأمر أنه حتى بين الدراسين لا يدرك هذه الحقيقة الا قلة . حقا لم يكن
كولنجوود عابثا حين قال (تاريخ حياته ، طبعة بليكان ، ص ٦١) :
« منذ ثلاثين أو أربعين سنة والفكر التاريخي يحقق تزايدا في سرعة
تقدمه واتساعه في نظراته العامة يمكن مقارنتهما بما حققه العلم الطبيعي
في بداية القرن السابع عشر . وانه ليدولى من المؤكد أن الفكر التاريخي
الذي كان الاهتمام به بشكل متزايد سمة من سمات القرن التاسع عشر ،
سيزداد أهمية في القرن العشرين وبسرعة أكبر . ولا يبعد اطلاقا أن نكون
على عتبة عصر سيحتل التاريخ فيه نفس القدر من الأهمية الذي كان
للعلم الطبيعي بين ١٦٠٠ ، ١٩٠٠ » . وما كنا بمستطيعين حتى أن نلمح
هذا الاتساع في مدى التفكير الانساني ، الذي تنبأ به كولنجوود ،
لولا أن قام المتحف منذ زمن بعيد بالاعداد له بأن اخترع نظاما دقيقا
لحفظ النصوص ، تقدها وتقلها .

قواعد اللغة (الأجرومية)

من هذا الاهتمام بالسجل المكتوب للماضي انبثق عمل كبير من
أعمال العلم الاسكندري ، ذلك هو علم الأجرومية . ان الظواهر المعقدة
للكلام لا يسهل تحليلها ، وقد سبق الظهور الحتمى لعلم الأجرومية
اعداد استغرق أجيالا من البحث والمجهود العلمي المضنيين . والعين
العادية أعجز من أن تلاحظ صعوبة هذه الخطوات الغامضة فتحن مع
قبولنا أعجوبة الاختراع الفينيقي ، الأبجدية الصوتية ، لا بد وأن تتساءل
كيف استعار الاغريق المخطوطات وعدلوها بما يتفق واحتياجاتهم . يرى

لقد ورد شواهد أن الصوتيات العملية المتضمنة في تلاوة الترنيمات الدينية وفي أشعار هومر كانت خطوة أولية ضرورية لاستخدام أبجدية أجنبية في كتابات الاغريق . وأيا كان الأمر فإن لدينا من الأدلة ما يشير إلى أن الاغريقين الأيونيين في القرن السادس قد أصبحوا واعين بالأجرومية ، فقد بدأوا يعنون بأعراب الأسماء وكان لديهم نظرية الحال . وقد انشغل فلاسفة القرن الخامس بالمسائل اللغوية ، وأصبحت ظواهر الكلام جميعا محل بحثهم ، وانشغلوا بالحروف والمقاطع والكلمات والجرس والأسلوب . وهناك انقسام في الرأي حول المسألة الجبارة هل اللغات من صنع الطبيعة أو من صنع العرف . وقد ناقش أفلاطون هذه المسألة في مؤلفه « كراتيلاس » ، ناقشها في دهاء وعمق فريدين ، بل وربما بعناد فريد أيضا ، إذ قدم النظرية المتطرفة التي تقدها لوكريتياس بشدة (الكتاب الخامس ص ١٠٤) ، والتي تقول بأن الكلمات من اختراع مشرع وأعداها للاستعمال الشائع أحد الميثافيزيقيين . وقد تولى أرسطو والرواقيون والأبيقوريون القيام بتحليل اللغوى ، وبقيت للاسكندرانيين مهمة صياغة الموضوع صياغة منظمة كما حدث في فروع أخرى من فروع المعرفة .

كان أول كتاب جامع لنصوص الأجرومية يصلنا كتابا من وضع دينيس الثراسى (أو باللاتينية ديونسياس تراكس) ، وهو كتاب يكشف عن عبقرية العصر كلها بتعريفه الواضح للأجرومية « المعرفة العملية لاستخدام الكتاب للشعر والنثر » . ويتضح من أقسام الكتاب الرئيسية أنه اكتسب شكله من وظيفته . وكان الأدب الاغريقى وقت أن وضع ديونسياس أجروميته قد بلغ من العمر ستمائة عام . فتغيرت اللغة بمرور الزمن . وكان الأدب قد خلق من خلال عدد كبير من اللهجات . ولم تكن دراسته قاصرة على الاغريقين ، فقد بدأ غيرهم من سكان

مختلف أنحاء حوض البحر الأبيض يدرسه . وكان لا بد لهم من عون
يعينهم على الدراسة ، ومن هنا ظهرت أهمية أجرومية ديونسياس ،
والغرض منها أن توفر المعرفة العملية للاستعمال السليم . اهتمت بالقراءة
السليمة وتفسير صور الكلام وعرض الكلمات النادرة ومادة الموضوع
وعلم الصرف ونظرية الصور الأجرومية المعتادة ، ثم أخيرا نقد الشعر
وهو ما وصف بأنه « أنبل الأجزاء جميعا » . وفيما يلي عيتان من
مؤلف ديونسياس :

١ — حددت أجزاء الكلام بأنها الاسم والفعل واسم الفاعل وأداة
التعريف والضمير والحرف والظرف وحرف العطف .

٢ — عرفت القراءة بأنها «لقاء الشعر والنثر دون تلثم» .

ويستطرد الكاتب قائلا : « عند القراءة بصوت عال لا بد أن يلتفت
المرء الى طريقة الالتقاء والى النطق والفواصل ، بطريقة الالتقاء تنبئنا
بصفة الكلام المقروء ، والمنطق ينبئنا بالمهارة فى الانشاء والفواصل تنبئنا
بالأفكار المتضمنة . اننا لا بد أن نقرأ التراجيدا بطريقة بطولية والملمهاة
بأسلوب عادى والمرثية بانتحاب والشعر الحساسى بحزم والأناشيد
بموسيقى والولولة بطريقة منكسرة دامعة . ان الخروج على هذه
القواعد يقتل قصد الشاعر ويجلب السخرية من فن القارئ » . يالها من
أجرومية فاتنة ! محددة الذوق ، ثابتة المذهب ، مختصرة العرض ،
واضحة الهدف . لقد ظلت قائمة لحوالى ثلاثة عشر قرنا ، تشهد على
الصفة الأدبية العالية لمدينة الاغريق وعلى أستاذية الاسكندريين فى فن
النصوص الصعب . أما تاريخ وضعها فكان حوالى ١٠٠ ق . م .

نحن نتقرب الآن من نهاية الفترة الأولى من فترات العلم الاسكندري .

ومن المناسب أن نلقى عليها نظرة عامة . في أواخر القرن الثالث بعد الميلاد
تشرقس مسيحي من لاوديشيا ، ويدعى أنا تولىاس ، بعض تعميمات
واسعة عن تطور العلم الاغريقي ، من المفيد أن نذكرها . كان منا لاحظته
هذا القس أن الفلاسفة في عصر الفيثاغوريين ، الذى نرى أنه يضم
أفلاطون ومدرسته ، كانوا يعتبرون أن واجبهم هو الاهتمام فقط
بالحقيقة الأزلية غير المتغيرة التى لا تشوبها شائبة . غير أن الرياضيين
غيروا بعد ذلك رأيهم وبدأوا يشغلون أنفسهم لا بالأشياء غير المادية
والمثالية فحسب ، بل كذلك بالأشياء المادية والمعقولة . ويستطرد القس
فيقول : « وباختصار فإن الرياضى لا بد وأن يكون الآن ممن حذقوا
نظرية حركة النجوم وسرعاتها وأحجامها وصور الكواكب وأبعادها .
وعلاوة على ذلك ، يجب عليه أن يلم بحدود الرؤية لدى الانسان فيعرف
الأسباب فى أن الأشياء لا تبدو عند كل بعد على ما هى عليه فى الواقع
وفى أنها رغم احتفاظها بعلاقاتها المتبادلة تخدعنا بالنسبة لمواقعها وترتيبها
سواء فى السماء أو الهواء أو المرايا أو المسطحات اللامعة الأخرى أو فى
حالة النظر اليها خلال أوساط شفافة . كما أن من المتفق عليه الآن أن
يكون الرياضى مهندساً وملماً بعلمى المساحة والاحصاء ومهتما بتأليف
الأصوات لتكون لحناً جميلاً » .

تذكرنا هذه المواضع التى اهتم بها أنا تولىاس — الفلك والضوء
والميكانيكا والمساحة والحساب التطبيقى وعلم الألحان — تذكرنا
بالناحية العملية التى نحاها العلم فى رحلته من أكاديمية أفلاطون عابراً
بليسنيوم أرسطو الى متحف كتسياس وأرشميدس ، كما أنها تسد
تقصاهما فى قائمة العلوم التى قمنا بوصفها حتى الآن وأعنى بذلك
إشارته الى علم الضوء . وكان هذا الموضوع البالغ الأهمية الذى تناوله

العلماء الاسكندريون من أوقليد الى بطليموس أكثر من مرة ، مقسماً الى أربعة أقسام رئيسية هي : الضوء البحت والانعكاس والانكسار والمناظر . والأول هو ما نسميه الآن بالمنظور ، وهو الذى يتناول الآثار البصرية التى تنتج عن رؤية الأشياء من شتى الأبعاد والزوايا . والانعكاس هو القسم الذى يبحث فيما يحدث لأشعة الضوء عند انعكاسها أو عند مرورها فى وسط شفاف ، أى أنه متعلق بالانعكاس من المرايا وتكوين أقواس القزح والضوء المرئى خلال منشور أو زجاجة اشتعال أو ما شابه ذلك . أما الانكسار فيمكننا أن نلم بما كان يتضمنه اذا درسنا مؤلف هيرون الاسكندرى عن آلة المساح المسماه بالمكسار وهى مزوى القدماء . كان هذا الفرع يتناول المسائل التالية : تحديد الفرق فى المستوى بين نقطتين معينتين ، حفر نفق خلال جبل مع البدء من الناحيتين ، انشاء ميناء على مثال جزء معين من دائرة مع تحديد الطرفين . وكان القسم الرابع ، علم المناظر تطبيقاً للمنظور على العمارة البحتة أو على المناظر المسرحية ، وهو ذلك الموضوع الجذاب الذى وصفه لنا كاتب من كتاب القرن الثامن بالكلمات التالية : « ان عمل المهندس المعماري أن ينتج عملاً مضبوطاً النسب من حيث المظهر على أن يتحایل ليصحح خداع البصر ما أمكنه ذلك جاعلاً هدفه التناسق والتناسب لا كما هما فى الحقيقة بل كما تراهما العين » . وكما هو معروف كان هذا التصحيح لخداع البصر عملاً من الأعمال التى حققتها العمارة الاغريقية ، وفيه يكمن السر وراء انتاجهم العجيب . وما من شك فى أن هذا النشاط التطبيقى لا بد وأن يكون قد وضع فى مؤلف اسكندرى ، وان كنا لم نعر على مثل هذا المؤلف .

سبق أن قلنا ان المائتى سنة الأولى من عمر المتحف كانت أهم سنيه ، والواقع أن المتحف عانى من أزمة قبل أن تنقضى مثل هذه المدة بعد

تأسيس مدينة الاسكندرية ذاتها في ٣٣٠ ق . م . وسنختتم هذا الفصل الطويل بوصف هذه الأزمة . كان بطليموس التاسع ، الذي سمي نفسه ايرجيتس (المحسن) الثاني والذي سماه الاغريق الاسكندريون المسىء أو الكرش السمين ، ممن حكموا حكما طويلا غامضا امتد من عام ١٤٦ الى عام ١١٧ . ويبدو مما بقى من آثار أنه ، ابان حكمه الطويل ، فعل الشيء الكثير من أجل صالح مصر . غير أن تاريخه يجعل المؤرخ الحديث أميل الى الاعتقاد بأنه كان يفضل أن ينفق على ترقية المؤسسات المصرية بدلا من أن ينفق على الاستعانة بأساتذة من الأجانب . وقد زار المؤرخ پوليبياس الاسكندرية خلال حكم هذا الملك فساءته حال الدولة هناك وقسم الشعب الى ثلاثة عناصر متميزة : المصريون ، والطبقة الحاكمة من الاغريق الذين أصبحوا مهجنين مولدين ، والجنود الأجانب المرتزقة . ووصف المصريين الأصليين بأنهم جنس ذكى متمدن ، وقال عن الجنود المرتزقة انهم عصاة نسوا كيف يطيعون . أما بخصوص العنصر الثالث فهو يرى انهم قد احتفظوا بمسحة من المبادئ الاغريقية ، فهم اغريقيون في الأصل غير أن مركزهم المتميز عن باقى المواطنين قد أفسدهم . ثم أضاف أن الكرش السمين استأصلهم كلهم تقريبا .

هذا الاضطهاد للعنصر الاغريقى فى الاسكندرية تشهد به مصادر أخرى (أثينيوس ، الجزء الرابع ، ٨٣) تقول بأن التعليم شهد نهضة عظيمة فى البلاد الاغريقية الأخرى ابان حكم هذا الملك ، وذلك لأنه لم يكتف بذبح عدد كبير من الاسكندريين بل تفى أيضا عددا أكبر . « وكانت النتيجة أن امتلأت كل الجزر والمدن بعلماء النحو والفلاسفة والمهندسين والموسيقيين والرسميين والمدرسين والأطباء وغيرهم من الفنانين الذين — وقد اضطرتهم الفقر الى أن يشتغلوا بالتدريس — أنجبوا كثيرا من الطلبة المشهورين » .

ومن الأمور التي لا تخلو من دلالة أن عالم النحو العظيم ديونيسيوس كتب أجروميتة ، على ما يبدو ، في رودس وليس في الاسكندرية . وأغلب الظن أنه كان ممن تقوا قسرا . ولكننا لا نعنى بهذا أن المتحف توقف عن العمل في هذا الوقت فهناك من الأدلة ما يثبت أن بطليموس التاسع ، أيا كان دافعه لاضطهاد الاغريق ، وأيا كان المدى الذي وصل اليه هذا الاضطهاد ، إلا أنه كان يرضى التعليم والأدب . غير أن حكمه يعتبر بالرغم من ذلك نقطة تحول ، فلم يكن الأمر قاصرا على بعثة العلماء والباحثين والفنانين الى مختلف الأرجاء ، فإن مصر وكل العالم الواقع شرقى البحر الأبيض كان قد وقع تحت حكم الرومان . وكانت روما قد أتقت مائة سنة لتخلق أدبا خاصا بها ، ولم يكن الرومان قد أتوا بعد عملا كبيرا من أعمال العلم ولا كان مقدرا لهم أن يتتجوا شيئا كثيرا في هذا الميدان ، غير أن حكاهم كانوا في ذلك الوقت من المثقفين الذين بدأوا يهتمون بالاغريقية والذين سنحت لهم الفرصة لأن يتسلوا في منازلهم بمشاهدة كوميديا بلوتاس وتيرنس اللذين قد طعما ، هما والشاعر الحماسي المثقف ايناس ، اللاتينية بكثير من ثقافة اليونان . ومن ثم فنحن يصدد عالم اغريقى رومانى لا عالم اغريقى فحسب .

ومع ذلك فانه ليس عالما اغريقيا رومانيا فقط ، فعندما اكتسحت السلطة السياسية للرومان عالم البحر الأبيض حتى نهايته لم تجد بين كل الشعوب التي قهرتها سوى شعبين اثنين فقط كان مقدرا لآدابهما أن تحيا وأن تمتلك عقول الناس وقلوبهم — الاغريق واليهود . وفي الاسكندرية بالذات بدأت المخطوطات العبرية تشق طريقها الى العقل الأوروبى . فهناك تم عمل لم يسبق له مثيل في التاريخ ، وهو ترجمة أدب حضارة من الحضارات الى أدب حضارة أخرى . ويرى البعض أن

الدافع إلى ترجمة المخطوطات العبرية إلى الاغريقية يرجع إلى البطلمة والمتحف . والرأى الأرجح هو أن الاسكندريين من اليهود الذين كانوا على وشك أن يسنوا لغتهم هم الذين قاموا بالترجمة بفرض القيام بشعائرهم في الهياكل . وأيا كان الأمر فقد شق « القانون » ثم « الأنبياء » طريقهما إلى الاغريقية ، حتى اذا كان حكم البطليموس فيكون (الكرش السين) كان القانون الكنسى كله قد ترجم ، وكان الانجيل الاغريقى ، السبتواجنت ، قد ظهر الى الوجود . وهو وان لم يكن من اختصاصنا الا أنه كتاج عظيم وكامل للمائتى السنة الأولى من عمر الاسكندرية لا يقل اطلاقا عن علم أرشميدس وهياركاس اذا نظر اليه من ناحية الأثر العلمى . وكان مزج الأفكار الاغريقية بالأفكار العبرية فى الاسكندرية هو المنبع الذى نبعت منه المسيحية فيما بعد اذ أمدتها السبتواجنت باللغة التى ستكتب بها كتبها المقدسة . لقد أعدت الاسكندرية لظهور المسيحية التى قهرت روما والتى كان لها أن تؤسس القسطنطينية . وسنعود مرة أخرى ، قبل نهاية الكتاب ، الى ذلك الأثر الاسكندرى الهام ، الى الانجيل الاغريقى .

الفصل الثالث

العصر الاغريقى الرومانى - الثقافة ذات اللغتين : اللغوى والموسوعى
والمترجم - شيشيرون ولوكريتياس - فيتروفياس وفرونتيناس وسلساس
وبلينى - جيمينوس وسترابو وبطليموس وجالينوس

العصر الإغريقى الرومانى

بينما كان البطالة الأوائى مشغولين بثبيت حكمهم لمصر ، كانت
حادثة على أكبر جانب من الأهمية تجرى فى الغرب ، فقد قهرت مدينة
روما ايطاليا ونظمتها . وكانت الطوائف الايطالية لا تختلف كثيرا عن
الغزاة من حيث الجنس أو الثقافة ، ووجد الرومانيون فى فلاحى ايطاليا
العديدين الأقوياء موردا ضخما يزودهم بالقوة العسكرية . وكانوا فى
هذه الناحية أحسن حالا من البطالة فى الاسكندرية وهم الذين لم يكن
أمامهم الا أن يحكموا مصر بجيش كله أو أغلبه من الاغريق . كما كانوا
أوفر حالا من الفينيقيين فى قرطاجنة الذين كانوا يستخدمون لتحقيق
أطماعهم الاستعمارية جيوشا مرتزقة من قبائل البربر . لقد حققت روما
لايطاليا قدرا من الوحدة لم يكن ممكنا توفره للاسكندرية ومصر
أو لقرطاجنة وافريقيا . هكذا صارت روما سيدة العالم .

وسرعان ما تكشف قوة السلطة الجديدة وقاد يرهاس الايروسي ،
مستوحيا دور الاسكندر فى الغرب ، جيشا الى ايطاليا وهو يتوقع صيدا
سهلا . ولو أنه تمكن من اخضاع روما لقاد الاغريق ضد قرطاجنة . غير
أن حياته انتهت ولما تبدأ ، وذلك اثر الهزيمة الساحقة التى أنزلها به

الرومانيون عام ٢٧٥ ق . م . وانتقلت زعامة الاغريقين الايطاليين ثم الصقليين بعدهم الى روما وبدأت المشاركة بين الرومانيين والاغريق . وكانت قرطاجنة قد انهكت اثر حريقين ضروسين طويلتين قبل نهاية القرن الثالث . وبدأ القرن الثاني بزحف الرومان شرقا ، وقبل أن ينتصف القرن كان خلفاء الاسكندر في الشرق ، الاتيجونيديون في مقدونيا والسيلاوسيديون بسوريا قد سحقوا . وأصبحت المدن الاغريقية في آسيا الصغرى وفي القارة ومدن جنوبى ايطاليا وصقلية ، أصبحت كلها جواهر التاج الروماني . ولم يبق سوى مصر التي ضمها أوغسطس . بعد ذلك الى الامبراطورية .

تلك هي الحوادث التي أنتجت العصر الثقافي المعروف بالعصر الروماني الاغريقي . ولم يكن الرومانيون الذين وحدوا ايطاليا بمهارة سياسية فائقة شعبا مثقفا ، اذ كان يعوزهم الأدب . وكانت لغتهم قاصرة على مقاطعة لاتيوم بجوار روما والتير ، فيما عدا بعض العواميات والمستعمرات . ولقد بدأت هذه اللغة تتحول بحيث صارت صالحة للمناقشات والقرارات السياسية ، غير أنها لم تستعمل اطلاقا في التعبير عن أفكار فلسفية أو علمية . وجد الرومان أنفسهم أسياد المدن الاغريقية في ماجنا جريسيا واليونان وأيونيا ، ووجدوا أنفسهم ، وهم الذين يتكلمون اللغة المتخلفة لمقاطعة صغيرة بايطاليا ، السادة السياسيين للبحر الأبيض الذي كان من الناحية الثقافية بحيرة اغريقية . ان أولئك الذين لم يكن لهم أدب اطلاقا قبل اتصالهم بالاغريق ، وجدوا أنفسهم سادة شعب له أدب بلغ من العمر خمسة أو ستة قرون ، أدب كان وقتئذ موضع تقدير المثقفين والباحثين . وكان حتما أن يتعلم أولادهم على أيدي اللغويين الاغريق ، وأن يتعلم ساستهم على أيادي السياسيين الاغريق . وكان لهم ومهنتهم الرفيعة في أيادي الاغريق . وتشكل أدبهم الوليد

بالشكل الاغريقى وأصبحت ثقافة الرومان مزدوجة اللغة . « اذا أردت
ألا يتطرق الملل الى نفس رفيقتك ، فان عليك أن تحذق اللغتين » ، بهذا
ينصح أوفيد في كتابه « فن الحب » . وقد ثبت صدق النصيحة وامتد
أثرها الى مجالات أخرى . كان على كل روماني يريد أن يتثقف أن يتعلم
الاغريقية وعلى كل اغريقى يريد أن يبيع ثقافته أن يتعلم لغة سيده
الرومانى . كان الاغريق هم أصحاب المعرفة ، غير أن السيادة الرومانية
لم تكن مجرد حقيقة سياسية اذ كان لها أثرها فى المجال الروحى أيضا
فقد نجحت روما حيث فشلت اليونان ، وأصبح الرومانيون مستولون
عن السلطة . ولم يكن الأدب الرومانى مجرد تقليد للاغريقى بل كان
تعبيرا عن عصر جديد . وقد كون الرومان أنفسهم عقليا بما بذلوا من
مجهود فى هضمهم لثقافة الاغريق ، وان كانت غريبة عنهم ، الا أنهم شاءوا
أن يمثلوها لمصلحتهم الخاصة . والثقافة الرومانية ، وان كانت أقل
أصالة ، الا أنها ذات تركيب جديد ونضج جديد . فشيشيرون يقلد
أفلاطون ، غير أنه يعبر عن الحكم الفعلى أكثر مما يعبر عن العدالة المثالية .
ولوكرتياس يقتطف من أزهار أبيقور غير أنه يخاطب المجلس والشعب .
وثيرجيل ينحو نحو هيسويد ولكنه يفعل هذا بوحى من الامبراطور .
وتاكتياس يترسم تدهور الخطابة غير أنه يقرأ فيها قصة الثورة السياسية .
هذا الوعي الجديد الذى يميز أدب روما يتصل بتشكيل عالم جديد من
الناحيتين السياسية والاجتماعية . فقد توحدت هذه الرقعة المتسعة من
العالم بفضل انشاء الطرق وتحسين البواخر والموانئ ، وتحرك الجيوش
واختراع أشكال سياسية جديدة والتكلم بلغة واحدة . وكان حكم هذه
الرقعة المتسعة أكثر تعقيدا من حكم مدينة أيا كانت ، وبدأت المشاكل
الادارية تتمثل شيئا فشيئا فى عقول الأسياد الرومانيين ومعلميهم

الاغريقين . وكانت تتخذ في الأغلب أشكالا معقدة منا جعل الانسان يلجأ الى الباطنية والكلبية والى القدر والنجوم والآلهة والامبراطور . وكانت قصة انتشار الأديان الشرقية وارتداد مختلف الفلسفات الى مدارس الاستسلام هي الصورة المصاحبة لنمو العلم في هذا الوقت . غير أننا سنرى فيما سوف نتعرض له من كتب وكتّاب بعض الأدلة على قدرة الانسان على أن يمسك زمام أمره بيده .

الثقافة ذات اللغتين : اللغوى ، والموسوعى ، والمترجم

المقصود بازدواج اللغة في العالم الرومانى الاغريقى هو أن العلم الأوروبى كان ، ابتداء من حوالى عام ١٠٠ ق . م ، ذا لغتين . ولكن النشاط العلمى لم يكن موزعا بالتساوى بين اللغتين ، فالنشاط الخاص بتقدم فروع العلم التى أصبحت اليوم تقليدية كان لا يزال يجرى بالاغريقية ، أما اللاتينية فاختصت بأعمال التمثيل والتحويل بما يتفق وحاجات الرومانيين . وكانت تتضمن النقد والاختيار والتنظيم ، وكانت النتيجة قليلا من الشوامخ ذات شكل جديد .

وكان من نتائج اتصال العلم الرومانى بالاغريقى أن علم الأجرومية ، وهو آخر علم صاغه الاغريق ، كان أول علم يتحقق سيادته للرومان ، وهو لا يزال أحد انتصاراتهم العظيمة . ونظرا لأن الرومان كانوا يدرسون بالاغريقية ويكتبون باللاتينية فقد نشأ اهتمامهم بالأجرومية بطريق مختلف عن طريق الاغريق الذين أحسوا بالحاجة اليها أثناء محاولتهم تفهم الكتاب القدماء بلغتهم . أما الرومان فإن الحاجة الى دراسة لغة ثانية هى التى جعلت منهم أجرومين . وكانت كبرياؤهم الوطنية تأبى عليهم أن يصبحوا من الوجهة الثقافية مقاطعة اغريقية ، فعملوا على أن

ينقلوا الثقافة العلمية والأدبية للإغريق إلى اللاتينية ، ومن ثم تبين لهم أن أول علم إغريقي هم في مسيس الحاجة إلى بنيته وتشكيله هو الأجرومية . وكان أول فقهاءهم في اللغة هو لوسياس ستيلو (حوالى ١٥٤ — ٧٤ ق . م) الذى درس فى رودس وقت أن كان ديونيسيوس ثراكس مستوطنا بها بعد تقيده من الاسكندرية . وكان ماركوس تيرتياس فارو (١١٦ — ٢٧ ق . م) أعظم تلامذته ، وقد ألف خمسا وعشرين كتابا فى اللغة اللاتينية لم يصلنا منها سوى ستة . ان الأجروميين الرومانيين عديدون ولسنا فى حاجة لأن نذكرهم ، غير أننا نود أن نلفت النظر إلى عالمين منهم . الأول دوناتاس الذى عاش فى منتصف القرن الرابع بعد الميلاد وبلغ من شهرته أنه فعل ما فعله أوقليد ، فسمى موضوع تخصصه باسمه فكانت الأجرومية مقرونة فى آخر القرون الوسطى باسم دونات . والثانى وهو بريسيان أعظم شأنا من دوناتاس ، ويعتبر مؤلفه « قواعد الأجرومية » ، وهو من ثمانية عشر كتابا وظهر فى حوالى ٥٠٠ ميلادية ، أشهر كتب الأجرومية القديمة جميعا . وبالرغم من طوله الهائل (يكاد أن يبلغ طول الأجرومية اللاتينية الحديثة لمادفينج) ، إلا أنه بلغ من شعبيته أنه ما من مكتبة فى أوروبا إلا وكانت بها نسخة منه . بل إنه باق حتى اليوم ويقع فى حوالى ألف مخطوط . ان الثقافة مدينة للأجروميين الرومان بدين كبير .

من الثابت أن الظواهر اللغوية ليست من الأمور التى يسهل على العلم تحليلها . ومن المفيد أن نضرب مثلا للطريقة التى اتبعها العلماء الرومان فى كتاب « فن النحو » يبدأ دوناتاس بتعريف الصوت كما يلى « الصوت هواء يتذبذب تلتقطه الأذن . والمخرج الصوتى اما أن يكون مفصلا أو مبهما وأعنى بالمفصل ما يمكن كتابته وبالمبهم مالا يمكن

كتابته » : وقد أحسن بريسيان أن هذا التعريف ليس وافيا بالرغم من أنه يتجه اتجاهها سليما ، فتقدم في بداية كتابه الأول بتحليل أكثر شمولاً : « درج الفلاسفة على تعريف الصوت أما بأنه كمية ضئيلة من الهواء في حالة تذبذب أو بآثره على الأذنين . والتعريف الأول يتناول المادة أما الثانى فقائم على الحدث لأن السمع شئ يحدث للصوت . وهناك أربعة أنواع من المخارج الصوتية : المفصل والمدغم والفصيح والأمى . والمفصل هو ما كان له معنى يقصده المتكلم والمدغم مالا معنى له والفصيح هو ما يمكن كتابته والأمى مالا يمكن أن يكتب . فمثلا « السلاح والرجل ، أغنى » كلام مفصل وفصيح يمكن كتابته ، والتأوه والصفير والتنهيد مخارج مفصلة وغير مكتوبة ، اذ بالرغم من أن لها معنى إلا أنها لا يمكن أن تكتب . أما المخارج المدغمة المكتوبة فهي مثل « كوكس » أو « كرا » اذ أن من الممكن كتابتها غير أنها لا تعنى شيئا . أما المدغم غير المكتوب وهو الذى لا يحمل معنى ولا يمكن كتابته فمثل الهذر أو الخوار ..

وفارو هذا الذى أشرنا اليه منذ لحظة ليس فقط واضح أول أجرومية لاتينية وصلنا معظمها ، بل هو أيضا أحسن مثال متقدم للموسوعى . ولم تكن أجروميته إلا الجزء الأول من عمل عظيم تناول فيه الى جانب الأجرومية ، المنطق والبيان والهندسة والحساب والفلك والموسيقى والطب والعمارة . وكان الرومان ينظرون أول الأمر نظرة مستزينة بعض الشيء الى ثقافة الاغريقين ، حتى اذا ما حل عصر فارو كانوا قد انتهوا الى أنه لا غنى لهم عنها ، ومن ثم عقدوا العزم على أن يتشربوها . وقد فعلوا ذلك بشكل ثابت متين . ظل مفهوم فارو عن الشكل الموسوعى للمعرفة سائدا خلال العصور الوسطى الى الأزمنة

الحديثة . ولم تغيره سوى التطورات الحديثة في العلوم التاريخية والطبيعية .

شيشيرون ولوكريتياس

غير أن كتابات الأجروميين والموسوعيين ، وإن كان من الخطأ التقليل من شأنها إلا أنها تبدو تافهة إذا قورنت بما فعله الرجلان اللذان طبعاً أعمال الانتقاء والنقد وإعادة التنظيم بطابع من عبقريتهما اللامعتين ، فلعبا دوراً يفوق الجميع لكي تصبح اللاتينية لغة قادرة على أن تنقل حكمة الإغريق إلى غربي أوروبا . وقد خلف كل منهما ، على الاختلاف الشاسع بين مواهبهما الفكرية والروحية ، أعمالاً فذة خالدة تعد ، إذا استثنينا تمثيلات بلوتاس وتيرنس ، بمثابة النصب الأولى للعبقرية اللاتينية التي لا تزال تؤثر تأثيراً حياً على فكر العالم الحديث وأسلوبه . ترى ما السر وراء تهوؤ هذين الرجلين ؟

في القرن الأخير من العصر الوثني تنازعت مدرستان فكريتان إغريقيتان قيادة الرومان المتطلعين إلى الفلسفة . وكانت هاتان المدرستان هما الرواقية والأبيقورية . أما الفرق الأخرى فأهملها المدارس السقراطية المختلفة ولكنها كانت أقرب إلى الرواق منها إلى الحديقة بحيث يمكن القول بأن الانقسام الحقيقي كان بين أتباع أبيقور من جهة والباقيين من جهة أخرى . كان الأبيقوريون يقولون بوجود الآلهة ، شأنهم في ذلك شأن منافسيهم ، غير أنهم حددوا من مجال عمل آلهتهم فقصروه على الحياة الشخصية الداخلية قائلين : إن الرجال الأخيار يعاشرون الآلهة المباركة أما الأشرار فيسيطر عليهم الخوف من هذه الآلهة ، وهو خوف من نسج خيالهم . وهم يختلفون بشكل واضح عن المدارس الأخرى في كونهم يبعدون الآلهة عن الطبيعة والمجتمع ، فاللهتهم لا هي صنعت العالم

ولا هي حكمته ، ولا هي علمت النابن . الحضبارة ولا هي
أرشدتهم الى الترقى بها ، ولا هي نصبت نفسها حارسة على الممتلكات
أو الأخلاق العامة ، ولا هي أنزلت الدوايق بالعاصين أو العاثرين في
اليمن . ولهذا السبب كان من الصعب على الأبيقوريين أن يتلاءموا
مع الحياة العامة في مدينة كمدينة روما التي خلقتها الآلهة وترعاها والتي
لا تتم فيها خدمة عامة الا باذن منها ، والتي يلقى فيها الآلهة الأمرين
لحفظ النظام . غير أن الأبيقوريين من ناحية أخرى كانوا وراء كل دراسة
للطبيعة ، لا على أساس أنها مظهر من مظاهر عقل الهى وهاب ، بل على
أنها بيئة تحيط الانسان استطاع الناس بتحكمهم فيها أن يضعوا أسس
الحياة المتقدمة . وكانوا أيضا وراء كل دراسة للتاريخ ، لا من أجل تتبع
النوايا الغامضة للآلهة ، بل كسجل لتجارب الجنس البشرى وأخطائه .
وكانوا كذلك وراء كل دراسة للطبيعة البشرية كأساس للتحكم الرشيد
في الحياة الفرزية . هكذا كان الجو الفلسفى للعالم الذى ولد فيه كل
من شيشيرون ولوكريetas والذى شبا فيه ليصبحا بطلين لمثل هذه
الوجهات المتعارضة من النظر .

كان شيشيرون رجلا من عامة الشعب وكان من بين خالصاته كثير
من الأبيقوريين وبالرغم من ذلك لم يكن لديه ما يستطيع أن يدافع به
عن هذه الشيعة . كانت فلسفته مزيجا من الأفلاطونية والزواقية ، وكان
يميل الى ميثافيزيقية أفلاطون وأخلاقيات زينون ، أو على الأصح الى
ما أدخلته الأجيال المتأخرة من تحسينات على تعاليم هاتين المدرستين
وما من أحد يعتبره مفكرا أصيلا ولا أنا ممن يشعرون بأن آراءه المستعارة
بلغت من الاخلاص فى اعتناقها درجة ترتفع بها الى عقيدة رجل عظيم .
ولعله هو نفسه لم يصف عليها هذه الأهمية . غير أنه بالرغم من هذا

كله يستحق اهتمامنا واعجابنا ، فان الرجل الذي ألف في السياسة « الجمهورية » ، « والقوانين » حيث طبق تعاليم أفلاطون على التاريخ ومشاكل الدولة الرومانية ، وألف في الميتافيزيقيا « الأكاديمية » و « المجادلات » حيث صاغ الكلمات والعبارات بطريقة تمكن اللاتينية من عرض المسائل الجوهرية للفلسفة التقليدية ، وألف في الأخلاق « دي قيتيس » ، « دي أوفيسيس » حيث فعل نفس الشيء في ميدان السلوك ، هذا الرجل قد ضرب من الأمثلة لحذقه استغلال المصادر الاغريقية في انتاج أعمال لاتينية جديدة ولحذقه حل عددا لا يحصى من المشاكل التي تصادف المترجم ، ما يستحق من أجله أن يحتل مكانا بارزا في تاريخ نقل الأفكار . وبالرغم من عدم دقة تفكيره ، الا أن هناك سحرا في استجابة عقله المتلهف لفعل الآراء الجديدة وفي البراعة الفنية التي يطبع بها اصطلاحاته المحلية المتخلفة ، بكل الصفات اللازمة لعرض فكر أفلاطون أوزينوفون ، وفي سيطرته الدائمة على الكلمات . ولقد كان أدبيا عظيما وخطيبا وسياسيا ، وكان يطبع كل أعماله بطابع من شخصيته ولقد ترك أيضا في ذاك المجال الذي تطفئ فيه الفلسفة على العلم عملا بالغ الأهمية هو ترجمة « تيمائس » لأفلاطون ، وقد وصل الينا جزء من هذه الترجمة . وكتب مؤلفا يعتبر أصيلا لحد ما ، جمع فيه بين الاخلاص والانفعال ، وهو مؤلف عن التنجيم يقع في كتابين . كتبه على شكل حوار ، وأشرك معه أخاه كوينتاس فعهد اليه بمهمة الدفاع عن الممارسة القديمة لمعرفة رأى الآلهة عن طريق التنبؤ والكهانة والتنجيم وغير ذلك مما كان معروفا في العصور القديمة . أما في الكتاب الثاني فقد احتفظ لنفسه بمهمة أسمر وأشق ، مهمة تقويض هذه الأفكار . وقد أدى المهمة بدقة ونشاط ولم يتردد في أن يختم الكتاب بالافصاح عن اعتقاده

بأنه « يكون قد أدى خدمة جليلة لنفسه وبلده اذا تمكن من اقتلاع هذه الخرافة من جذورها » . وانها لظاهرة مدهشة أن يعتل في نفس شيشيرون هذا الدافع الثورى الموجه ضد آراء قائمة وثابتة ، آراء دافع هو نفسه عنها فى مكان آخر بحجة أنها نافعة .

هذا الهجوم على الخرافة من جانب شيشيرون يجعله قريبا ، ولو الى حد ما ، من معاصره لوكرتياس الذى كان من أتباع أبيقور ، أى من المدرسة التى حاربت ، وحدها دون غيرها من المدارس ، من أجل تخليص الطبيعة والتاريخ من التدخل المفروض للقوى الخارقة للطبيعة . وهو بعمله هذا يقدم لنا أفضل مثال لقدرة الكتاب الرومانيين على تمثيل المعارف الاغريقية ليخلقوا منها وحدة عضوية جديدة . كانت النظرية الذرية التى وضعها ديموقريط وليوسيبياس هى الأساس الذى بنى عليه أبيقور فلسفته ، ولكن نار المدارس السقراطية كانت قد التهمت هذه النظرية وكان على أبيقور أن يعيد بناءها فى ضوء نقد أفلاطون وأرسطو . ولقد أعاد أبيقور وضع النظرية الذرية ، وتكفل لوكرتياس بشرحها للرومانيين ، غير أنه دون شك لم يتقيد بالثلاثمائة لغة التى تركها أستاذه فقام بدراسة مستقلة لفلاسفة ما قبل سقراط ، وعلى الأخص هيراقليط وأناكساجوراس وديموقريط . كما درس أيضا كتابات أبو قراط وتوسيديد واستخلص من هذه الدراسات مادة كتابه السادس . وإن ما ارتكبه من أخطاء فى تفسيره أفكار هؤلاء الفلاسفة ، لدليل ، ان كانت ثمة حاجة الى دليل ، على أنها لم تكن بالدراسات الهينة : وهو يتقد بشكل مباشر آراء أفلاطون ولو أنه لم يذكر اسمه صراحة . ومن بين من تأثر بهم أيضا هومر وأشيلاس ويوريبيدس . تلك كانت المواد الاغريقية التى درسها وهضها .

وهناك مصدر اغريقي آخر يستحق الذكر ألا وهو قصيدة « عن الطبيعة » ، وهي القصيدة الفلسفية التي كتبها امبيدوقليس الأكراجاسي وهو من فلاسفة المرحلة التي سبقت سقراط . وقد حذا لوكريتياس حذوه في اختيار الشعر كوسيلة لعرض منهجه . وكان الأسلوب الشعري عقبة أمام بعض تلامذة لوكريتياس . وهناك كثيرون يرون رأى شيلي الذي يقول « لست أمقت شيئاً كما أمقت الشعر الثقيفي . انقل أى موضوع يعرضه النثر عرضاً حسناً الى الشعر تجده قد أصبح مملاً وناقلاً » . غير أن هذا الرأى رأى سطحي فإن كثيراً من الشعر القديم الرصين شعر تثقيفي فعندما يريد كاتب عرض موضوع عظيم يحس بأهميته احساساً عميقاً ، موضوع يثير مشاعره وفكره ، موضوع يريد له أن ينفذ الى قلوب مستمعيه كما ينفذ الى عقولهم فانه سيجد في الشعر من مصادر البلاغة ما يمكنه من أن يجذب الانتباه ويثير الاهتمام ويطلع الذاكرة . ولقد وجد لوكريتياس هذه الصفات في امبيدوقليس ، وكان سعيداً أن يتخذ من شاعر مثلاً يحتذى به لأن اللاتينية كانت في أيامه أكثر تطوراً في ميدان الشعر منها في ميدان النثر . ولم يكن لوكريتياس أول لاتيني يطرق باب الشعر الفلسفي ، فقد سبقه انياس الى ذلك . أما النثر الفلسفي فكان لا يزال في بداية تشكيله وهي عملية أسهم فيها جزئياً الأبيقوريون الذين ضاعت مؤلفاتهم ، ولكن شيشيرون هو الذي قام بالدور الرئيسي فيها .

وقد أدت الظروف السائدة وقتئذ الى أن يتطبع عقل لوكريتياس بذرية ذات صفات تبشيرية . فهو يرى أن عالم الانسان يئن تحت عبء الخوف — الخوف من أن ينحدر الى أسفل أثناء صراعه الطاحن من أجل البقاء ، والخوف من أن يأخذه الهلاك كعقاب على الخطيئة ، والخوف

من الموت والعقاب في الحياة الأخرى . وحاول أن يجد سبيل الخلاص من أول هذه المخاوف عن طريق نظرية فلسفية تتسم بالفوضوية ففكر أن الناس لو رضوا بأن يحيا حياة بسيطة لوجدوا ما يكفيهم جميعا . « حياة معتدلة بنفس مطمئنة بمثابة كنز كبير ، ولن يكون القليل نادرا أبدا » . هكذا كان يتغنى وفي هذا دليل كاف ، ان كان يعوزنا الدليل ، على أنه كان يتمتع بأمن وراحة معقولين . أما باقى المخاوف فقد أولاها تفكيراً جدياً ، فهي وإن كانت طبيعية في الناس وعلى الخصوص من كان منهم جاهلاً ، إلا أنها كانت أيضاً مغروسة في نفوس الجماهير لأسباب تتعلق بالدولة . وقد دعا كل من پوليبياس وفارو وشيشيرون الى الاستعانة بالخرافة من أجل السيطرة على الدهماء . ولقد تعرضت لآرائهم في كتاب آخر من كتبى (العلم والسياسة في العالم القديم) ، وسأستشهد هنا بمصدر آخر . كتب سترابو حوالى عام ٣٠ ق . م . يقول : « لم يكن الشعراء وحدهم هم الذين نشروا الخرافة فقد أجازتها المدن ومشرعوها قبلهم بوقت طويل كوسيلة من الوسائل النافعة ، اذ أدرك الأمر ، الى حد ما ، الطبيعة العاطفية للحيوان المتعقل وكان من رأيهم أن الأميين غير المتعلمين لا يفترقون فى شىء عن الأطفال ، فهم شغوفون مثلهم بالقصص وهم عندما يستمعون الى القصص الوصفى أو غيره من أشكال الفن الوصفى ويلبسون بمدى فظاعة العقاب والوعيد الالهيين يرتدعون عن غيهم . ولن يستطيع فيلسوف من الفلاسفة أن يستخدم مجرد الوعظ المتزن لكى يؤدى بمجموعة من النسوة أو بأية مجموعة من الغوغاء ، الى حظيرة التبجيل والإيمان والعقيدة . لا بد له أن يستغل خرافاتهم ، وأن يستعين فى ذلك بالأساطير والمعجزات . ومن ثم أقر منشئ الدول هذه الأشياء « كبيع » يخيفون به بسطاء العقول . تلك كانت وظيفة

الأساطير التي جعلتها تحتل مكانا معترفا به في المجتمع المتمددين القديم وفي تفسير معنى الواقع » (الجغرافيا ، الجزء الأول ، ص ٢ ، ٨) (١) .

كانت الأبيقورية في نظر لوكريتياس تعنى الحرب العنيفة ضد هذا الرأي المتعلق بأوضاع المجتمع المتمددن . فهو يستهل قصيدته بأن يدعو الى فلسفة قادرة على أن تنصر الانسان على الدين ، وهو يقصد هنا الأساطير المعترف بها رسميا . وهو يحذر أولئك الذين يرغبون في اتباعه قائلا : ان الطريق لن يكون ممهدا اذ سوف يتعين عليهم أن يحاربوا المعارضين ممن سماهم « كاشفى الغيب » الذين سيستغلون الخوف مما قد يصيب غير المؤمنين من عقاب بعد الموت . والسلاح الذي يبدد به لوكريتياس هذه المخاوف هو فلسفة حقة للطبيعة . ويعلن مرتين أن الفلاسفة الطبيعيين الاغريق هم الجديرون بالاحترام كينايص للصدق لا حكماء أبولو في دلفي . تلك كانت الأوضاع التي حاول لوكريتياس أن يؤثر فيها ، وتلك كانت رسالته .

وقصيدته لم تتم ، غير أن مشروع الكتب الستة التي أتمها تقريبا واضح ومفهوم . يبحث الكتابان الأول والثاني في المبادئ الرئيسية للتفسير الذرى لطبيعة العالم الفيزيقي ، ويتناول الكتابان الثالث والرابع الانسان ، والأول منهما خاص بشرح طبيعة الروح وطريقة اتصالها بالجسد ، وهو يتضمن البراهين على دينوية الروح ويحاول أن يبدد الخوف من الموت ، والثاني خاص بالاحساس والفكر والوظائف البيولوجية . ويبحث الكتاب الخامس في عالمنا وتاريخه فيصف تكوينه

(١) يدعى سترابون أن التاريخ والعلم كانا أحسن حالا فيما بعد غير أنه يضيف أنهما كانا قاصرين على الصفوة الممتازة .

وطبيعة الأجرام السماوية وتحركاتها وبدء الحياة والمدنية . أما الكتاب السادس فموضوعه الظواهر الارصادية وما جرى على الأرض من أحداث عجيبة والأوبئة بوجه عام ووباء الطاعون الكبير في أثينا إبان حرب البلوپونيز بوجه خاص . وليس في كل الكتابات القديمة ، بل وليس في العالم الحديث أيضا كما أعتقد ، كتاب واحد بذل فيه من الجهد قدر ما بذل في هذا الكتاب من أجل حشد جميع ظواهر الطبيعة والتاريخ كشواهد مشتركة على نظرة موحدة الى الأشياء . والكتاب موسوعي حقا وإن كان بعيد الشبه بالموسوعة لأن كل ما به من معلومات ليس سوى أجزاء من حجة متكاملة . والمرء يحس في كل جزء من أجزاء هذا الكتاب بحماس فكري عميق زاد من قدره أن الكتاب لم ينته . وانك لتشعر أن لوكرتياس لا بد وأن يكون قد مات وهو يصيح صيحة باكل « واكتابه ، واكتابه ! » .

وصفحات الكتاب زاخرة بمادة متنوعة تنوعا لا ينفذ ، ومن بين محتوياته موضوع يعنينا وهو مجمل لأصل المدنية وتقدمها ، ويشغل النصف الثاني من الكتاب الخامس . ولقد اهتمنا في الجزء الأول من كتابنا بشكل خاص بمجمل قصير للمدنية منقول عن ديموقريط (١) حفظه لنا المؤرخ ديودوراس ، وذلك لأنه يمثل الذروة الحقيقية للعلم قبل سقراط . ويزودنا لوكرتياس ، وهو معاصر لديودوراس ، بفقرة تقع في حوالي سبعمئة سطر ، يبدو أنها تعبر عن رأي المدرسة الأبيقورية في

(١) تؤكد الأبحاث الأخيرة ما أشرنا اليه من احتمال نسبة هذه الفقرات الى ديموقريط . انظر كتاب جريجورى فلاستوس « عن ما قبل التاريخ في كتابات ديودوراس ، الجريدة الأمريكية في علم اللغة ، الجزء ٦٧ ، يناير ١٩٤٦ .

أصل المدنية وتطورها . ولعل هذه الفقرة أنضج ما أسهم به العالم القديم في علم العالم الحديث ، اذ هي تستبعد دور القدر وتبحث عن الأسباب المعقولة التي دفعت تاريخ الانسان ، ولهذا السبب رأينا أن نلخصها في شيء من التفصيل . يخبرنا الشاعر أن الأرض أثمرت ، أول كل شيء ، الحياة النباتية ثم بعد ذلك الكائنات الحية . وكانت الطيور التي أفرخت من البيض أولها ثم تلتها الحيوانات التي ولدت من أرحام تتصل بالأرض . وتولت الأرض أمر غذائها وكسائها وتعديل المناخ بما يلائمها ، غير أن الأرض شاخت بمرور الزمن ولم تعد تثمر من جديد ، فبدأت الكائنات الحية تتوالد بنفسها . وقبل أن تشيخ الأرض أتجت كثيرا من الأمساخ التي انقرضت . والواقع أن كل الأنواع التي لم تستطع أن تجد غذاء أو تتكاثر أو تحفظ نوعها أو تكسب على الأقل رعاية الانسان مقابل ما تؤديه له من خدمات ، كل هذه الأنواع كان نصيبها الانقراض .

كان الانسان البدائي أصلب عودا من الانسان اليوم وأطول عمرا منه ، ولم يكن منتجا للغذاء بل مجرد جامع له ، ولم يكن يعرف النار أو الملابس فاتخذ من الغابات وكهوف الجبال مسكنا له . وكانت معاشرة الجنسين لا رابط لها . وكان الانسان يتجنب الوحوش الضارية وينصطاد الحيوانات الأخرى مستعملا العصي والحجارة . ولم تبدأ المدنية الا بعد أن حصل على النار والملابس الجلدية وأقام الأكواخ . هنا بدأ الرجل والمرأة يتعاشران معاشرة مستديمة ويتذوقان حنان الأبوة ، وبدأ المجتمع المدني بإنشاء الصداقة وإبرام المعاهدات بين الجيران .

كانت اللغة من نتاج المجتمع ، فما كان لرجل واحد أن يخترعها وينقلها الى رفاقه ، فكما تعبر الكلاب والخيول والطيور عن مختلف

مشاعرها بأصوات مختلفة كذلك استخدم الانسان أصواتا مختلفة ليعبر عن أشياء مختلفة الى أن تكونت اللغة عن طريق العرف .

ولقد عرف الانسان النار أما عن طريق حريق ناجم من البرق أو اشتعال فروع أشجار أثناء احتكاكها بفعل الريح . وتعلم الناس الطهو من الشمس . وشيئا فشيئا ، تحول أولئك الذين مكنتهم مواهبهم الفنية من القيام بدور القيادة الى ملوك ، فأقاموا المدن ، وكان بكل مدينة قلعة اتخذها الملك حصنا يحمى ورائه . وأنعم الملوك على رعاياهم بالقطعان والحقول وفق ما يتخلون به من صفات شخصية . غير أن اختراع العملة ونمو الملكية غيرا ظروف الحياة تغيرا كاملا فأصبحت الثروات أكثر أهمية من الخصال الشخصية وكان أن نتج عن ذلك مجتمع حسود وجشع أطاح بحكم الفرد وأشاع الفوضى . وانبثقت من هذه الفوضى حكومة دستورية وعين القضاة وصيغت القوانين وأحييت الجريمة بسياج من القانون . ثم انتقل الشاعر بعد ذلك الى الدين وتساءل عن السر في شيوعه في أنحاء العالم . انه في كل مكان . لقد ملأ المدن بالهياكل وأدى الى احتفالات سنوية تبث الرعب المنزع في قلوب الرجال الفانين الذين نشروا الشريعة ذلك وأقاموا معابد جديدة تتبعها جموع جديدة من العابدين في جميع بقاع الأرض ^(١) . وهو يرى أن الدين ينم عن اضطراب فكرى لدى أولئك الذين تنقصهم فلسفة حقيقية عن الطبيعة ، فالناس في تموضهم ونومهم يرون الآلهة في كامل مجدها ويضفون عليها (بحق) القدسية والخلود . كما أنهم ينظرون الى ظواهر السماء كظواهر مهيبة منتظمة لا يمكن أن تفهم . ومن ثم فهم يتصورون أن الآلهة يسكنون

(١) قارن هذه العبارات بانتشار نحلة سيرايس التي سبق ذكرها في هذا الكتاب .

السناء ويقودون بمشيئتهم كل هذه الظواهر السناوية . « ياله من جنس
تعس من الرجال اذ عزا الى الآلهة مثل هذه الأفعال وتصورهم في نفس
الوقت قادرين على الحق المير ، كم جلبوا على أنفسهم من توجع ، وكم
سبوا لنا من جروح ولأولاد أولادنا من دموع ! انه ليس من الايمان
في شيء أن تلثم رأسك وأن تولى وجهك صوب حجر وتقرب من كل
مذبح وتقع على الأرض مغشيا عليك وتنثر القرايين أمام تماثيل الآلهة
وترش المذابح بدم الوحوش وتصل القسم بالقسم . كلا . انك لتكون
أكثر ايمانا لو استطعت أن تنظر الى كل الأشياء بعقل ينعم بالأمن
والطمأنينة . »

ولقد تلقى الانسان أول درس في علم المعادن عندما صهرت نيران
الغابة الذهب والفضة والماس والحديد فأوحى اليه ذلك أن يصنع
الأسلحة والمعدات . وكانت الأيدي والأظافر والأسنان والحجارة
وفروع الأشجار أسلحته قبل أن يعرف المعادن . ثم عرف اللهب والنار .
وركب الانسان الخيل قبل أن يخترع العجلات الحربية . وأدخل
القرطاجيون القيلة في الحروب . عرف الانسان الكساء المربوط بعضه
الى بعض قبل أن يعرف الثوب المغزول ، فما كان من الممكن أن يصنع
نولا قبل أن يكتشف الحديد . وقد تولى الرجال الغزل أول الأمر ثم
تخلوا عنه الى النسوة بعد ذلك ، وتحولوا الى العمل بالحقول . وتعلم
الانسان من الطبيعة بذر الحب والتطعيم . ودفع الامتداد التدريجي
للزراعة بالغابات الى أعلى التلال فتكون ما تتمتع به اليوم من مناظر
طبيعية باسمة . وكانت الموسيقى أول الأمر محاكاة لغناء الطيور وضمير
الرياح . وتعلم الانسان من الشمس والقمر انتظام الفصول وبدأ كيف
عمله وفقا لها . ثم توالى المدن المسورة والملاحة والمعاهدات والتعنى

بالأعمال المجيدة ، كل في دوره . « وتضافرت الملاحة والفلاحة والجدران والقوانين والأسلحة والطرق والملبس وكل ما شابه ذلك ، وكذلك الجوائز وكافة مباحج الحياة ، الأشعار والصور ونحت التماثيل ، وكل نواحي الفصاحة ، تضافرت كلها جنبا الى جنب مع المعرفة التي اكتسبها العقل الدؤوب ، على تعليم الناس تدريجيا أثناء تقدمهم خطوة اثر خطوة . وهكذا يلقي الزمن تدريجيا بالأشياء أمام عيني الانسان ثم يرتفع بها عقله الى الضوء . فالأشياء لا بد وأن يغمرها الضوء واحدا بعد آخر وفي ترتيب مضبوط في شتى الفنون الى أن تبلغ هذه أوج تطورها . »

والكثير من القسمات الرئيسية لهذا المخطوط لعبت دورها ، وربما لا تزال تلعب دورا ، في نمو علم التاريخ . ويجدر بنا ألا ننسى الأهمية الجوهرية المتصلة بتحقيق الاختراعات الفنية العظيمة . ان الكثير من التاريخ لا يزال في حاجة الى أن تعاد كتابته في ضوء هذا المفهوم . ويجدر بنا ألا ننسى أيضا الرأي القائل بأن العلم محاكاة للطبيعة يتعلم بها الانسان أن يسيطر على البيئة الطبيعية بما يتفق وصالحه . وجدير بالذكر أيضا أثر اعتماد الحياة الثقافية والمعنوية للانسان على ما يحيط به من ظروف . فالتحكم في النار جعل من الانسان حيوانا اجتماعيا ، والمجتمع أنتج اللغة . ولقد مكنت العبارة البدائية زوجين متحابين من أن يتقاسما كوخا واحدا ، وبدأ الحب الزوجي والأبوي ينمو . غير أن العملية لها تناقضاتها الفطرية ، فالنار التي تجعل المدنية ممكنة تضعف من الانسان بدنيا ، واكتشاف الملكية والمال مثلا يدفعان بالمجتمع الى الاضطراب ، والدين على ما يبدو به من عناصر الصدق مشوب بالخطأ الناجم عن الجهل بالعلم ، الى جانب استغلاله بقسوة من جانب الحكام لكي يحتفظوا بسلطانهم (ارجع الى الجزء الأول) . وأخيرا ، هناك ادراك أن التاريخ

يتبع القوانين بقدر « ما يجب أن تتكشف الأشياء واحدا بعد الآخر في مختلف الفنون » .

توصف قصيدة لو كرتياس أحيانا بأنها كتاب تعليمي دقيق في الفيزيكا الذرية . وسيعتبر أصحاب هذا الرأي أنني أسأت عرض القصيدة اذ ركزت الاهتمام على الجزء الذي يرسم التقدم الانساني .. غير أنني لست مخطئا فالقصيدة في جوهرها تحليل للتاريخ والمجتمع البشريين . وكان لو كرتياس يربط بينهما وبين تاريخ العالم الفيزيقي . وتهدف القصيدة أساسا الى اظهار الأثر الاجتماعي والنفساني لتأثير الانسان في الطبيعة ولمعرفته أو جهله بها ولأكاذيبه بخصوصها .

وتقف هذه القصيدة بمعزل من الأدب الروماني . وربما كان الغرض منها اثبات آراء الفريق المهزوم من الفلاسفة القدامى . فقد ثبت أن أفكارها الأساسية المستقاة من عهد ما قبل سقراط لا تتفق وتطور المجتمع القديم أو انهياره . درس فيرجيل في شبابه أبيقور دراسة عميقة وكان دائم التغنى بقصيدة لو كرتياس . غير أنه تخلى عن آرائهما أثناء تحوله الى أن يصبح شاعر الاصلاح الأوغسطيني . عندئذ أصبحت العناية الالهية ميدان بحثه . وصار تاريخ الانسانية وقفا على المعجزات والنبوءات . وكانت الفنون الأساسية للحياة تعرض كوحى الهى . وفسر حظ الانسان السئ كتدبير قصده الاله ليديره معنويا وثقافيا . ولكن بالرغم من أن أفكار لو كرتياس كانت مستقاة من أيونيا وتحمل بعض مميزات عصر كان الناس فيه لم يفقدوا بعد الثقة في قدرتهم على تشكيل مصيرهم ، الا أن هذا لا يعنى أنه هو الآخر كان مثلهم . فهو بحكم أبيقوريته يرى أن الفلسفة الطبيعية وسيلة لمحاربة أسطورة الدين السياسى ، غير أنه كأي أبيقورى أصنيل قنع بالابتعاد عن الوسائل

الخارقة للطبيعة ، ولم يعد يهتم في شيء أن يتبين التفسير الحقيقي لظاهرة من الظواهر بين ما لها من مختلف التفسيرات الطبيعية المحتملة. بل ان الحاجة الى اثبات صدق نظرية ما عن طريق التطبيق لم تغير من موقفه ، ذلك لأنه كأبيقورى يسعى لأن يجعل الحياة محتملة ، كان يحبذ طريق العودة الى البساطة البدائية على أى طريق فيه هجوم فنى عظيم على الطبيعة . لقد عاش في مدينة محتضرة حجب فيها الأفق كل أمل في اصلاح جوهرى وأعتقد أن العالم قد بلى وأنه سرعان ما ينتهى نائرا ذراته المفردة في الفضاء . كانت أفكاره صدى لعالم أكثر نبلا غير أنه ميت . وفي خجله من عالم التحايل السياسى الذى عاش فيه ، كان يحلو له أن يضى على الفلاسفة الماديين القدماء صفتى « الجسد » و « القدسية » .

فيتروفياس

غير أن العالم لم ينته ، وظل الرومانيون يأخذون عن الاغريق فلسفتهم ، وكذلك فنونهم العملية . ويتجلى دور الرومانيين في اختيار المصادر الاغريقية وإعادة تنظيمها في البحث الذى كتبه فيتروفياس « عن العمارة » . ولقد كتب هذا البحث لأوكتاف قبل أن يلقب بأوغسطس في ٢٧ ق.م . ، وهو أشمل مما يدل عليه عنوانه . وتتناول أجزاءه العشرة المبادئ العامة للعمارة وارتقاء البناء واستخدام المواد وأساليب المعابد المختلفة . (الأيونية والدوريقية والكورينية) ، والمباني العامة (المسارح والحنامات والموانئ) ، ومنازل المدن والريف والزخرفة الداخلية وموارد المياه والمزاويل والساعات والهندسة الميكانيكية والهندسة العسكرية . وأغلب الظن أن هذا المؤلف الشامل المنظم

كان جديدا . وقد ذكر المؤلف في مقدمة الجزء السادس (الفقرة ١٢) أسماء اثني عشر معماريا اغريقيا ممن صمموا مشروعات شامخة وأنشؤوها ووصفوها كتابة ، كما ذكر أيضا (الفقرة ٨٤) أسماء اثني عشر اغريقيا ممن كتبوا في الميكانيكا . ومن المؤكد أنه لم يفعل ذلك لمجرد الرغبة في استعراض سعة معلوماته ، إذ أنه درس بتفهم بعض أعمالهم أو كلها . ولئن كانت دراسته غير وافية فحسبه أنه انكب عليها بكل ما أوتي من جهد وحسبه أيضا أن كان من العزم والمقدرة بحيث قام بنقل مثل هذا العمل الأجنبي الصعب والمتنوع الى كتيب عملي مناسب « لرؤساء العمال ومديري الأعمال » . يشكو برجس من أن التاريخ أغفل المعمارين . ونحن نعرف أسماء المعمارين المصريين ، ونقوشهم المليئة بالزهو . غير أننا لا نعرف أسماء المعمارين من أرض الجزيرة ، ولا نعرف شيئا عن المعمارين العبرين أو الكريتيين . أما المعماريون الاغريقون فلدينا أسماء الكثيرين منهم وإن تكن أعمالهم قد ضاعت . وأيا كان الأمر فاعتقادنا أن أدب العمارة لم يبدأ الا بفيتروقياس . ولا يرجع ذلك الى المصادفة التاريخية بقدر ما يرجع الى أن العمل نفسه جدير بذلك لوضوحه وترتيبه وفائدته العملية .

من محاسن فيتروقياس أنه يضمن كتاباته لمحات من تاريخ حياته وطبيعته البسيطة النقية فهو يقول مثلا (في الكتاب السادس ، المقدمة ص ٣ و ٤) انه بينما تحتم قوانين الاغريق على الأبناء أن يعولوا آباءهم تشترط القوانين الأثينية لذلك أن يكون الآباء قد علموا أبناءهم فنا أو حرفة ما . ثم يضيف : « واني لشاكر جدا لوالدي قبولهما القانون الأثيني . لقد علماني فنا لا يكتسب الا بتدرب واسع على الفنون الحرة . ألا شكرا لهما ولأساتذتي أن علموني علما غزيرا وأن ضرت

ابفضلهم قادرا على تذوق الفن والأدب وأن أصبحت أنا. تسمى مؤلفا. » .
وان مؤلفاته لتشهد باتساع مداركه ومعارفه وبلطف ذوقه ، وهى مصدر
هام من مصادر معرفتنا بالعلم والمدنية القديمين .

ان عليك أحيانا أن تبحث عن آراء فيثروقياس بين سطور ما يكتبه ،
فهو مثلا (الكتاب الأول ، ص ٢ ، ٧) يوصى باختيار مناطق صحية
وموارد مياه مناسبة ، وذلك حيث تنبى المعابد ، وعلى الأخص معابد
الاله أسكولاياس والاله الصحة القادرين على شفاء عدد كبير من المرضى.
ذلك أن المرضى اذا انتقلوا من مكان غير صحى الى آخر صحى واذا
عولجوا بماء ينبع من عيون تمنح الشفاء ، فسرعان ما سيبرءون من
أمراضهم . وبذلك يعلو قدر الاله ويزداد احترامه بينما الفضل فضل
طبيعة الموقع . وفى فقرة أخرى (الكتاب الفصل السادس ، ص ٢)
يولى ظهوره فى تأدب وفى تشكك رزين ، الى التنجيم الذى كان اذ ذاك
خرافة سائدة . . .

وصفنا فى آخر الفصل السابق كيف كان العلم الاغريقى ، وهو فى
ذروته أيام ثيوفراستاس وستراتو وأرشميدس ، حازما فى اعتناقه فكرة
التجربة . ويصور لنا فيثروقياس استمرار هذه الفكرة وكذلك التزعزع
الذى أصابها . فهو يورد فى مقدمة الكتاب الرابع ، فقرة من أشهر فقرات
كتابه ، وهى التجربة التى ساقى أرشميدس الى اكتشاف الثقل النوعى ،
ثم يعود فى مكان آخر (الكتاب السابع ، الجزء الثامن ص ٣) فينصح
بتكرار التجربة مع استخدام الزئبق ، فان حجرا يزن مائة رطل سوف
يطفو على سطح الزئبق بينما تغوص قطعة صغيرة من الذهب ومن هنا
كان لابد لنا أن نستنتج أن ثقل شيء ما لا يتوقف على وزنه بل على

طبيعة مادته . غير أن الدعوة الى التجربة كثيرا ما كانت تهدف الى تصوير رأى سبق وأن تقرر فعلا ، وليس ما يمنع من أن يكون رأيا خاطئا . ويزودنا فيثروقياس بمثال لذلك فى الكتاب الأول ، الفصل السادس ، ص ١ ، ٢ حيث يناقش مسألة اختيار موقع لاقامة مدينة على أساس نوع الرياح التى تهب فيه . ومن رأيه أن مدينة ميتلين رغم فخامة بنائها أقيمت فى مكان غير مناسب «فالناس فيها يمرضون كلما هبت الرياح الجنوبية ويسعلون اذا هبت الرياح الشمالية الغربية . أما اذا هبت الرياح الشمالية فانهم يشفون ولو أنهم لا يستطيعون عندئذ ، نظرا لشدة البرد ، أن يخرجوا الى الأزقة والشوارع » . وقد أدت به هذه الملاحظات الممتازة الى أن يبحث طبيعة الرياح . ولكنه لا يعرف أن الرياح مجرد هواء يتحرك فهو يظن أن هناك شيئا جديدا أضيف الى الهواء الموجود « فالرياح تنتج عندما تتقابل الحرارة مع الرطوبة فيتولد عن اندفاع الحرارة تيار شديد من الهواء . وانها لحقيقة نستطيع التثبت منها بواسطة كرات برونزية خاصة ، تمكنا من أن نكشف عن حقيقة الهية خبأتها قوانين السماء . وهى كرات برونزية مجوفة بها فتحات صغيرة فاذا ملئت ماء ووضعت بجوار نار فان يخرج منها نفس حتى تسخن ، غير أنها اذا بدأت تغلى خرجت منها لفحة قوية بسبب الحرارة . انها تجربة صغيرة وسهلة ولكنها تدلنا على ما للسماء من قوانين جبارة وعجيبة كما تدلنا على طبيعة الرياح » . وجدير بالذكر أن هذا الخطأ الذى ثبت « بالتجربة » استمر سائدا حتى الأزمنة الحديثة ، ففي القرن الثامن عشر اهتدى الرحالة المثقف تين راين ، وكان عالما مشهورا من علماء عصره ، اهتدى الى المصدر الذى « يصب »

الرياح الجنوبية الشرقية الجبارة اذ وجده في السحاب فوق جبل المائدة
برأس الرجاء الصالح .

والواقع أن هذه « التجربة » ليست تجربة على الإطلاق فما هي
الا حجة قائمة على القياس . . وهناك مثال أعجب لسوء تطبيق مثل
هذا النوع من الحجج ، ففي الكتاب السادس ص ١٥٥ و١٦٠ يقبل
فيتروقياس دون مناقشة رأيا كان سائدا في زمنه هو أن أبناء الشمال
ذوو أصوات عميقة بينما الجنوبيون ذوو صوت أجش ، وهو يتصور
أن هذه الظاهرة الانسانية راجعة الى تركيب العالم . كان لدى الاغريقين
آلة وترية مثلثة تسمى السامبوكا ، واذا رسمت دائرة الأفق بقطر يقطعها
من الشمال الى الجنوب ومسدت خطا مائلا من الجنوب الى النجم
القطبي « فانك ستبين بوضوح أن العالم مثلث الشكل كالسامبوكا » .
فاذا تخيلنا أن أطول وتر في آلة العالم هذه هو خط رأسى أسقط من
النجم القطبي الى القطر وأن باقى الأوتار المتوازية تزداد قصرا كلما
ازدادت قربا من الجنوب ، فأننا سندرك بالقياس لماذا يزداد صوت
الانسان عمقا كلما اتجهنا صوب الشمال ! .

هناك فقرتان آخرتان تستحقان الذكر من هذا الكتاب الغنى بمادته
لمن يشاء من مؤرخى أى فرع من فروع العلم القديم ، وذلك بخلاف
قيمه كمرجع عملى للعمارة . يتناول الكتاب الثانى ، الفصل الأول
ص ١ - ٨ ، التطور الثقافى للانسان الأول فيذكر اكتشاف النار
وأصل الكلام ، ثم يهتم بارتقاء العمارة . والفصل الخاص بالموضوع
الأخير من الفصول الهامة بالنسبة لعلم الانسان ، وفيه يشير الى البناء
المعاصر فى بلاد الغال وأسبانيا والبرتغال وأكوتين ويقارن بين عمارة

الكولشييين في بونتاس « حيث الغابات متوفرة » وبين عمارة الفريجييين
« الذين يعيشون بأرض منبسطة لا غابات عليها ومن ثم يعانون نقصا
في الأخشاب » . وفي الفصل التاسع من نفس الكتاب يناقش ، على أساس
معلومات استقاها من ثيوفراستاس ، صلاحية شتى أنواع الخشب
للبناء . واليك بعض ما كتبه عن اعداد الخشب الناضج : « قبل أن تقطع
الشجرة اضرب الجذع غنيقا ودعه يخرج عصارتها كلها . بذلك تتخلص
من السائل عديم النفع دون أن تصيب الخشب بضرر . عندئذ وعندئذ
فقط اقطع الشجرة فانها ستكون على أحسن حال » . وليس بعيد أن
تكون هذه الطريقة طريقة قديمة جدا ، ففي الأوديسه يقود كاليبسو
أوديسيوس الى مكان يستطيع أن يقطع فيه خشبا ناضجا لقاربه . ويعجب
صامويل بتلر أشد العجب لفكرة الخشب الناضج حتى انه ليعدها مثلا من
أمثلة الجهل بشؤون الرجال وحتى انه يعتقد أن الأوديسا انما كتبها
امرأة .

وفي الفصل الخاص باضمحلال التصوير الجصى (الكتاب السابع ،
ص ٥) تتجلى جدارة فيثروقياس في أمور الفن وهو فصل يتفق في لطف
مشاعره مع الطبيعة المتواضعة العملية لمؤلفه .

فروتيناس

يتميز مؤلف فروتيناس عن موارد المياه لمدينة روما بالطابع العملي
في أقصى صورته . كان سكتاس يوليوس فروتيناس رجلا محنكا اعتاد
تحمل أرفع المسئوليات . وبعد أن عمل قنصلا لفترة ما عين حاكما
لبريطانيا حيث انتصر على السيلوريين وبيثنهم القاسية . وفي عام ٩٧ م عينه
نيرفا مديرا لشئون المياه وكان عندئذ مؤلفا ذا خبرة ، ولا بد أنه كتب

« فن الحرب » الذي فقد و « الخدع الحربية » الذي لا يزال باقيا ، كتبهما في الفترة فيما بين رجوعه من انجلترا وتقلده منصبه الجديد . وما ان ألم الماما كافيا بالمعرفة اللازمة لمنصبه الجديد حتى لا يضطر ، كما خزع هو ، أن يعتمد على نصيحة رؤوسه ، وما إن صار نجاحه ملموسا ، حتى وضع دراساته وخبرته في مؤلف صغير ممتاز عن تزويد روما بالمياه . ومن مزايا هذا الكتاب خلوه من التعميق فهو يدع الحقائق تتكلم وحدها . انه يذكر أن الرومانيين ظلوا أربعين سنة وواحدا وأربعين عاما - أي منذ شيدت روما - وهم يشربون من التير ، غير أن لديهم اليوم قنوات أخرى تزودهم بالماء القريب والبعيد . هذه القنوات هي : الأبيان والآنيو القديم والمارشيا والتيو لا والجوليا والفيرجو والألسيتينا أو الأوغسطة والكلوديا والآنيو الجديدة . ثم يستطرد فروتينيوس فيذكر التفاصيل الجوهرية التالية : أطوال القنوات والأعمال البارزة مثل خزان قناة آنيو الجديدة ، وطبيعة الموارد المختلفة (فأوغسطة مياهها ضارة وغير صالحة للشرب) ، وكيف أن مياه جوليا نهبت عن طريق أنابيب سرية وفرعية ، وكيف اكتشفت هذه المواسير ودمرت . ثم ينتهي بقوله متأملا : « ولك أن تقارن اذا أحبت بين مثل هذا العمل النافع الذي لا غنى عنه وبين الأهرامات العاطلة أو الأعمال الاغريقية التي لا تنفع بشيء رغم شهرتها » . وهو تعليق جدير بالذكر ولو أن قيتروفياس ما كان ليستهن هكذا بمعابد الاغريق !

ومن المحتمل ، كما يرى آخر ناشر لفروتينيوس ، أن الكتاب لم يقصد به الفائدة الإدارية فحسب ، وأن هدفا سياسيا كان وراء تأليفه . وربما كان هذا الهدف هو تأييد نيرفا في سياسته التي كانت تستهدف

اضطافة سلطة الرجال المحزرين في الدولة وتقوية نفوذ الشيوخ . وعلى كل ، وأيا كان الغرض من تأليفه فلن ينقص ذلك من اهتمام فروتيناكس بالمصلحة العامة أو من كفاءته . والحق أن الانسان نادرا ما يصادف بين الكتب القديمة كتابا كهذا يتناول بمثل هذا الاتقان فرعاً من فروع العلم التطبيقي ، فنحن نقرأ فيه عن تصميم للقنوات سهل حساب تفقات الضيافة ، كما نقرأ عن الذين شيدوا هذه القنوات ، والتواريخ والموارد وأطوال القنوات وارتفاعاتها وحجم المورد وعدد الخزانات ونوع الماء والغرض الذي يصلح له ويهتم فروتيناكس بشكل خاص بالعدادات والميازيب التي تسهل حساب سريان المياه ، فنسمع عن عدادات ذات أحجام خاطئة وأخرى لا تحمل الخاتم الرسمي . ويحس فروتيناكس تماماً بصعوبة الحساب غير أنه يقول : « اذا كانت المياه في عدادات الامداد أقل منها في عدادات الاستقبال ، فمن الواضح أن هناك احتيالا لا خطأ » . ولم يكن يسمح بأى منهما . وكتاب « المياه » يتناول العلم التطبيقي فقط وليس له من المميزات ما يؤهله لأن يذكر في تاريخ العلوم مثل ما لكتاب « العمارة » الذي رغم كونه لا يتعدى حدود العلم التطبيقي الا أنه غنى بالتأمل في النظرية التي بنى عليها التطبيق . غير أننا الآن في عصر تزايد فيه الشعور بواجب خدمة الشعب حتى ليكاد أن يصبح جزءاً من المفهوم الحديث للعلم . وكتب فروتيناكس أفضل مثال للعلم في خدمة الشعب . انه يصور شعوره بما يمكن أن يؤديه العلم للجنس البشرى من خدمات تصوريا جسيلا في قوله الصريح البسيط « ان أثر هذا الاهتمام من جانب الامبراطور نيرفا ، أكثر الحكام قربا من الشعب ، يزداد وضوحاً يوماً بعد يوم فيما يتعلق بصحة المدينة .. حتى الماء الفائض عن الحاجة لا يضيع هباء .. وقد نظفت

المدينة وتغير منظرها . وازداد الجو ثقاء وزالت أسباب الجو الآسن
الذى سبب للمدينة سمعة سيئة في الأجيال السابقة »

سلساس

يرى بعض المؤرخين أن كورنيليوس سلساس الذى خلف لنا
أفضل مؤلف جامع عن الطب عند القدماء هو المثل الأعلى لقدرة الرومان
على هضم علم الاغريق وتنظيمه ، وهذا خطأ ، فإن مواهبه لا تتعدى
كونه صاحب أسلوب ساحر . وكتاب « في الطب » الذى وصلنا حاملا
اسمه ليس من وضعه ، فهو ترجمة لكتاب تيتاس أوفيدياس الصقلى
الذى كان يكتب بالاغريقية . وكان الطب الاغريقى قد ذاع فى روما
فى النصف الأول قبل الميلاد بوصول أسكليبيادس الطبيب البشاني
اللامع . وكان أوفيدياس تلميذا من تلاميذته الممتازين . وظل الدين
الذى يدين سلساس به لأوفيدياس غير معروف حتى كشف عنه الكاتب
الحديث ف . ماركس . يقول صمويل بتلر انه قد يحدث أحيانا أن يغفل
مؤلف من المؤلفين ذكر ما يدين به لغيره مع ثقل هذا الدين . وهو قول
ينطبق مع الأسف على سلساس ، فهو يذكر أسكليبيادس وحواريه
تيميسوس ويغفل ذكر أوفيدياس . وهكذا احتال على أن ينال هو شرف
المؤلف الممتاز الذى يحمل اسمه ، وكان أجدر بسمته أن يقنع بأن يعرف
كمترجم وصاحب أسلوب ممتاز ، فما من أحد يستطيع أن ينكر عليه
هذه الصفة ، وهو كما سباه سير كليفورد ألبرت خالق اللاتينية العلمية :
وسلساس فى رأى الكتاب الرومانيين رجل ذو موهبة عادية ، وقد
كانوا يعلمون قطعا أنه مترجم فقط . غير أن ذلك لا يمنع أنه ذو عبقرية
معينة نادرة ، فأسلوبه أسلوب ثقافى حقا ، وتتجلى عظمته فى تمكنه من

تاريخ موضوعه ومعرفته لما يتضمنه من قدرات ، وفي تعلقه بأنبال التقاليد
في عمله ، وفي حرصه على أن يوفي كل ذي حق من الأطباء السابقين حقه ،
واستعداده لأن ينقد كل من يستحق النقد من معاصريه . انه في عدله
وجبراته انما يعكس ضميره الخي . وقد أسهم في الطب بقدر عظيم ،
أعظم مما قد يبدو لأول وهلة . وفي رأيه أنه ليس ثمة قاعدة تصلح لأن
تكون قاعدة عامة ، فهو مثلاً لا ينكر فوائد الانزاف والمسهرات
والمقيثات والتدليك غير أنه يصر على أن حالة المريض هي وحدها
التي تقرر الى أي مدى ولكم من الوقت تستخدم إحدى هذه الوسائل .
وفي ذلك تأكيد بالغ لأهمية الكشف الاكلينيكي . كان المرضى كتبه ،
وكانوا هم — لا الأمراض — موضع دراسته . لقد كان من كبار
المعالجين . وهو في انسانيته وتكامله الثقافي واحترامه لفن صنو
لأبوقراط من السلف وللكبار الاكلينيكين في الأزمنة الحديثة . واليك
فقرة تصور هذه الصفات .

« هذا وصف كامل للحيات . تختلف طرق العلاج باختلاف الأئمة .
فأسكلييادس يرى أن تحقيق علاج واف وبشكل سريع لطيف مهمة تقع
على عاتق الطبيب ، وهذا أمر مستحب غير أن اللهفة في مثل هذه الأمور
قد لا تخلو من ضرر فإن علينا أثناء اعادتنا المريض الى حالته الأصلية
من الصحة أن ندرس ، عند كل مرحلة من مراحل العلاج ، الطريقة
التي تضمن أقصى درجة من الأمان والسرعة والسرور .

ان أول نقطة تستحق منا البحث هي علاج المريض في الأيام الأولى
من مرضه . وقد حاول الأطباء القدامى تقوية الهضم خوفاً من أن يصيبه
عسر وذلك بوصف أدوية معينة ، ثم حاولوا عن طريق التبرز عدة مرات .

تخليص الجسم من المواد الضارة . ثم جاء إسكليپادس فتخلّى
عن الأدوية ونصح بالاقبال في استعمال المقيّات وإن كان قد لجأ
إليها في كل مرض دعى لمعالجه . وكان من رأيه أن تستخدم الحنى
نفسها كالعلاج الأساسى للحنى ، وظن أن قوة المريض لا بد وأن تضعف
إذا عرض للضوء الشديد أو اتّابه الأرق أو الطبا . ولم يكن يسمح
في اليوم الأول من المرض حتى بفصيل الوجه . وكان مخطئا في ذلك .
وفاقه خطأ هؤلاء الذين اعتقدوا أن ذلك شيء سار ، فالواقع هو أنه بينما
كان يلبس لباس الجلاء في الأيام الأولى من المرض كان في الأيام الأخيرة
منه يشجع نزوات المريض . أما أنا فأرى ألا يلجأ إلى العقاقير والافراغ
إلا نادرا ، وعلى ألا تنقص من قوة المريض ، لأن الضعف هو الخطر
الأساسى . وعلى هذا يجب التخلص من الكميات الفائضة من الغذاء في
الجسم ، ويحدث ذلك عن طريق الهضم الطبيعى إذا لم يتناول المريض
كميات جديدة من الغذاء . وهكذا يجب أن يتمتع المريض عن الأكل في
الأيام الأولى ، كما يجب أن يظل في الضوء أثناء النهار إلا إذا كان
ضعيف البنية . أما من حيث العطش والنوم فيجب أن يصحو المريض
نهارا وينام ليلا إذا كان ذلك في مسوره . ومن الممكن أن تُجنب
المريض عذاب الظمأ دون أن نسقيه وذلك بغسل شفّتيه ووجهه إذا
جفت وتآلم هو من جفافها . وقد كان أراسيستراناس مخطئا في قوله أنه
ينما يحتاج الفم والخنجرة عادة إلى السوائل لا تحتاج الأجزاء الداخلية
إليها وإنه ليس هناك داع لأن نجعل المريض يتعذب . هذا ما يجب أن
يكون عليه العلاج في الأيام الأولى من المرض .

ان أفضل دواء هو طعام يعطى في الوقت المناسب ، فبما هو الوقت
المناسب ، جرده كثير من القدماء باليوم الخامس أو حتى السادس

من أيام المرض . وقد يسمح نحو آسيا أو مصر بذلك : وكان أسكليبيادس :
يسمح بإطعام المريض في اليوم الرابع بعد أن يكون قد عذبه بشتى
الطرق ثلاثة أيام . أما تيميسون ، أحد الأئمة القريسي العهد ، فكان
يسمح بالأكل بعد يومين من توقف الحمى أو خفة حدتها بصرف النظر
عن موعد بدئها . فهو لا يمنع الأكل حتى تحدث حمى ، فإذا حدثت
فحتى تتوقف ، فإذا لم تتوقف فحتى تخف حدتها . غير أنه لا يوجد
بين كل هذه القواعد ، قاعدة واحدة عامة ، قاعدة تصلح في كل الظروف ،
فمن الممكن أن يأكل المريض ابتداء من أول يوم أو ثانى أو ثالث يوم ،
ومن الجائز أن يمنع عن الأكل أربعة أيام أو خمسة ، ومن الممكن أن يأكل
بعد نوبة واحدة من الحمى أو بعد نوبتين أو بعد عدة نوبات . فالعوامل
المحددة هي دائما طبيعة المرض وحالة الجسم والمناخ وعمر المريض
والفصل المناخى . ولا يمكن والظروف على هذا القدر من التنوع ،
أن توجد قاعدة عامة . فإذا كان المرض من الأمراض التى تنهك المريض
أو كان المناخ مما يساعد على الهضم فلا يجوز التأخر في إطعام المريض ،
بمعنى أنه ليس من الصواب أن يمنع مريض في افريقيا عن الطعام ولو
ليوم واحد . والطفل يسمح له بالأكل قبل الشاب وفي الصيف قبل
الشتاء . ان القاعدة العامة الوحيدة التى تصلح لكل زمان ومكان هي
أن يجلس الطبيب ، من وقت الى آخر الى جانب مريضه ويمتنح قوته
فإذا ما وجد به قوة تركه يحارب المرض جائعا ، حتى اذا ما بدت طلائع
الضعف أسعفه بالطعام . ان واجب الطبيب ألا يثقل على المريض
بالأكل الكثير وألا يضعفه بالجوع الشديد . وهذا أمر لم يغب عن
أزاسيستراتاس . فهو بالرغم من أنه لم يوضح بشكل كاف كيف يعرف
المرء أن الضعف بدأ يتسرب الى المعدة أو الجسم ، إلا أنه قال بوجوب

ملاحظة هذه النقطة قبل السماح بالأكل . وفي هذا نبأ يبرز بوضوح أن الأكل لا بد أن يمنع طالما كانت هناك بقية من قوة وأن الحيطة ضد تداعى قوة المريض أمر واجب . وهنا تظهر نقطة أخرى وهى أن طبيباً واحداً لا يمكنه أن يياشر عدداً من المرضى فالطبيب المثالى ، الطبيب الذى يحترم فنه ، هو ذلك الذى لا يترك مريضه أبداً ، أما ذلك الذى يسعى وراء الربح فهو ، لعلنه أن مكاسبه تزداد بازدياد عدد مرضاه ، يستبشر بالانتماء الى مدرسة لا تطلب مثل هذه الرعاية المستمرة . ان الحميات مسألة تستحق البحث . وحتى أولئك الذين لا يرون مرضاهم الا لما لا يصعب عليهم أن يعدوا الأيام والنوبات . غير أنك اذا أردت أن ترى الشيء الوحيد الذى يهم حقاً ، اذا أردت أن تحول دون أن تقضى قوة المريض فان عليك أن تلازمه .

ولا يتسع المجال لوصف أشمل لهذا الكتاب ، فنحن لم نقتبس منه سوى صفحتين من أربعمائة صفحة . وقد اخترناهما لما تحويان من فائدة ، غير أنهما أيضاً تصوران بدقة الطبيعة الممتازة للكتاب كله . والكتاب بالاضافة الى ذلك متوازن . وقد أسقط منه سلساس بعض نواحي الموضوع كما عالجها أوفيدياس ، وعلى الأخص الفصول المتعلقة بسبب المرض . وبالرغم من ذلك يعد أفضل وأشمل كتاب وصلنا من العالم القديم عن صيانة الصحة واستعادتها . ومن المرجح أن أوفيدياس يبرز فى النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد أما الترجمة فتمت فى عهد تيبريوس فيما بين عامى ٢٠ و ٤٠ م .

ومن الانصاف لسلساس أن نذكر أن المؤرخين لا يتفقون جميعاً مع ماركس فى رأيه القائل بأن « عن الطب » هو تكييف لمصدر واحد ،

فان ولان مثلا نشر في « بولى - ويسوما » في عام ١٩٠١ أن الكتاب
توليف لعدة مصادر ، كما أن سير كليفورد ألبوت لا يزال يرى نفس
الرأى في مؤلفه « الطب الاغريقى في روما » عام ١٩٢١ . وهو
يستعمل كلمة « توليف » بما يوحي أن سلساس أسهم بقسط وافر في
العمل ، ككاتب لا كطبيب طبعا . وعلى أية حال يجب ألا ننسى أن «عن
الطب » ليس سوى الجزء الرابع من مؤلف موسوعى صمم وفق خطة
شاملة رسمت لتحيط بالحياة كلها . والأجزاء الأربعة هي الزراعة
والطب والخطابة وفن الحرب . والجزءان الأولان يتناولان الحياة
الجسمانية للانسان بينما يتناول الأخيران حياة الانسان كمواطن . فن
الزراعة يزوده بسبل الحياة بينما الطب يزوده بالحياة السليمة ، أى أن
الطب يحى ما تخلقه الزراعة . وكذلك الخطابة ، بمعناها الشامل في
ذلك العصر ، توفر للمواطن تدريبا كاملا على فنون الحياة المدنية ، أى
أنها تخلق الحياة المدنية التى يقوم الفن العسكرى بحمايتها . ومن ثم
لا يمكن لنا أن نتكر أن المؤلف ككل يعد خلقا جديدا قائما على عديد
من المواد الاغريقية ، ومصدرا لما تميز به الرومان من ابداع التنظيم
والتصميم . وهو يفوق موسوعة قارو التى سبقته من حيث الاهتمام
بالناحية العملية فان لودغية قارو الخارقة أنتجت دائرة من تسعة
موضوعات لو أن أحدا ألم بها لكان ذا معارف أكاديمية نادرة . ويبدو
أن سلساس كان أقل اهتماما بالثقافة ، وكان همه أن يزود جيله بزيادة
الفنون الأساسية التى تقوم عليها حياة الفرد والمجتمع . ان مؤلف قارو
أشبه شىء ببرنامج لكلية فنون بجامعة ما ، أما سلساس فقد زودنا
بكتب موجزة لأربع مدارس مهنية .

پلينى

عندما تنتقل من قارو وسلساس الى پلينى ، ثالث الموسوعيين الرومان
العظام نجد أن من الصعب الى حد ما تحديد طبيعة عمله . فقد نظر
اليه الباحثون فى العصور الحديثة من عدة زوايا ، فبوفون العالم
الطبيعى الفرنسى الكبير (١٧٠٧ - ١٧٨٨) يقدره أكثر من قدره
وان كان لا يتعدى الحقيقة بقوله أن « عمل » پلينى يتناول جميع
العلوم الطبيعية والفنون الانسانية ويقول عن « المؤلف » ان « لديه
تلك القدرة على تبنى الآراء الكبيرة التى توسع العلم » ، وانه « يثبت
فى قرائه نوعاً من حرية الروح وجرأة الفكر ، تلك هى بذور الفلسفة » .
ولابد لمؤلف كهذا يبحث فى كل العلوم والفنون ، مؤلف كتبه رجل
واحد ، لابد له أن يكون غير مستوفى طبيعته ومملاً للقارىء بسبب تعدد
موضوعاته . يمتدح پلينى الصغير كتاب عمه بقوله « انه لا يقل تنوعاً
عن الطبيعة نفسها » . وعلى أية حال ولو أنه من الصعب أن ترى الخشب
وتظن أنك رأيت الشجر فان تصميم المؤلف لا يخلو من نظام وعظمة .

وقد وضع ليتريه ، الفقيه اللغوى الشهير ، وحوارى كومت ، وناشر
مؤلفات أبوقراط ، وضع أفضل مؤلف كتب عن پلينى حتى الآن . واليك
ما يقوله عن الخطة التى سار عليها كتاب « التاريخ الطبيعى » . يبدأ
المؤلف بذكر آراء عن العالم ، الأرض والشمس والكواكب ، والخواص
البارزة للمناظر ، ثم ينتقل الى الوصف الجغرافى لما كان يعرفه القدماء
من أجزاء الأرض ، ثم يتناول بعد ذلك ما نسميه نحن بالتاريخ الطبيعى .
تاريخ الحيوانات البرية والأسماك والحشرات والطيور . أما النبات
فينال من پلينى قسطاً وافراً ، خاصة وأنه يذكر كثيراً من المعلومات عن

القنون كصناعة الخمر والزيت وزراعة الحبوب واستعمالات صناعات أخرى متنوعة . فإذا ما فرغ من النباتات عاد إلى الحيوانات ليعدد ما تزودنا به من مواد علاجية . ويختتم الكتاب بفصل عن المواد المعدنية . وهذا الفصل أكثر فصول الكتاب منفعة ، وفيه يصف طرق استخلاص هذه المواد كما يصف الرسم والنحت عند القدماء .

هذا عن الخطة والطبيعة العامة لمحتويات الكتاب فماذا عن الكتاب بالتفصيل ؟ علم يليني نفسه بنفسه ، واستخلص مادة موسوعته من حوالي ألفي كتاب كتبها حوالي خمسمائة مؤلف معظمهم من الاغريق . ولا يبعد أن يكون الكثير مما ساقه على لسان الاغريق قد استقوه هم في الأصل من تولىفات لاتينية سابقة ، غير أن هذا ، حتى ولو صح ، لا ينقص من اتساع علمه ولا من ضخامة ما بذل من جهد . ترى إلى أى حد نجح في عمله ؟ لست أعتقد أن أحدا اليوم على استعداد لأن يخالف حكم ليتريه الذى يتسم بالعدل والعطف : « انه خال تماما من الفهم العلمى بالمعنى الصحيح للكلمة » ، غير أن الكتاب رغم هذا ذو قيمة غير عادية . يقول لين ثورنديك فى كتابه « تاريخ السحر والعلم التجريبي » انه « ربما كان أهم مرجع مفرد مما بقى لنا من مراجع لتاريخ المدينة القديمة » . ولا يرجع السبب فى هذا إلى مجرد شموله وتنوعه بل إلى الطريقة التى تناول على ضوءها الموضوع .

ولقد حدد دى بلينفيل هذا رأى الذى فطن إليه بافون فيما قبل ، حدده بشكل أدق فى كتابه « تاريخ علوم التنظيم » ، الجزء الأول ، ص ٣٣٦ . وبالرغم من أن دى بلينفيل ناقد شديد ليلينى الا أنه أورد هذا الوصف الطيب للكتاب : « انه مخزن ، كتالوج تاريخى لما فعله الاثنيان حتى ذلك الوقت بالأجسام الطبيعية » . ولا يمكننا القول (كما

أدعى فرائيس (يكون) بأن هذه النظرة منعقدة تماما في كتابات الاغريق
عن التاريخ الطبيعي فيثوفراستاس مثلا أشار أكثر من مرة الى استخدام
الخشب والحجارة في الصناعة . غير أن بلينى يتفرد بأنه جعل منها الروح
الملهمة له ، فالإنسان عنده هو حجر الزاوية وهو الذى يحدد له مادته ،
حتى انه اذا تكلم عن المعادن استطرد الى صك النقود والى الخواتم
(مع بحث فنى عن الطبقة الوسطى والفرسان فى روما) والأختام وحكم
ماكيناس لايطاليا أثناء غيبة أوكتاف . واذا تكلم عن الحيوانات انتقل
الى وصف ما يستخلص منها من مواد علاجية . وهكذا شأنه فى كل
الكتاب .

وقد صور كاتب فرنسى آخر (اجار : نقد للمؤرخين القدماء نحياء
أوغسطس وحكمه ، الجزء السابع ، ص ١٩٣) تصويرا حسنا جندة
المعلومات التى يزودنا بها بلينى أحيانا وذلك بفضل آرائه التى يضيفها :
« أكان يخطر لتاسيتاس أن يقص علينا كيف أن قوادب العصابات التى
كانت تحت امرة الرومان على الحدود الألمانية كانوا يستخدمون قواتهم
فى صيد نوع من الأوز البرى كان يستعمل ريشه فى حشو مخدات
الجنود الرومانيين ؟ أكان يخطر له أن يخبرنا أن جلود القنافذ كانت تقوم
على التعامل فيها تجارة ضخمة فى الامبراطورية الرومانية ، تجارة طلالا
سبب احتكارها المتاعب للحكومة ، وأن القوانين التى سنها البرلمان
فى هذا الموضوع فاقت فى العدد ما سن من قوانين فى أى موضوع
آخر ا » . غير أن هذه التفاصيل ، مع طرافتها ، ليست أهم ما أسهم به
بلينى فى التاريخ الاجتماعى ، فهو يفتح كتابه الثامن عشر بعرض قصير ،
ولكنه فذ ، لتاريخ ملكية الأراضى فى ايطاليا والمقاطعات . وكذا يقول
اجار ، بحق ، لئن أخطأ بلينى كثيرا فى تأريخه للفنون فانه وهو العلامة

القديم الذى عمل قنصلا وجزالا وأميرالا يعتبر من أئمة هذا النوع من المسائل الاجتماعية مما يعلى من شأن قوله الشهير « الحق أنه لم يسبب خراب ايطاليا ولن يسبب خراب المقاطعات أيضا الا نظام الضياع الكبيرة » .

ان تفتح العقل وحدة الأسلوب اللذين تكشف عنهما هذه الفقرة تتسم بهما أيضا معظم صفحات هذه الموسوعة العجيبة . ويحق لنا أن نعتبر كتاب پلبنى « التاريخ الطبيعى » مثلا احتذاه فولتير في وضعه قاموسه الفلسفى . انه يعرض آراءه في كافة المواضيع . ومن هنا كانت الحرية وكان الرقى اللذان تحدث عنهما بافون .. بل انك لتجد بها الفكاهة أيضا ، الفكاهة بالمعنى الانجليزى للكلمة . فهو يتناول أنواع المعتقدات الدينية في حديث شعرى ممتع يختتمه بالقبارة التالية « ان نواحى النقص بالطبيعة ، كما تجلت في الانسان ، ليخفف منها أن الاله — حتى الاله — غير قادر على أن يفعل كل شئ ، فالاتحار مثلا هو أفضل ما وهبنا الاله في هذه الحياة الدنيا المليئة بالمحن ، ولكنه لا يستطيع الاتحار اذا أراد . ولا يستطيع أن يجعل خالدا ما ليس بخالد ولا أن يحيى الموتى ولا أن يجعل من عاش وكأنه لم يعش ولا من احتل منصبا كبيرا وكأنه لم يحتله . ان سلطانه لا يمتد الى الماضى الا بالنسيان وانه — اذا سمح لى أن أصور زمالتنا للاله بأمثلة تافهة — لا يستطيع أن يجعل حاصل جمع عشرين رقما آخر غير عشرين ، وهلم جرا . كل هذا يكشف فى جلاء عن قوة الطبيعة وأن ما نسميه الها ليس سوى تلك القوة وانى لآمل أن أنال العفو عن هذا الزيف الذى أخشى أن يكون قد شاع بسبب ذلك النقاش الذى لا ينتهى عن الاله » . (الكتاب الثانى ، ٢٧) .

وَنُخْتِمُ خَدِشَنَا عَنْ بِلِينِي بِفَقْرَةٍ أُخْرَى تَسْتَدُ فِي بَعْضِ حُجَّتِهَا. الَّتِي
لَوْ كَرِهْتِ نَاسَ الْإِنْفِ تَمِيزَ شَخْصِيَّةَ بِلِينِي بِوَضُوحٍ : « إِنْ مَا يُقَالُ عَنْ الرُّوحِ
يَعْدُ الْمَوْتُ لَيْسَ سِوَى تَأْمَلَاتٍ فَارِغَةٍ فَبِالْمَوْتِ يَتَمَعَّى كُلُّ شَيْءٍ بِالنَّسْبَةِ
لِلْإِنْسَانِ وَلَنْ يَحْسَ جَسَدُهُ أَوْ رُوحُهُ بِأَيِّ أَحْسَاسٍ إِلَّا بِقَدَرِ مَا كَانَا يَحْسِنَانِ
قَبْلَ أَنْ يُولَدَ . إِنْ هَذَا الزَّهْوُ بِمَا يَحْتَلُهُ الْمُسْتَقْبَلُ وَالتَّخِيلُ بِأَنْ لِلْمَرْءِ
حَيَاةً أُخْرَى بَعْدَ أَنْ يَمُوتَ يَتَخَذَانِ أَشْكَالًا شَتَّى : خُلُودَ الرُّوحِ ، تَقَمُّصَ
الْأَرْوَاحِ ، حَيَاةَ الْأَطْيَافِ فِي الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ ، عِبَادَةَ أَرْوَاحِ الْمَوْتَى ،
بَلْ وَتَأْلِيهِ مِنْ لَمْ يَعْدَ إِنْسَانًا كَمَا لَوْ كُنَّا حَقًّا تَتَنَفَّسُ بِطَرِيقَةٍ تَمِيزُنَا عَنْ سَائِرِ
الْحَيَوَانَاتِ ، كَمَا لَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ تَعِيشُ أَطْوَلَ
مِمَّا نَعِيشُ وَلَمْ يَزْعَمْ لَهَا أَحَدٌ خُلُودًا . إِنَّهَا خَيَالَاتٌ طَهْوَلِيَّةٌ سَخِيفَةٌ ، خَيَالَاتٌ
نَجَسٌ فَإِنْ يَطْمَعُ فِي الْبَقَاءِ . إِلَّا فَلْيَهْلِكْ كُمْ الظَّاعُونَ . مَا هَذَا الْجَنُونُ
الَّذِي يَرَى أَنَّ الْحَيَاةَ تَعُودُ عَنْ طَرِيقِ الْمَوْتِ ؟ وَكَيْفَ يَطْمَئِنُّ مَنْ يُولَدُ
إِذَا كَانَتِ الرُّوحُ فِي عِلْيَائِهَا أَوْ الشَّبَحُ فِي أَسْفَلٍ لَنْ يَفْقَدَ حَسَّهُ . لَا ، إِنْ
هَذَا التَّخِيلُ السَّخِيفُ يَفْسُدُ عَلَيْنَا نِعْمَةُ الطَّبِيعَةِ الرَّئِيسِيَّةِ وَهِيَ الْمَوْتُ ،
وَيَضَاعِفُ حَسْرَةً مَنْ يَمُوتُ حَاسِبًا حِسَابَ مَا لَا يَزَالُ مَخْبِئًا لَهُ . إِذَا كَانَتِ
الْحَيَاةُ بِهَذِهِ الْعَذُوبَةِ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَعِزُّ بِأَنْ تَتَوَقَّفَ حَيَاتُهُ ، غَيْرَ أَنْ
الْمَرْءَ يَكُونُ أَسْعَدَ وَأَكْثَرَ اطمِئْنَانًا إِذَا صَدَّقَ نَفْسَهُ وَعَرَفَ السَّلَامَ الَّذِي
يَتَنَظَّرُهُ بَعْدَ الْمَوْتِ ، مِنْ انْعِدَامِ الْحَيَاةِ ، كَمَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ . وَلَقَدْ
عَاشَ كَاتِبُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ حَيَاةَ بَرَحَةٍ نَشِطَةٍ قَضَاهَا فِي خِدْمَةِ مِوَاتِنِهِ
وَمَاتَ مِيتَةً مَغَامِرٍ بَيْنَمَا كَانَ يَشَاهِدُ انْفِجَارًا لِبَرْكَانٍ فِي زَوْفٍ .

جِيمِينِيْنوس

تَنْتَقِلُ الْآنَ إِلَى الْمَوْلاَفَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي كَتَبَتْ بِالْأَغْرِيقِيَّةِ خِلَالِ هَذِهِ
الْفَتْرَةِ . وَنَبْدَأُ بِمَوْلاَفِ فَذِ لْجِيمِينِيْنوسِ وَهُوَ « مَدْخَلُ إِلَى عِلْمِ الْفَلَكِ » .

والظاهر أن هذا الرجل (الذي ينطق المقطع الأوسط من اسمه ممدودا)
كان من مواطني رودس . بدأ يذيع صيته حوالي عام ٧٠ ق . م . وهو
من تلامذة الفيلسوف الرواقى الكبير بوسيدونياس ، وكتب تعليقا
ضخما على كتاب لأستاذه عن الفلك ثم قام بتلخيص هذا التعليق فيما بعد
ولقد ظل هذا التعليق مستخدما لعدة قرون ، غير أنه لم يصلنا بالشكل
الذى تركه عليه جيمينوس ، إذ حدث في القرن الرابع أو الخامس ، وفي
القسطنطينية على الأغلب ، أن اختار البعض أجزاء منه وأضافوا إليها
بعض الإضافات . هذا هو الشكل الذى وصلنا به كتاب « مدخل الى
علم الفلك » حاملا اسم جيمينوس . والكتاب مرجع قيم للفلك والجغرافيا
الرياضية ووضع التقاويم عند الاغريق . وقد كشف فيه مانيتياس ، وهو
آخر ناشر لهذا المؤلف (تيسر ١٨٩٨) عن أخطاء ونواح أغفلت ، غير
أنه ألقى تبعة ذلك على القسطنطينية . ويرى ولبان أن الكتاب خال من
التعصب والخرافات وأنه قائم على البحث العلمى . وبلغ من حماس
الباحث الفرنسى بول تانيرى للكتاب أن عده من أحسن ما وصلنا من
الكتب القديمة . أما هيث فيعلق عليه بفتور بالعبارة التالية : « انه
رسالة أولية معقولة تصلح للتدريس وتضم أهم النظريات الفلكية عند
الاغريق وقد عرضت من وجهة نظر هياركوس » . ولما كنت أنا ممن
يتوقون الى تبسيط هياركوس ، ووجدت بغيتى فى هذا الكتاب ، فانى
مصمم على اعتباره مرجعا وعملا فذا .

سبق أن صادف القراء فى الجزء الأول من كتابنا مثالا ممتازا لأسلوب
العرض البسيط الذى تميز به جيمينوس وذلك فى الفقرة التى يشرح فيها
أن الفلكيين كانوا دائما يقيمون علمهم على الفرض الذى أصر عليه
الفلاسفة الفيثاغوريون ، والذى يقول بأن حركة الأجرام السماوية لا بد

وأن تكون حركة دائرية ومنتظمة : ومن المهم أن نلاحظ أن جيمينوس لا يعترض على هذا الفرض ، فهو في كتابه الأصلي « الملخص » ، وهو غير الكتاب الذي تم ترتيبه في القسطنطينية ، يوافق على تقسيم العمل تقسيماً لا يخلو من مغزى بين الفيلسوف والفلكي . فبهمة الفيلسوف أن يضع المبادئ التي يجب على الفلكي ألا يتخطاها أثناء دراسته للظواهر السماوية . غير أنه يعالج الموضوع بنفس الوضوح الذي يسود صفحات الكتاب جميعاً . وحتى نعرض هذه الناحية عرضاً سليماً في حدود ما لدينا من معلومات ، سنبدأ بذكر عناوين الفصول ثم ننقل إلى القارئ النص الكامل للفقرة الشهيرة الخاصة بالفيثاغوريين .

والفصول الثمانية عشر في طبعة مانيتياس هي : دورة الأبراج . نظام الاثنى عشر برجاً وأمكتها . أشكال الأبراج . المحور والقطبان . الدوائر السماوية . النهار والليل . أوقات شروق الاثنى عشر برجاً . الأشهر . أوجه القمر . كسوف الشمس . خسوف القمر . للكواكب حركة على عكس حركة الكون . الشروق والغروب . دوائر النجوم الثابتة . المناطق الأرضية . الأجزاء المسكونة من الكرة الأرضية . استخدام النجوم كعلامات على الجو . الشهور السينودية وغيرها من الشهور . ثم يلي ذلك تقويم أو بيان بالوقت الذي تستغرقه الشمس لتقطع كل برج من الأبراج الاثنى عشر وما يصاحب ذلك من علامات جوية . أما نص الفقرة فكالآتي :

« توزع الفترات بين الاستوائين والاعتدالين بالطريقة التالية : أربعة وتسعون يوماً ونصف يوم بين الاعتدال الربيعي والاستواء الصيفي ، وهي عدد الأيام التي تقطع فيها الشمس الحمل والثور والتوأمة ، حتى إذا وصلت أول درجة من درجات السرطان جعلت الصيف استوائياً .

مواثنان وتسعون يوما ونصف يوم بين الاستواء الصيفي والاعتدال الخريفي ، وهي عدد الأيام التي تقطع فيها الشمس السرطان والأسد والعذراء ، حتى اذا وصلت أول درجة من درجات الميزان جعلت الخريف باعتداليا . وثمانية وثمانون يوما ونصف يوم بين الاعتدال الخريفي والاستواء الشتائي ، وهي الأيام التي تقطع فيها الشمس الميزان والعقرب والقوس ، حتى اذا وصلت أول درجة من درجات الجدي جعلت الشتاء باستوائيا . وتسعون يوما وثمان يوم بين الاستواء الشتوي والاعتدال الربيعي ، وهي الأيام التي تقطع فيها الشمس الأبراج الثلاثة الباقية وهي الجدي والدلو والحوت . وعدد أيام الفصول الأربعة ٣٦٥ يوما وهي عدد أيام السنة .

وهنا يبرز السؤال : اذا كانت دائرة الأبراج مقسمة الى أربعة أقسام متساوية ، وكانت الشمس تسير دائما بسرعة منتظمة ، فكيف يحدث أن تقطع أقواسا غير متساوية في أوقات متساوية ؟ ونحن نعلم أن علم الفلك قائم جميعه على افتراض أن الشمس والقمر والكواكب الخمسة تسير كلها بسرعات متساوية في دوائر كاملة وفي اتجاه عكس اتجاه الكون . وكان الفيلسوفون أول من تناول هذه المسائل ، وهم الذين وضعوا الفرض القائل بأن الشمس والقمر والكواكب تتحرك حركة دائرية وبسرعة ثابتة ، وكانت حججهم هي أنه فيما يختص بالكائنات الالهية والخالدة يكون من غير المعقول أن يفترض عدم الانتظام ، كأن تتحرك مثلا مرة بسرعة ومرة ببطء أو كأن تتوقف فيما يسمى بمحطات الكواكب وحتى فيما يختص بالمجال الانساني كانوا يرون أن مثل هذا الاضطراب لا يتفق مع ما يجب أن يكون عليه سلوك الرجل المهذب ، اذ حتى لو سلمنا بأن حاجيات الحياة القاسية كثيرا ما تضطر الناس في ظروف

معينة أن يسرعوا أو يترثوا فإن هذا لا يعنى أن هذه الظروف ملازمة .
لطبيعة النجوم التى لا يتورها الاضمحلال . ومن ثم حددوا المشكلة
بأنها مشكلة تفسير للظواهر على أساس فرض الحركة الدائرية المنتظمة .
وسنشرح هنا ، تاركين باقى النجوم لفرضة أخرى ، كيف أن الشمس
بالرغم من أنها تتحرك بسرعة ثابتة فإنها تقطع أقواسا متساوية فى أوقات
غير متساوية .

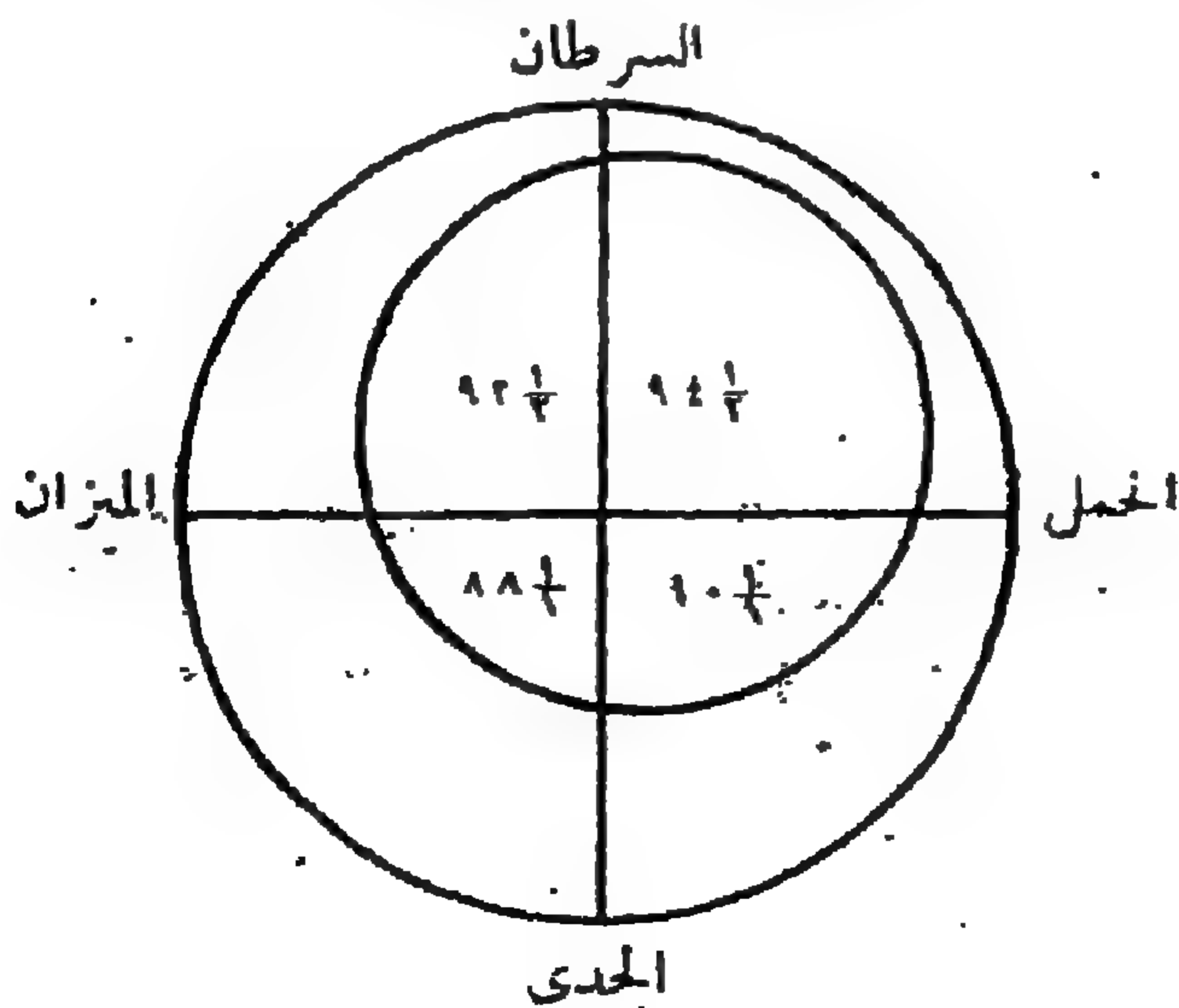
.. ان ما يسمى بمجال النجوم الثابتة وهو الذى يضم الأماكن الوهمية
للأبراج هو أعلى المستويات ، والنجوم ليست كلها عند مستوى واحد .
فبعضها فوق بعض ، وان كنا نجن لا نحس الفروق بينها فى الارتفاع نظرا
لبعدها عنا . يقع زحل تحت مجال النجوم الثابتة وهو يقطع الأبراج فى
حوالى ثلاثين عاما ، أى كل برج فى سنتين وستة أشهر . وتحت زحل
نجد المشترى الذى يقطع الأبراج فى اثني عشر عاما أى كل برج فى سنة ،
ثم يلى ذلك المريخ الذى يقطعها فى سنتين ونصف ، أى كل برج فى
شهرين ونصف ، ثم تأتى الشمس التى تقطعها فى سنة ، أى كل برج
فى حوالى شهر ، ثم الزهرة التى تقارب سرعتها سرعة الشمس ، ثم عطارد
الذى يتحرك هو أيضا بنفس سرعة الشمس . أما القمر فانه أقربها جميعا
وهو يقطع الأبراج فى سبعة وعشرين يوما وثلاث يوم ، أى كل برج فى
حوالى يومين وربع يوم .

فاذا كانت الشمس على نفس البعد مثل النجوم المكونة للأبراج ،
فإن الفترات بين الاستوائين والاعتدالين لا بد وأن تتساوى ولا بد للشمس
ما دامت سرعتها لا تتغير ، أن تستغرق نفس الوقت لتقطع نفس المسافة .
وكذلك اذا فرضنا أن الشمس أقرب إلينا من دائرة الأبراج ، ولكنها

تسير حول نفس المركز فإن الفترات بين الاستوائين والاعتدالين لا بد وأن تساوى في هذه الحالة أيضا ، فإن كافة الدوائر ذات نفس المركز تقسمها أقطارها بنفس الطريقة . ولما كانت دائرة الأبراج تنقسم الى أربعة أقسام متساوية بالأقطار الواقعة بين النقط الاستوائية والاعتدالية فإن دائرة الشمس بالضرورة لابد وأن تقسمها نفس الأقطار الى أربعة أقسام متساوية . فإذا سارت الشمس في مجالها بسرعة ثابتة فإنها تقطع الأجزاء الأربعة في فترات متساوية . غير أن دائرة الشمس ليست فقط على مستوى منخفض بل إن مركزها غير مركز دائرة الأبراج كما هو مبين بالرسم ، ولهذا فإن مسار الشمس مقسم الى أربعة أقسام غير متساوية . ويقع أطول جزء من محيطها تحت ربع دائرة الأبراج الممتد من أول درجة من درجات الحمل الى الدرجة الثلاثين للتوأمين . ويقع الجزء الأقصر تحت الربع الممتد من أول درجة من درجات الميزان الى الدرجة الثلاثين للقوس .

من الطبيعي اذن أن تقطع الشمس المسافات غير المتساوية في فترات غير متساوية طالما كانت تسير بسرعة ثابتة ، فالمسافة الأطول تتطلب وقتا أطول والأقصر تتطلب وقتا أقصر . وهي عندما تقطع أطول قوس في دائرتها تمر بربع دائرة الأبراج الواقع بين الاعتدال الربيعي والاستواء الصيفي وعندما تقطع أقصر أقواسها تمر بربع دائرة الأبراج الواقع بين الاعتدال الخريفي والاستواء الشتوي . ولما كانت الأقواس غير المتساوية لدائرة الشمس واقعة تحت الأقواس المتساوية لدائرة الأبراج فإن الفترات بين الاستوائين والاعتدالين تكون لا محالة غير متساوية وأطولها هي الفترة ما بين الاعتدال الربيعي والاستواء الصيفي وأقصرها هي الفترة فيما بين الاعتدال الخريفي والاستواء الشتوي . الشمس اذن تسير دائما بسرعة

هذه ترجمة حرفية لتلك الفقرة الطويلة . وهي ، لما بها من تكرار ، تسبب للقارئ بعض الملل ، غير أننا حريصين على أن نحفظ بالأصل كما هو حيث لا يترك المؤلف أمرا للمصادفة .



س۔ تراپو

- كان كتاب « مبادئ علم الفلك » لجيمينوس كتابا عمليا مختصرا .
انه كتاب مدرسى على الأقل بالصورة التى وصلنا بها . أما الكتاب التالى
الذى سنتناوله ، وهو « الجغرافيا » لسترابو ، فكتاب كبير احتفظ
بشكله الأصلى . كان سترابو من مواطنى أماسيا بيوتاس ، وولد
عام ٦٤ أو ٦٣ ق . م والمظنون أنه ألف كتابه فى السنوات العشر الأخيرة
من العصر الوثنى بهدف وضع سجل صالح للقراءة وموثوق به ، عن
الدول المختلفة فى العالم المسكون على أن يكون فى طليعة مؤلفات علم
الجغرافيا المعاصر بجمیع فروعہ . وهو مؤلف موثوق به وصالح للقراءة .
فعلا ، غير أنه ظل طويلا حتى وجد من يقرؤه . وما من شك فى أن سترابو
ما كان ليرضى الا بجمهور كبير فقد عاش بالأسكندرية وزار روما مرارا .

وكان حريصا على أن يؤكد أهمية الجغرافيا لمن يدير الحكم . ومن المحتمل أنه وضع كتابه من أجل بيتودوريس ملكة يوتاس حيث نشره . . . وإذا كان الأمر كذلك فانه يعنى أن يوتاس لم تكن من المراكز الهامة للنشر ، اذ ظل كتابه مجهولا في روما حتى أن بلينى الذى لم يكن تخفى عليه خافية لم يسمع به . وكان الرومانيون يعتمدون في جغرافيتهم على الفصول التى كتبها بلينى نفسه . والتى لا تعد من كتاباته الجيدة وعلى الموجز السطحى لبوميوتىوس الميلاوى (٤٥ م) . وظل شأن سترابو مغمورا حتى أنشئت القسطنطينية فأصبح حجة العالم البيزنطى . ومن بيزنطة وصل كتابه غربى أوروبا ابان عصر النهضة . وهو منذ ذلك الوقت لم ينس ، وان احتقر شأنه أحيانا . وان اهمال الكتاب قرونًا عديدة ، الشئ الذى لا يبعد أن يكون قد حل بكثير من الكتب القيمة الأخرى ، لىذكرنا بأننا حتى بعد المامنا بمحتويات مثل هذه الكتب . يكون لا نزال بعيدين عن معرفة تاريخ الابتشار الفعال للعلم في أرجاء العالم .

يمثل سترابو المستوى الذى بلغه العلم في العصر الأوغسطينى وان كان من المحتمل أن الأوغسطينيين الذين قرأوا له كانوا قلة ضئيلة .

أتاح توحيد العالم تحت حكم الرومان الفرصة لنمو المعرفة الجغرافية . وكان سترابو يحس بأهمية الامام بآخر ما وصلت اليه المعارف في موضوعه . والفصول الأولى من كتابه مليئة بنقد سابقيه الذين استدعاهم كما قال ، الى التحقيق كل في دوره ليبرر محاولته اظهار الى أى حد يحتاج الموضوع الى تصحيح وازدادة . (الكتاب الثانى ٤ ، ٨) . وان نظرة الى تاريخ الجغرافيا كقيلة بأن توضح موقفه .

كانت الجغرافيا علما قديما غير أنها لم تدن لأحد بمثل ما دانت به للاغريق . وربما توقع المرء أن الفينيقيين الذين سبقوا الاغريق الى اكتشاف البحر الأبيض وسيادته هم الذين أرسوا دعائم هذا العلم .

وهذا صحتيخ الى حد ما ، فسترابو ، مثلا ، يذكر أن الدب لم يعرف
كنجم الا بعد أن بدأ الفينيقيون يهتدون به في الملاحة ، وأخذ عنهم
الاغريق معرفة الاستعانة به . ولكن الفينيقيين بشكل عام احتفظوا
بمعرفة أنفسهم وملأوا العالم لا بالعلم بل بأقاصيص خرافية عن
مضاعب الطريق الى مصادر تجارتهم في الأشياء النادرة .
ولم تكن مساهمتهم في العلم الا غصبا كما هو الشأن مع الاختكارات
الأمريكية في عصرنا الحالي . وكان على الاغريقين الأيونيين أن يخطوا
الخطوات الأولى اذ كانوا كما رأينا (الجزء الأول) من كبار المستعمرين .
يثبتنا سترابو أن كثيرا من الرحلات الاستعمارية الأولى من جانب
الأيونيين وغيرهم باءت بالفشل بسبب نقص المعرفة الجغرافية . وكانت
خريطة أنا كسيماندر ، والرسالة الجغرافية الأولى لهيكاتيوس وكذلك
رسالة ميليتاس التي كتبت في حوالي عام ٥٢٠ ق . م . ، كانت كلها
محااولات لسد هذا النقص . غير أن أولئك الاغريقين الأيونيين تميزوا
بأنهم لما اذ يكتسبوا معرفة جديدة أثناء اشباع حاجياتهم العملية ، حتى
يتجوا منها علما يبقى ليزيد من ثروة العالم .

قسم علم الجغرافيا المعقد الى أربعة فروع . الجغرافيا الرياضية
والجغرافيا الفيزيائية والجغرافيا الوصفية السياسية والجغرافيا التاريخية .
ولم يترك الرواد الاغريق الأوائل فرعا من هذه الفروع الا واشتغلوا به .
ويرجع الفضل في وضع الجغرافيا الرياضية الى « أناكسيماندر » الذي
أدخل المزولة في اليونان ورسم أول خريطة . وشبت الجغرافيا الفيزيائية
على يدي الفيلسوف الشاعر زينوفون الذي اكتشف ظاهرة الشيطان
بالمرتبعة في حالة وجود مواقع وحفريات بحرية في الأرض ، وعلى يدي
هيراوديث الذي قبل الفكرة القائلة ان دلتا النيل تكونت عن طريق

تراكمات غرينية وجلس يحسب كم من السنين كانت تلزم لملء الخليج العربي لو أن النيل غير من اتجاهه . وبدأت الجغرافيا السياسية والتاريخية بهيروديت وثوسيديد بالمقالة الأبوقراطية « الأجواء والمياه والأصقاع » ، وهو أول بحث يربط بين وصف الناس وشرائعهم وبين أماكن سكنهم . ولم يتوقف هذا الميل نحو التعرف على طبيعة العالم المسكون ، فزينوفون يضع في كتابه « زحف العشرة آلاف » (٤٠١ ق . م .) جغرافية أرمينيا . ويفعل يثياس المارسيلى البحار الجرىء وأحد زواد الكشف العلمى والجغرافى (جوالى ٣١٠ ق . م .) نفس الشئ فيما يتعلق ببريطانيا وما يجاورها من أراض وبحار .

دخل تاريخ الجغرافيا الاغريقية مرحلته الثانية العظيمة بإنشاء الاسكندرية وفتوحات الاسكندر فى الشرق . ولم تتوان الجغرافيا فى الاسكندرية عن الارتفاع بالتقدم الرياضى لذلك العصر . وجعل اراتودينس من قياس الارتفاع بالمرزولة قاعدة من القواعد ، ولو أن عدد ما قيس من ارتفاعات ظل ضئيلا . كما حدد أبعاد الكرة الأرضية وشكل الجزء المسكون منها ومساحته . ثم وجه اهتمامه الى اصلاح خريطة العالم فأضاف الى المعين الذى كان يمثل العالم المأهول ثمانية خطوط عرض وسبعة خطوط طول محددات الأخيرة بطريقة حسابية عشوائية . وبالرغم من أن هيباركوس اقترح فيما بعد أن يستغل الخسوف القمرى فى تحديد خطوط الطول الا أن هذا الاقتراح لم يعيل به . ولم يكن تحديد خطوط الطول على أسس فلكية معروفا لدى القدماء ، وظل تنظيم العلم متخلفا عن نظريته . أما الجغرافيا الفيزيائية والسياسية فقد نهضتا بشكل ملحوظ على يدى بوسيدونياس ، فيلسوف رودس الرواقى وأستاذ جيمينوس كما سبق أن ذكرنا . ينقد سترابو بوسيدونياس لأنه

« يجذو حذو أرسطو في الاهتمام المفرط بالعلل » . غير أنه — شأنه في ذلك أيضا شأن أرسطو — لا يتردد في استخدام عينيه . وكتابات عن أسبانيا والغال مليئة بالملاحظة واعمال الفكر . وقد سماه توزر « أذكى رنالة في العالم القديم » . ومن كبار أئمة الجغرافيا السياسية أيضا ميخاديش وأجاتارسيدس . وأولهما (٢٩٠ ق . م .) كان من أعوان السلوقين في اليوتر على الجائز . ويمتاز وصفه لشمالى الهند ، الذى وصلنا عن طريق من جاء بعده من الكتاب ، بالشمول والدقة . أما الثانى (١٧٠ — ١٠٠ ق . م .) فكتب وصفا لمناجم الذهب وعمالها بأثيوبيا . ويرجع الفضل الى ديودوراس في بقاء هذا الوصف الذى يعد أشهر ما كتب في العالم القديم بخصوص علم الاجتماع الوصفى . وأصبحت الجغرافيا التاريخية علما منظما على أيدي افوراس وبوليبياس . هكذا كانت حال الجغرافيا بمختلف فروعها عندما بدأ سترابو يجددها في ظل الظروف الملائمة التى هيأها الحكم الأوغسطينى .

ليس من المعقول طبعا أن يتمكن فرد واحد من اتقان كل فروع مثل هذا العلم الضخم المعقد . وكانت الرياضة نقطة الضعف عند سترابو ، فهو في هذه الناحية يكاد لا يمتاز عن الاسكندرين من عصر اراتودينس ، ولكنه أضاف إضافات هامة في كل ناحية من النواحي الأخرى لهذا العلم . وقد حظى في ميدان الجغرافيا الفيزيكية بتقدير ليل ، وذلك لسنقن تحققهما في العلم الحديث ، أولهما تأكيد أهمية استنتاج حدوث تغيرات أرضية كثيرة في الماضى ، وذلك من التغيرات الأصغر التى نشاهدها بأعيننا ، وثانيهما اظهاره جرأة فكرية في مناقشة بعض آراء سترابو السطحية ، الى جند ما ، عن نصب اليوكسين في البحر الايجى ومصب البحر الأبيض في الأطلنسى ، وذلك بتقديمه بالفرض القائل بالارتفاعات

والانخفاضات المتبادلة في حوض المحيط : ولكن عظمته الحقيقية تتجلى في الجغرافيا الوصفية والتاريخية . ولن يستطيع المرء الوقوف على ملكاته الحقيقية كجغرافي وصفي وسياسي الا بقراءة كتبه السبعة عشر قراءة مستفيضة . ومن المستحسن ، ونحن مقيدون بحدود كتابنا هذا ، أن نركز على تمسكه العجيب بالمبدأ في الجغرافيا التاريخية .

الحمية في الجغرافيا خطأ لا ينفرد به العلم الحديث ، فقد وقع القدماء أيضا فيه . غير أن سترابو سلم منه ، اذ أظهر في كثير من الفقرات فهما عجيبا بالنسبة لعصره للحقيقة التي تقول بأن أثر الجغرافيا والمناخ على الناس أمر بالغ التعقيد والصعوبة ، أمر لا يؤخذ على أنه أثر مباشر للطبيعة على الانسان بل على أنه أثر يتغير بتغير مستوى التكنيك الصناعي والسياسي . « ان الفنون والمهن والشرائع المختلفة للجنس البشري ما أن تظهر حتى تزدهر في أي مكان على الأرض ، بل وحتى دون اعتبار لهذا المكان . واذا كانت بعض المميزات الاقليمية تنشأ عن الطبيعة فان أخرى تنشأ عن التعود والخبرة ، فلم يكن للطبيعة دخل بولع الأثينيين بالآداب والا فلماذا لم يولع بها أيضا الاسبرطيون أو حتى الطيبيون وهم القرينيون من أثينا . انها العادة في الأغلب . وكذلك كان التدريب والعادة هما السر وراء خندق البابليين والمصريين للمهن المختلفة . » (الكتاب الثاني ٣ ، ٧) . هذا الفهم من جانب سترابو يرتفع به الى مصاف المتبعين العلميين لتقدم المدنية الكلاسيكية بين الشعوب المختلفة .

وفي وصف شهير لأوروبا يحل سترابو ما ينتظر لتقدم المدنية بها من احتمالات ملائمة فيقول : « أسوأ المناطق المسكونة في أوروبا هي الجبال الباردة ، غير أنه حتى أكواخ الفقر والعوز تلحق بها المدنية . لو تولي أمرها مديرون أكفاء . وأمامنا الاغريقون مثال لذلك . فبالرغم

من الجبال الصخرية التي كانوا يسكنونها الا أنهم عاشوا حياة سهلة ، وذلك لاهتمامهم بفن السياسة وفنون الاتجاج وفن الحياة . والرومان مثل آخر ، فإن كثيرا من الشعوب التي استولوا عليها كانت شعوبا متوخشة بالطبيعة وذلك لسكنائهم بمناطق اما صخرية باردة لا موانئ لها أو غير صالحة لسبب أو لآخر لسكنى عدد كبير من الناس . فلما حكمهم الرومان انتقلوا بهم من التوحش الى المدنية بايجاد صلة بين المجموعات المنعزلة بعضها وبعض . وفي الأماكن المنبسطة والمعتدلة الجو تكون الطبيعة عوننا على تحقيق هذه الأهداف . وفي بلد حبه الطبيعة يتجه كل شيء نحو السلام . وفي بلد حلت به نعمتها نجد الرجال شجعانا ومحاربين . وكل نوع من الدول يستطيع أن يلقى عوننا من النوع الآخر فهذا يقدم الأسلحة وذاك المنتجات الزراعية والصناعية وتدريب الشخصية . أما اذا لم تساعد الدول بعضها بعضا فان ما يصيبها جميعا من ضرر أمر واضح . ان عنف المحاربين قد يؤدي حقيقة الى الخراب لولا أن قوة المحبين للسلام أكبر . ولكن الطبيعة تحبى أوروبا من هذا الخطر فسهولها وجبالها موزعة بحيث تعيش شعوب زراعية متمدنة مع شعوب محاربة جنبا الى جنب . والشعوب المحبة للسلام أكثر عددا وتسود الجميع . وقد تتابع الاغريق والمقدونيون والرومانيون على تحقيق عملية التمدن هذه . من هنا كان تميز أوروبا باكتفاء ذاتى من تاحتى السلام والحرب . ان تعداد المحاربين كبير ولكن تعداد أولئك الذين يفلحون أرضها ويحمون مدنها كبير كذلك . كما أنها تمتاز باقتاج أحسن الفواكه وباستخراج المعادن النافعة وأكثرها لزوما وباستيراد الكماليات غير الضرورية كالتوابل والأحجار الثمينة . وهى بعد ذلك كله

تقل بها الحيوانات الكاسرة بينما تكثر القطعان . هذا وصف عام لهذه
القبارة » (الكتاب الثاني والخامس ، ٢٦) .

انها صفحة كلاسيكية من العلم الجغرافي ، صفحة من صفحات
عديدة كتبها سترابو . فوصفه لشبكة الأنهار في فرنسا — كيف أنها
تمكن الناس من أن ينتقلوا كما يشاءون في مختلف أرجاء البلاد وكيف
تجعلهم على صلة بما يدور خارج بلادهم وذلك بربط المحيط بالبحر
الداخلي — حظى بتقدير حماسي من جانب الجغرافيين الحديثين اللامعين
في فرنسا (الكتاب الرابع ١ ، ٤) . ولا يقل وصفه لايطاليا روعة عن
وصفه لفرنسا (الكتاب الرابع ٤ ، ١) وفيه يتناول خصائص شبيهة
الجزيرة ومركزها من حيث صلاحيتها لسيادة العلم ، ثم يشرع في الفقرة
التالية « في اضافة بيان موجز عن الشعب الروماني الذي امتلاكها وجعل
منها قاعدة لعمليات السيطرة على العالم » . حقا ان السياسة الجغرافية
ليست علما جديدا .

يقوم موجز سترابو للتاريخ الروماني على فكرتين أساسيتين — أن
الغزو الروماني كان عزوفا وأنه جلب السعادة للمغلوبين وذلك بحكمهم
حكما حسنا . وهو هنا له طبعاً قصد رائع . يقول فيدال دي لابلاش :
« كان ابدال المدن بالقرى والدساكر على ساحل البحر الأبيض خربة
لازب من جانب اليونان وروما . ولم يكن ثيوسديد وپوليبياس
وسترابو ، ممن شاهدوا هذه الظاهرة بمخططين ، فهم ينظرون الى
« بوليس » أو المدينة القديمة ، كرمز للمدينة الراقية ودليلاً عليها .
وبلغ من حماس سترابو لهذه العملية أنه وصف غزو بلده نفسها ، بونتاس
دون أن يخالجه ألم . غير أن انتشار مدينة المدينة على حساب القرى
والدساكر سلب عددا رهيبا من الآدميين حياتهم وسعادتهم . ولم يكن

يسترايو الباحث الدقيق لهذه الناحية من نواحي المسألة . صحيح أنه لم يكن جاهلا بفصائل القبائل البسيطة التي أجبرت على التمدن ، وصحيح أن الظروف أرغمته على أن يشاهد ما أصاب الناس من تحلل أخلاقي بسبب انتشار المدنية ، وأن يلحظ ما بين نمو الملكية ونمو الجريمة من علاقة (الكتاب السابع ٣ ، ٤ ، ٧) ، غير أنه في نفس الوقت تجاوز عن آلام ضحايا المدنية مفترضا أنهم لا يحسون . وساق الأدلة على أن البسطاء لا يقلون وحشية عن أسيادهم . « عندما أغار الرومانيون على معاقل هؤلاء الكورييسكين بالجبال وحملوا أعدادا غفيرة منهم ، كعبيد ، الى روما ، سنحت الفرصة لاكتشاف وحشيتهم المذهلة فهم اما كالحبوانات الكاسرة توحشا أو كالأغنام استكاثرة . وقد مات بعضهم في الأسر أما الباقيون فكانوا من الخمول والبلادة بحيث غضب مشتروهم وندموا على تملكهم (الكتاب الخامس ٢ ، ٧) . والأغرب من هذا دليله على توحش الكثيرين الثائرين « حتى صلبهم بعد الأسر لم يمنهم من الصياح بشعارات النصر » (الكتاب الثالث ٤ ، ١٨) .

غير أن هذا ، بالمناسبة ، ليس سوى دليل على الحقيقة المعروفة من أن تقدم المدنية كان شيئا وحشيا . وانه لدرس من الدروس الأساسية للتاريخ ، ولكنه لا يحمل مغزى خاصا بالنسبة لسترايو الذي كان مجرد معبر عن مزاج الشعوب الحاكمة في أيامه . وان ما يعنينا من أمره هو وضعه من تاريخ العلم ، وهنا لا سبيل لنكران أستاذيته . ان كتبه السبعة عشر أعظم عمل من نوعه أتجه العالم القديم . ونحن وان كنا اقتصرنا في اقتباسنا على كتبه الأولى ، الا أن هذا لا يعنى اطلاقا أن كتبه الأخرى أقل منها شأنا . فمن أجسن كتبه تلك التي يصف فيها موطنه آسيا الصغرى معتمدا بطبيعة الحال على مشاهداته الشخصية ، ولكنه يجيد

أيضا اختيار مراجعه ، فإن وصفه للبلاد التي لم يرها — الهند مثلا حيث اعتمد على ميجاديس كدليل له — ملئ بالمعلومات التي يرتكن اليها . وبالرغم من اتساع مؤلفاته فهي لم تكن مجرد توليف لمعلومات سابقة ، فهو يراجع في حزم ما جمع من مادة وافرة ويعرضها بحيث تصور مبادئ عظيمة . ونحن نقرأ أيا من كتاباته فنرى فيه عالما ذا رأى واضح وكاتب جميل الأسلوب . لقد استحق ما قال من شهرة عظيمة وإن كان لسوء حظه لم ينلها الا مؤخرا .

بطليموس

ظل الجانب الرياضي من الجغرافيا ، وهو كما ذكرنا نقطة الضعف عند سترابو ، ظل متخلفا حتى نهض على يدي بطليموس الذي برز حوالي ١٥٠ م . وهو كرياضي وفلكي وجغرافي وفيزيقي أحد الشخصيات البارزة في تاريخ العلم . انه كرياضي وفلكي أتم عمل هياركاس ونظمه . وكان شرح حساب المثلثات الكروي الذي خلقه هياركاس أعظم عمل حققه في عالم الرياضة ، فمنذ اخترع هياركاس حساب المثلثات ليستخدم في الفلك كان الحساب الكروي هو الذي استخدم أولا . وهو في كتابه الأول « المجسطى » — والاسم ترجمة عربية محرفة للاسم الاغريقي (كان بطليموس نفسه يسميه المجموعة الرياضية في ثلاثة عشر كتابا) — بعد أن قدم الأدلة الرياضية التي استند اليها في قياساته صمم جدولا لأوتار أقواس تقابل زوايا تبدأ من نصف درجة وتنتهي بمائة وثمانين درجة ، وذلك على خطوات كل خطوة منها نصف درجة . وهو يماثل جدولا لجيوب زوايا تبدأ من ربع درجة وتنتهي بتسعين درجة على خطوات كل خطوة منها ربع درجة . ومن الملاحظ أن هذا الجزء من

أكثر أجزاء عمله خلوداً ، فبالرغم من أن الزمن عفى على نظامه الفلكي وعلى خريطة العالم التي رسمها إلا أن أساس حساب المثلثات كما وضعه هو وهياركاس لا يزال سليماً .

وقد اتخذ بطليموس من قاعدة هياركاس القائمة على مركزية الأرض أساساً لنظام فلكه ، مع تفضيل طريقة التداوير على طريقة اللامركزية في شرح التحركات المتنوعة للأجرام السماوية . وسنحاول أن نصف باختصار محتويات الكتب الثلاثة عشر ، ولو أن ذلك ليس بالأمر السهل . يضع الكتابان الأول والثاني الأساس الرياضي ويفسران بشكل عام حركة الأجرام السماوية في علاقاتها بالأرض كمركز . ويتناول الكتاب الثالث الشمس وطول السنة ، ومنه نعلم كيف اتجه هياركاس نحو اكتشافه تتابع الاعتدالين . وفيه أيضاً مبدأ لعب لفترة طويلة دوراً نافعا للعلم ، وهو أن الفرض البسيط الذي لا يتناقض مع الحقائق هو خير فرض تلجأ إليه في تفسيرك للظواهر . أما الكتابان الرابع والخامس فيبحثان في تحركات القمر . ويصف بطليموس في أولهما الأجهزة التي استخدمها في قياس ميل الخسوف ، وهو من أهم القياسات . ويبدأ ثانيهما بوصف اسطرلاب هياركاس الذي استخدمه هو في رصد النجوم للتأكد من مشاهدات سلفه . والكتاب السادس خاص بكسوف الشمس وخسوف القمر . والسابع والثامن عن النجوم الساكنة . أما الكتب الخمسة الباقية فتتناول الموضوع المعقد ، موضوع الكواكب .

أخذ بطليموس ، وقد تزود بهذه العدة الفلكية الضخمة ، أخذ على عاتقه مسئولية إحياء علم الجغرافيا الرياضية . وكان معاصره الذي يكبره سينا ، ماريناس البيرى ، قد قبل تحدى هياركاس أن يرسم خريطة للعالم تتفق فيها القسيمات الرئيسية على خطوط عرض وطول محددة

رياضيا . ونصب بطليموس نفسه مصححا لعمل ماريناس ومتمما له .
وكان أصيلا في تبويبه كتابه مما زاد من قيمته وجعل منه مرجعا صالحا .
ومن بين كتبه الثمانية خصص الأول والأخير للمبادئ والمسائل الرياضية
والفلكية . أما باقى الكتب فعبارة عن جداول بأسماء الأماكن التى كانت
على خرط الدول المختلفة وقتئذ ، مع بيان بخطوط أطوالها وعروضها .
كما حددت أيضا حدود مختلف الدول مع ملاحظات تفسيرية من هنا .
وهناك . غير أن جوهر المؤلف هو كتالوج بأسماء الأماكن وتحديد
مواضعها بشكل فيه الكثير من سيماء المرجع الذى لا يقبل نقضا .

غير أن الواقع على النقيض من هذا فهو لم يحدد فلكيا سوى حوالى
ستة خطوط عرض — مرسيليا وروما ورودس والاسكندرية وسين ،
وربما حفنة أخرى . أما خطوط الطول فلم يحدد منها خطا فلكيا واحدا ،
اذ عين المواقع داخل اطار من الأطوال والعروض غير المؤكدة ، وذلك
باختزال الأبعاد المحسوبة تقريبا الى درجات ، فما بالك اذا كانت بعض
أبعاد الأرض مقاسة بالخطوات وبعضها الآخر قدر بطريقة أكثر فجاجة .
أما الأبعاد البحرية فقدرت بالوقت لأن الاحتفاظ بسجلات لسير السفن
لم يكن معمولا به اذ ذاك . ومن سوء الحظ أن اختزال المسافات الى
درجات تم على أساس رقم خاطئ ، ذلك أن هيباركاس كان قد توصل
الى تقدير محيط الكرة الأرضية تقديرا صحيحا تماما ، فجاء بوسيدونيوس
« فصيح » هذا التقدير فأقصه بمقدار السدس . وهكذا أصبحت
الدرجة تساوى ٥٥٠ ستاديوم (٥٠ ميلا جغرافيا) بدلا من ٦٠٠
ستاديوم (٦٠ ميلا جغرافيا) . وأخذ بطليموس بالرقم الخطأ
لبوسيدونيوس . وكانت النتيجة أن أبعاده ، ومعظمها أصلا مبالغ فيه
بسبب مبالغة الرحالة فى تقديرها ، زادت بسببه هو أيضا بنسبة ٢٠٪ ،

متنذ عصر ديكأيركوس (٣٠٠ ق . م .) وأهم خط على الكرة في نظر
الجغرافيين الأفریق هو خط عرض ٣٦ الذي يمر بجبل طارق عند طرف
البحر الأبيض الغربى وبجزيرة رودس عند طرفه الشرقى . غير أن البلاد
التي تقع عليه أو قريبا منه لم تكن معروفة حتى جاء بطليموس فجعله
يمر خلال كراليس بسردينيا ولبيوم بصقلية مرتكبا خطأ أكبر من
٣ درجات في الحالة الأولى وأصغر من درجتين في الحالة الثانية . وأسوأ
من هذا أنه وضع قرطاجنة جنوبيه بأكثر من درجة بينما هي شماليه بحوالى
درجة . وهو بهذا يجعل شاطئ أفريقيا مستويا بشكل عجيب . ولم يكن
أكثر توفيقا في تحديده أول خط طول له ، إذ حذا حذو ماريناس فوضعه
في جزر الكناريا ولكنه افترض لهذه الجزر موقعا يبعد عن موقعها
الحقيقى بسبع درجات شرقا . والحقيقة أن كل حساباته الخاصة بالبعد
كانت مبنية على أساس مدينة الاسكندرية ، ولكن كان من الضرورى
في رسمه للخرائط أن ينسبها الى خط طوله الأول ، ومن ثم أخطأ في
تحديد كل موقع خطأ بلغ سبع درجات . تلك كانت الأخطاء العامة التي
سادت حساباته ، غير أن هناك أيضا أخطاء خاصة ترجع الى اعتبارات
مختلفة ، فأدار بدون داع خريطة نيكوتلاندا بزاوية قدرها ٩٠ درجة
فأصبحت شرقى انجلترا بدلا من شماليها . أما في الشرق الأقصى فقد
بلغ الذروة إذ جعل مساحة سيلان أكبر من مساحتها الحقيقية بأربع
عشرة مرة !

وهذه الأخطاء أخطاء هامة دون شك ، ولكن ليس هناك أسهل من
أن نبالغ في خطورتها ، وليس عليك كى تبين ذلك الا أن تنظر الى
خريطة العالم كما عرفها هومر ، وفيها يدور النهر المحيط بالقرص
المسطح ، للعالم ، ثم تضع الى جوارها خريطة مرسومة على أساس أرقام

بطليموس بعروضها وأطوالها المنحنية وبشمولها ودقتها النسبية في المناطق الواقعة حول البحر الداخلى وباتساع رقعتها ، من أيرلندا في الشمال الغربى الى ما ظنه الصين والملايو في الشرق . بل ان قيمة علمه لتتجلى أصالتها بشكل أوضح لو نظرت الى « الخرائط العملية » للعصور الوسطى حيث يدور النهر المحيط هنا أيضا حول قرص مسطح تتوسطه أورشليم ويعلوه الفردوس ، خرائط أغفلت كل ما شقى الاغريق في التوصل اليه من رياضة وفلك . بهذه الطريقة تقدر أعمال بطليموس وغيره من الجغرافيين الاغريقين حق قدرها .

بقيت كلمة عن ناحية أخرى من نواحي عمله . لم يكن بطليموس دقيق الملاحظة فحسب ، كما يدل وصفه للأجهزة الفلكية والطريقة التى انتفع بها من هذه الأجهزة ، بل كان أيضا رجل تجارب . فكتابه الخامس عن « الضوء » يحتوى على مشاهدات لانكسار الضوء . وكان هذا مفيدا للفلكيين الذين كانوا على علم بمثل هذه الظواهر الانكسارية ، بقمر مخسوف يظهر مقابلا لشمس غاربة . وقد وضع بطليموس جداول لانكسار مختلف زوايا السقوط في تجارب على الهواء والماء والزجاج ، وحاول أن يخرج بقانون من هذه التجارب . وهو هنا كعهدنا به فى كل أعماله يظهر ما يتميز به من الجمع بين تفاذ البصيرة وطريقته فى معالجة الموضوع .

جالينوس

إذا انتقلنا من عالم الطبيعة المتراعى الأطراف الى عالم الانسان المحدود وجدنا جالينوس (١٢٩ — ١٩٩ م) يحتل فى تاريخ الطب مكانا لا يقل شأنًا عن مكان بطليموس فى تاريخ الفلك والجغرافيا . وكما

أعادت علوم الفلك والجغرافيا ، في عصر النهضة ، النظر في أعمال بطليموس وصنحتها ، أعادت علوم التشريح والفيسيولوجيا النظر في أعمال جالينوس وصنحتها . ولا مفر من أن نحاول تقييم عمله باختصار ، وإن كان ذلك مهمة من أصعب المهام وأشقها . كتب جالينوس عدة مؤلفات ضخمة في مواضيع متعددة متشعبة ، غير أن ما بقى منها لا يتجاوز المائة كتاب ، كل منها في موضوع منفصل . وتقع طبعة كوهن (١٨٢١ — ١٨٣٣) وهي الطبعة الحديثة الوحيدة الكاملة ، تقع هي وترجمتها اللاتينية في عشرين مجلدا ضخما . وإن الخير ليشق طريقه في هذا الخضم بصعوبة فكيف بالرجل العادي ! إنه تتقاذفه الآراء المتناقضة . غير أنه من الانصاف أن نقرر أن أطباء الأزمنة الحديثة الذين كتبوا عنه يرتقون به الى مرتبة أعلى من المرتبة التي يضعه فيها النقاد الأكاديميون . وأيا كان الأمر فإننا لا يسعنا إلا الاعتراف بأن هذا الكاتب الفياض الذي ألف وهو لا يزال في شبابه سيلا من الكتب المثيرة للجدل ، لا في مختلف فروع الطب فحسب ، بل في مختلف المدارس الفلسفية والمواضيع الثقافية والتعليمية بشكل عام ، هذا الكاتب يعد من أكثر الباحثين والملاحظين كدا واجتهادا . إنه يعرض في كتبه عن العلاج والفيسيولوجيا والتشريح معرفة ممتازة بالطبيعة تكسب صاحبها فضلا حتى ولو لم يهتم بمثل ما اهتم به جالينوس من مسائل عديدة .

ولقد اضطرته ظروف خاصة أن يكتب مقالا عن مؤلفاته ، وهو مما يساعد المرء على أن يتبين طريقه أثناء دراسته أعماله . وقد اخترنا منه الجزء الطريف التالي . حدث ذات مرة أن شاهد جالينوس ، وهو سائر في شارع صناع الأحذية بروما حيث كانت تقع معظم المكتبات ، منظرا لا بد وأن يكون قد سهر قلبه . كان بين الكتب المعروضة بواجهة إحدى

المكتبات كتاب يحمل اسم دكتور جالينوس ، وبدأت مناقشة عما اذا كان الكتاب من كتب جالينوس حقا ، واشتراه رجل متعلم لفت نظره عنوانه وبدأ على التو يقرأ فيه ليتبين في أى موضوع يبحث ، ولكنه لم يتم قراءة سطرين الا وألقاه جانبا وهو يقول : « انه ليس بأسلوب جالينوس . ان الكتاب مدسوس عليه » . ويعلق جالينوس راضيا بقوله ان الرجل كان ممن تلقوا تعليما اغريقيا قديما على أيدي علماء اللغة والخطباء . غير أن الوقت تغير ، فان كثيرا من التواقين الى الامام بالطب والفلسفة يحضرون محاضرات في هذه الموضوعات دون أن يجيدوا القراءة ، وهم يأملون دون جدوى ، أن يفهموا أنبل ما يعرف الانسان من معارف . وهكذا خاف جالينوس من أن يدس عليه ما ليس من عمله فشرع في وضع قائمة تتضمن أعماله ووصفا لها . وكان من أسباب خوفه ، الى جانب ذلك ، علمه بأن أعماله تعاني التشويه ، ففى مختلف البلاد يقوم المدرسون بتدريس أعماله على أنها من خلقهم هم بعد أن يكونوا قد شوهوا معالمها بالاضافة والحذف والتغيير . وقد نصحه أصدقاؤه أن يهب لانتقاد سمعته ، ولم يكن يعوزه البرهان على صدق نصيحتهم .

يصف جالينوس في الفصل الثالث من مقاله « عن كتبه » ، بحوثه وكتاباته في التشريح وستترجم جزءا منه ترجمة كاملة نظرا لأن أعماله في التشريح أهم ما أسهم به في العلم : « هناك أولا كتاب « عن العظام » للمبتدئين ، ثم تأتى بعده كتب أخرى للمبتدئين أيضا ، واحد عن تشريح الأوردة والشرابين وآخر عن تشريح الأعصاب . وهناك كتاب يورد في اختصار التعليمات التى يتضمنها كتاب « تمرينات تشريحية » عن العضلات . وإذا شاء أحد أن يتبع قراءة « عن العظام » بقراءة التمرينات

التشريحية مباشرة فلا ضرر ان هو أغفل الكتب الأولية الخاصة بالأوردة والشرابين والعضلات ، فانه سينجد كل شيء في التمرينات . فالكتاب الأول منها خاص بعضلات وأوتار اليدين ، والثاني بعضلات وأوتار الساقين ، والثالث بأعصاب الأطراف وأوردتها ، والرابع بالعضلات التي تحرك الفكين والشففتين والذقن والرأس والرقبة والكتفين ، والخامس بعضلات الصدر والبطن والصلبين والظهر ، والسادس بالأعضاء المغذية ، المعدة والأمعاء والكبد والطحال والكليتين والمثانة وغيرها ، والسابع والثامن بتشريح الأجزاء المتعلقة بالتنفس فيصف السابع تشريح القلب والرئة والشرابين حية وميتة ، ويختص الثامن بمحتويات الصدر كله والتاسع بتشريح المخ والنخاع الشوكي والعاشر بالعينين واللسان والحنجرة وما يجاورها من أجزاء ، والحادى عشر باللهة وبما يسمى بالعظم اللامى وبما يتصل بها من أجزاء وأعصاب ، والثانى عشر بالشرابين والأوردة والثالث عشر بالأعصاب الخارجة من المخ والرابع عشر بالأعصاب الخارجة من النخاع والخامس عشر بالأعضاء التناسلية . تلك هى أصول التشريح ، غير أن هناك الى جانب هذا كثيرا من الأشياء المفيدة . ولهذا الغرض اختصرت العشرون كتابا لما ريناس « عن التشريح » فى أربعة كتب ، وكل أعمال لايكاس فى كتابين . وهاك جدولا بمحتويات هذه الكتب .

ان الأهمية القصوى لهذا البحث التشريحي لا تخفى على أحد . صحيح أن عمليات التشريح أجريت على القرده لا على الانسان غير أن الأخطاء التى نتجت عن هذا لم يكن من الممكن تجنبها فى ظروف ذلك العصر . وقد أعيد النظر فى هذا البرنامج التشريحي فى عصر النهضة ، على يد فيسالياس بالذات ، وأدى ذلك الى ارساء أسس التشريح الحديث .

بل ان هارفى نفسه الذى حكم كشفه للدورة الدموية على فيسيولوجيا جالينوس بالفناء ، درس برنامج جالينوس فى مدرسة فيسبالياس فى بادوا . بقيت كلمة لايد منها عن فيسيولوجيا جالينوس . تقوم هذه الفيسيولوجيا ، شأنها فى ذلك شأن الفلك فى أيامه ، على المشاهدة من ناحية وعلى بعض المبادئ الفلسفية من ناحية أخرى ، مبادئ بدت وقتئذ حقيقة ولكن الفيسيولوجيا الحديثة عدلت بعضها وحذفت البعض الآخر . وكانت الأنواع المختلفة للكائنات الحية قد تم تقسيمها منذ زمن طويل الى ثلاثة أقسام رئيسية — النباتات والحيوانات والانسان . وتمثل مبدأ النمو فى النباتات ومبدأ النمو والتنقل فى الحيوانات ومبادئ النمو والتنقل والفكر فى الانسان : وكان من رأى الرواقين ، وهو رأى استقوه من مصادر مختلفة ، أن الهواء الممتص من الكون ، وما هو الا نفس الكون ، هو المبدأ الحيوى لهذه المراتب الثلاث من الكائنات الحية ، وان وظيفة الكائن الانسانى أن يكيف هذا الهواء الخارجى بما يتفق ومراتب الحياة الثلاث التى تتجلى فى الانسان ، النمو والتنقل والفكر . فالهواء أولا تكيف وأصبح الروح الطبيعية وسبب النمو ، ثم تكيف مرة ثانية وأصبح الروح الحيوية وسبب التنقل ، ثم تكيف مرة ثالثة وأصبح الروح الحيوانية وسبب الفكر . ووفق جالينوس ببراعة بين ما يعرفه عن الأجهزة الهضمية والتنفسية والعصبية للانسان وبين هذه الوظيفة الثلاثية للكائن الانسانى ، فالكبد والأوردة هى الأعضاء الأساسية لحياة الانسان النباتية ، واحتفظ القلب والرئتان والشرابين بالحياة الحيوانية ، أما الحياة الفكرية فمكانها العقل والجهاز العصبى ، وهى الجزء المميز للانسان ، الحيوان الراشد .

وفيما يلى وصف قصير لوظائف الأجهزة كما تصورهما . فى الكبد

يتحول الطعام المختزن الى دم ويوزع عن طريق الأوردة لينمو به الجسم . وكانت حركة الدم في الأوردة توصف بأنها نوع من التذبذب البطيء من الكبد واليها اذ يخرج الدم من الكبد عن طريق الوريد البابي الى البطين الأيمن للقلب حيث يتخلص من شوائبه بأن يحملها الشريان الرئوى الى الرئة ومن هناك تطرد مع الزفير . ويحتفظ بجزء من هذا الدم النقى للتكيف الثانى ، ويتم ذلك بأن يمر خلال الحاجز الى البطين الأيسر حيث يتقابل ثانيا مع هواء العالم الخارجى القادم من الرئة عبر الوريد الرئوى الى البطين الأيسر حيث يتحول الى الروح الحيوية وتقوم الشرايين بتوزيعه على الجسم . من الشرايين ما يتجه الى المخ ، والدم الشريانى يمر قبل أن يصل الى المخ بشبكة من الأوعية تدعى الشع الوعائى . وهنا تتم عملية التكيف الثالث ويتشرب هذا الجزء من الدم بالروح الحيوانية وتوزعه الأعصاب على الجسم . والنظام كامل ولطيف وشامل لعدد ضخم من الحقائق المشاهدة ، مفسرا اياها فى ضوء فلسفة يبدو أن حكمة الأجيال قد أكدتها . ولا بد أن جالينوس لم يفكر ولو لحظة أنها فلسفة كاذبة . أما نحن الذين على غلم بكذبها فيجدر بنا أن نتساءل كيف اهتزت أسس هذه الفلسفة .

التفسير بالطبع هو أن الأجزاء الجوهرية من النظرية تقوم على ملاحظات خاطئة ، فالطريقة التى زعم جالينوس أن الدم الوريدى يتحول بها الى دم شريانى لا يمكن أن تكون صحيحة ، لأنها تفترض مرور الدم خلال الحاجز بينما هو فى حقيقة الأمر جدار عضلى غير مثقوب . كما أنه جانب الصواب فى الطريقة التى فسّر بها تحول الدم الشريانى الى دم مشبع بالروح الحيوانية فالجهاز (الشع الوعائى) الذى يقال ان العملية تتم فيه غير موجود أصلا فى الإنسان اذ أن جالينوس شاهده فى الحيوانات

المجتررة وافترض وجوده في الانسان . ولقد وضحت هذه العقبات التي هدمت فيسيولوجيا جالينوس باحياء البحث التشريحي في الأزمنة الحديثة وان ظلت رغما من هذا لفترة طويلة من الوقت مجرد مشاكل معقدة دون أن تهدم النظرية . ذلك أن الفيسيولوجيا التي وضعها جالينوس كانت تتميز بصفات أعمت الباحثين عن جوهر المسألة . وكان من الصعب في ظل الفيسيولوجيا تكوين فكرة سليمة عن دورة الدم ، فهو يقول بثلاثة أنواع من الدم لكل نوع منها طريقة التوزيع الخاصة به . وحتى أولئك الذين كانوا يعلمون أن الحاجز غير مثقوب ، لم يكن سهلا عليهم أن يفهموا عمل القلب . فقد ظن جالينوس أن عمل القلب الأساسي يتم أثناء الانبساط أو التمدد وهي عملية كان يظن أن الغرض منها هو امتصاص الهواء من الرئتين . فكيف كان يتسنى لامرئ أن يتأكد من أن العمل الحقيقي للقلب يتم أثناء الانقباض أو التقلص الذي يدفع بالدم في الشرايين ؟ ان هارفي أتفق عدة ساعات يوميا لعدة سنين وهو يراقب قلوبا تنبض أو ممسكا قلوبا نابضا بيد وشريانا نابضا بالأخرى ، رابطا بين عقله وأنامله ، ومتحسسا طريقه الى الحقيقة ، حتى نجح آخر الأمر في أن يقلب رأى جالينوس رأسا على عقب ، أولا في ذهنه هو ، ثم خطوة اثر خطوة على نطاق واسع في العالم كله . وحتى هذا لا يعنى سوى أن جالينوس انتصر على جالينوس ، جالينوس الذي يهتم بالملاحظة على جالينوس الفيلسوف ، فلم يكن التكنيك الذي تعلمه هارفي في بادوا الا تكنيك جالينوس .

بقيت كلمة عن تاريخ جالينوس . انه قدم ، مثل جميع علماء الاغريق والرومان الكبار تقريبا ، من الشرق فهو من مواليد برجاموم حيث كان أبوه معماريا ورياضيا . ودرس جالينوس الطب أول الأمر في مسقط رأسه ثم في سميرنا وكورينث والاسكندرية . ولما أتم تدريبه عمل جراحا

للفرسان في بلدة لمدة أربع سنوات . وكم كنت أود لو ترك لنا سجلا
دقيقا عن جهاده في هذا المنصب ، صورة عن عمله اليومي . وبعد ذلك ،
جذبتة رومما حيث كان يسعى سكان المقاطعات وراء الربح . وهناك ذاع
صيته واختاره الامبراطور ماركوس أورلياس طبييا خاضا له في حملته
ضد قبائل الجرمان . ورغم هذه الحياة الحافلة وجد جالينوس من الوقت
ما يلزمه ليعالج ويشرح ويكتب .

الفصل الرابع

نتيجة وخاتمة - ما حققه العلم القديم من انتصارات وما يخطئه
من حدود - ما يدين به العلم الحديث للعلم القديم

نتيجة وخاتمة

قدمنا في الصفحات السابقة مختارات تمثل الكتابات العلمية في كل
من العصر الاسكندري والعصر الروماني الاغريقي ، ولكننا لم نلم بكل
شيء ، فان الماما أشمل يتطلب درجة عالية من التخصص في مختلف فروع
العلم لا تتوفر لدينا . وبالرغم من اغفال الشيء الكثير ، الا أن ما قيل
بالفعل قد يكفي ليراز ما بلغه العلم الكلاسيكي القديم من مدى وشأن .
وها نحن نجد أنفسنا واقفين على عتبة العلم الحديث . ولا يحسبن أحد
أننا احتلنا بحيلة من حيل الترجمة فأضفينا على مقتبساتنا جوا حديثا
كاذبا . أبدا ، فقد حرصنا على أن نستقى انشاءنا وأسلوبنا من انشاء
هذه الكتابات نفسها وأسلوبها . فلا خدعة في الأمر ، اذ أننا وصلنا فعلا
الى عتبة العلم الحديث بوصولنا الى علم الاسكندرية وروما . فالعلم
الحديث بدأ في القرن السادس عشر حيث انتهى الاغريقون ، ولم يكن
كوبرنيكاس وفيسالياس وجاليليو سوى مكملين لبطليموس وجالينوس
وأرشميدس .

غير أن هذا الشعور بالتقدير لا بد وأن يعقبه شك عجيب . لئن كان
الاغريقون والرومانيون قد وقفوا بباب العالم الحديث فلماذا لم يدفعوا

هذا الباب ؟ انه في الحقيقة لغز . لقد استعرضنا هنا فترة تمتد لحوالي
خمسمائة عام تبدأ بموت أرسطو في ٣٢٢ ق . م . وتنتهي بموت جالينوس
في ١٩٩ ميلادية . ولكن العمل الأساسي تم قبل انتهاء هذه الفترة بوقت
طويل ، فقبل أن ينتهي القرن الثالث قبل الميلاد كان ثيوفراستس وسترابو
وهيروفيلابن وارايسستراتاس وستيباس وأرشميدس قد أتموا أعمالهم .
وبلغت الأبحاث درجة عالية من الكفاءة في اليسيوم والمتحف . وكانت
القدرة على تنظيم المعرفة منطقيا قدرة كبيرة . وبلغت المعلومات الايجابية
في مداها خذا يدعو للدهشة ، وسرت بسرعة تدعو الى دهشة أكبر ،
وتمكن العلماء من نظرية التجربة ، وطبق العلم على مختلف الآلات
الميكانيكية البارة . وهكذا لم يكن بطليموس وجالينوس هما اللذان
وقفا بالقدماء . عند باب العالم الحديث ، فقد ظل هؤلاء القدماء على عتبة
هذا الباب أربعمائة عام ، أظهروا فيها بشكل قاطع عجزهم عن أن يلجوه ..

وهذا دليل على أن العلم أصابه شلل حقيقي ، فبالرغم مما تم خلال
أربعمائة عام من امتداد المعرفة في شتى النواحي ومن إعادة تنظيم جوهر
المعرفة ومن اكتساب مهارة جديدة في التعبير ، الا أن العالم لم يشهد
دفعة قوية الى الأمام ولا تطبيقا عاما للعلم على الحياة ، فتوقف العلم
أو عجز عن أن يصبح قوة حقيقية في حياة المجتمع . وبدلا من ذلك
ظهر مفهوم يقول بأن العلم حلقة من الدراسات الليبرالية اختصت بها
صفوة ممتازة . وأصبح العلم متعة ، أو حيلة ، أو موضوعا للتأمل ..
ولم يعد وسيلة لتغيير ظروف الحياة . وحتى تلك الفنون القديمة التي
تهدف الى الإبقاء على المجتمع — المعمار والطب وما شابههما — كانت
محترمة بالكاذب . ولم يكونوا يتناولون هذه الفنون الا بالدرجة التي

تجعل من ممارستها أصحاب معرفة نظرية بدرجة تمكنهم من الاشراف على عمل الآخرين .

ومن الواضح أن سبب هذا الشلل لا يرجع الى فشل الفرد . وأن محاولة تفسير الحركات الاجتماعية الكبرى على أساس نفسية الأفراد تعتبر من الأخطاء التي تعوق تقدمنا . إن هذه الصفحات لتشهد بعقريّة الفرد بينما كان الشلل يزحف ليفترس العلم بشكل عام . لقد كان الفشل فشلا اجتماعيا وكان لابد للعلاج من سياسات عامة لم يكن في مقدور ذلك العصر أن ينتهجها . لقد تزلزلت القدماء في تنظيم النواحي المنطقية للعلم فانتزعوها من صلب النشاط الفنى الذى نمت فيه أو الذى كان مفروضا أن تطبق فيه ، وجعلوها بمعزل عن عالم التطبيق وفوق هذا العالم . وكان هذا الفصل الخيثل بين المنطق وتطبيق العلم نتيجة لا تقسام المجتمع على نطاق عام الى أجراء وعبيد . ولم يكن هذا من الخير فى شيء لا للتطبيق ولا للنظرية . ان الأمر كما يقول فرنسيس بيكون ، وهو يناقش بتفكير عصره نفس الحقائق التى ناقشناها نحن ، اذا جعلت من العلم عذراء عفيفة فلا تتوقع أن يحمل العلم ثمرا . ولم يكن العلم القديم بقادر ، وقد أصبح فى انهياره أشبه بسيدة جليلة ، أن يثمر ثمرتها فى الظروف المادية للحياة أو تحريرا للمجتمع من الخرافة .

ان مفهومنا الحالى للعلم يتضمن كونه قوة منحولة لظروف الحياة . وبينما ندافع بحق عن مثل العلم اذ تتضمن ثباتنا خالصا فى سبيل الحقيقة — والواقع أن هذه المثل أنما هى نتاج التاريخ الاجتماعى ولهم تلمع أبدا مثلما لمعت بين معاصرينا الذين يدركون ويعترفون بما للعلم من مسئوليات اجتماعية — ندرك فى نفس الوقت أن هناك أنهارا تنبع من بئر العلم . انها أنهار مخصصة لخدم الصناعة ، وكلنا تقريبا ياكوبينيون الى الدرجة

التي جعلنا ننظر الى العلم لا على أنه مجرد معرفة للطبيعة بل على أنه قوة فوق الطبيعة . والحقيقة الأخرى أن الصناعة تدفع بالعلم الى الأمام كما يدفع هو بها الى الأمام . ان أثر العلم والحياة كل منهما على الآخر عنصر أساسي من عناصر وعينا . وهذا شيء لم يكن معروفا وقت انهيار المجتمع القديم ، اذ كان العلم وقفا على الدراسة وحدها وعلى الصفوة الممتازة . وكانت قوة العلم على الطبيعة تزداد عن طريق زيادة عدد العبيد كلما كان ذلك ميسورا .

ما حققه العلم القديم من انتصارات وما يحده من حدود

كان فشل العلم القديم فشلا في مجال التطبيق ، فشلا في أداء وظيفته الاجتماعية . وحتى عندما أصبح من الصعب الاحتفاظ بالعبيد ، لم يفكر القدماء في أن يتجهوا الى التطبيق المنظم للعلم في الإنتاج . ولكننا لا نزعم أن هذا التطبيق لم يحدث قط فيرومهيدي ، مثلا ، يقدم من الأدلة ما يعادل من حكم نيرجر القائل بأن « فن التعدين لم يحرز أى تقدم تكنولوجي خلال العصور القديمة كلها ، أى منذ أول العصور التي عرفها التاريخ حتى انهيار الامبراطورية الرومانية » . غير أن الحقيقة بوجه عام هي أن المجتمع القديم كان ذا طابع لا يسمح بإمكانية البحث الجدى عن القوة خارج نطاق عضلات العبيد . ان اعتماد المجتمع على العبيد ينعكس في وعى العصر في كل مكان . فكان في حكم المقرر عند أفلاطون وأرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد أن المدنية لا يمكن أن تتحقق بدون العبيد . فإذا ما انقضت ثلاثمائة سنة وأصبح اقتناص العبيد أمرا شاقا رأينا فيلو ، الفيلسوف الاسكندري ، يقول نفس القول : ان الحياة بدون عبيد أمر لا يمكن التفكير فيه . وانهى فيلو (وكان أخلاقيا متحمسا)

التي أن القانون الأخلاقي يجيز تملك العبيد . ووضع القواعد لمعاملتهم ، وكانت مثل قواعد أفلاطون تهدف الى العدل والانسانية ، ولكنها كانت تكتشف بوضوح عن الضمير السيئ المكبوت والواقع الاجتماعي الفظيع فهو يقول ان السيد الذي يقتل عبدا لابد وأن يقتل . غير أنه يضيف الى هذا « الا اذا بقي العبد حيا يومين بعد ضربه » ، عندئذ ليس على السيد حرج .

ولد فيلو في عام ٢٥ ق . م . ، غير أن المجتمع ظل كما هو دون تغير حتى بعد أن انقضت بضعة قرون منذ ظهور المسيحية . فلقد قبل سانت أوغسطين (٣٤٥ - ٤٣٠ م .) العبودية على أنها حكم من الاله على عالم آثم . وهذه الآراء سواء منها الوثنية أو المسيحية ، ليست مقياسا لطبيعة الأفراد بل لطبيعة العصر . لقد ظهر النظام العبودي نتيجة الأثر البطيء للقوى التاريخية ، ولم يكن لتكتسحه سوى قوى تاريخية قوية . وقد وصف انجلز طبيعة هذه القوى وما أحدثته من تغيرات بطيئة في فكر المجتمع في كتابه أصل العائلة : « لم يعد النظام العبودي مجديا ، ومن ثم فقد مات ، غير أنه ترك خلفه وخزة مسمومة — وخزة علقت بالعمل الاتجاعي للرجال الأحرار . ووجد الرومان أنفسهم في طريق مسدود لا يعرفون له منفذا : فالنظام العبودي مستحيل اقتصاديا وعمل الأحرار محرم خلقيا . الأول لم يعد يصلح كالشكل الأساسي للاتنتاج الاجتماعي والثاني لم يحن وقته بعد ، ولا خلاص سوى الثورة الشاملة » . وحدثت هذه الثورة على أيدي البرابرة الشماليين فيما بين عامي ٤٠٠ و ٨٠٠ ميلادية . ويستطرد انجلز قائلا : « وفي النهاية تقابل تقريبا نفس الطبقات ، وان اختلفت الكائنات الانسانية التي تتكون منها هذه الطبقات . فالنظام العبودي القديم ولى ، وكذلك ولى الأحرار المفلسون

الذين احتقروا العمل على أساس أنه من نصيب العبيد فقط . ووقف
الفلاح الافرنجى فى الوسط بين المستعمر الرومانى والعبد الجديد .
وماتت الذكريات غير النافعة للثقافة الرومانية المضحلة ومات نزاعها الذى
لا هدف له ، وتم دفنها . . ان الطبقات الاجتماعية للقرن التاسع لم تتكون
أثناء تعفن مدنية منهارة بل خلال مولد مدنية جديدة » .

وسرعان ما أثمرت المدنية الجديدة التى شبت من قبر المجتمع
العبودى ، سلسلة من المخترعات الجديدة التى حورت من الأساس
الاقتصادى للحياة . وقد وضع دى نويت فى مقال له فى مجلة « ميركور
دى فرانس (مايو ١٩٣٢) قائمة قصيرة بالمخترعات الأساسية فى العصور
الوسطى . ولقد ذكر من بينها طاحونة الماء التى وان كانت معروفة منذ
القدم الا أنها لم تستعمل الا نادرا (١) . وفيما يلى هذه القائمة :

القرن التاسع . — طاقم السرج الحديد لحصان ركوب بما فى ذلك
السرج والركاب والقرطمة والحدوة الحديدية المثبتة بالمسامير .

القرن العاشر — طاقم السرج الحديد لحصان الجر بما فى ذلك
طوق الكتفين واليد وأداة التوجيه والحدوة .

القرن الثانى عشر — طاحونة الماء ، طاحونة الهواء ، المنشار
الميكانيكى ، الكور والمرزبة ، المنفاخ ذو الألواح الصلبة ، والصمام ،
زجاج النوافذ والنوافذ المصقولة ، المدخنة المنزلية ، الشمعة والشريط
والطرق المرصوفة (٢) ، عجلة اليد .

(١) كما أن ذكره للمسحج عرضة للجدل وتوجد نماذج رومانية
للمسحج فى المتاحف .

(٢) وهى بخلاف الطريقة الرومانية القديمة التى لا تتعدى بناء جدار
سميك فى خندق عمقه ثلاثة او اربعة اقدام واستخدام السطح كطريق للسير .

القرن الثالث عشر — النظارات ، المحراث ذو العجلات والألواح
المصبوبة ، الدفة (١) .

القرن الرابع عشر — البوابات على القنوات ، البارود ، الساعة
القديمة ، المسحج (الفارة) .

القرن الخامس عشر — الطباعة .

وفي مؤلف آخر يعتبر من الأعمال الممتازة في البحث والتحليل
التاريخي ، يناقش دى نويت الآثار الاجتماعية التي ترتبت على هذه
السلسلة من الاختراعات . وهو على حق في تأكيده « أن التكوين
الاجتماعي تغير تغيرا أساسيا بتغير وسائل الإنتاج » . ومما يزيد قوله
هذا أهمية أن اختفاء بقايا النظام العبودي وإبدال العمل الحر بالعمل
الجبري للعبيد في تنفيذ أعمال انشائية ضخمة كانا من بين تغيرات التكوين
الاجتماعي . وأدى هذا الى أن فاق وعي العالم الحديث عن العالم
القديم بدرجة كبيرة لأن « القدماء » ، كما يلاحظ دى نويت ، « كانوا
في الواقع لا يعلمون شيئا عن حقوق الانسان فكل ما كانوا يعرفونه
هو حقوق المواطن » .

وقد تناول باحث أمريكي نفس النقطة وانتهى الى آراء تستحق
التسجيل ، « إن الأثر المتراكم للقوى الحيوانية والمائية والهوائية الجديدة
على ثقافة أوروبا لم يدرس بعناية ، فمنذ ابتداء القرن الثاني عشر بل
وحتى في القرن الحادي عشر ، كان هناك إبدال سريع للطاقة غير
الانسانية بالطاقة الانسانية ، وذلك كلما دعت الحاجة الى كميات هائلة
من القوة ، أو كلما كانت الحركة المطلوبة بسيطة ومملة بحيث يمكن

(١) وهي تختلف عن دفة القارب القديمة .

أن تحل الآلة محل الإنسان . ان المجد الرئيسى للعصور الوسطى المتأخرة لم يكن فى كاتدرائياتها أو ملاحمها أو فلسفاتنا الكلامية ، بل كان فى بنائها لأول مرة فى التاريخ مدنية مركبة تستند أساسا الى قوة غير بشرية لا الى العبيد الكادحين أو الفعلة » (١) .

لقد قيل ان انتقال كتب الاغريق من القسطنطينية الى غربى أوروبا كان السبب فى نشأة علم النهضة وما زال البعض يعتقد بذلك عن سذاجة : ولكن اذا كان هذا هو السبب الوحيد فلماذا لم يولد العلم الحديث فى الاسكندرية أو روما أو القسطنطينية حيث عاشت الكتب القديمة . لابد وأن هناك سببا آخر . ان العلم الاغريقى الرومانى كان بذرة طيبة ولكنها لم تكن لتنبث فى الأرض الحجرية للمجتمع العبودى القديم ، وكان لابد من الثورة التكنيكية للعصور الوسطى لتمهد الأرض فى غربى أوروبا قبل أن تنبت البذرة . وكان لابد كذلك من أجهزة تكنيكية للطباعة حتى تتكاثر البذرة وتنتشر وتصبح الحكمة القديمة محصولا وفيرا .

والبروفسور فاوبست من أحسن من كتب فى هذه النقطة (٢) : « تمتاز شعوب غربى أوروبا بأنها تحيا فى أرض تتوفر فيها أكثر مما تتوفر فى غيرها من أراضى المدينيات الأكثر قدما ، ثلاثة من أهم المصادر الطبيعية للأشكال البسيطة من القوة ، اذ هيا لهم المناخ زراعة أكثر دواما ومكثفهم بهذا من أن يربوا عددا أكبر من حيوانات العمل وزودهم فى جميع الفصول بالرياح الكافية لتسيير السفن فى البحر وطواحين الهواء

(١) لين هوايت الصغير ، التكنيك والاختراع فى العصور الوسطى ، المنظران ، العدد ١٥ ص ١٤١ ف ف .

(٢) أساس الكومونولث فى العالم ، طبعة وائس عام ١٩٤١ ، ص ٣ .

البسيطة على الأرض ، كما مكنتهم وفرة المطر وانعدام الجفاف من أن يحصلوا من أنهارهم على قوة مائية صغيرة ولكنها منتشرة على طول الأنهار . وهكذا ما أن تعلموا كيف يستفيدون من هذه المصادر حتى بنوا مجتمعا تحرر فيه الآدميون من كثير من الكدح . وأدى هذا التقدم التكنيكي الى تغيرات اجتماعية فلم تعد هناك حاجة الى عبيد الحقل أو عبيد السفن واختفت تدريجيا تلك الأشكال الفظة من العمل القسرى وحل محلها تدريجيا نظام الرق والتنظيمات الحرفية التي تحولت فيما بعد الى نظام الأجور في الديموقراطية الرأسمالية الحديثة .

ما يدين به العلم الحديث للعلم القديم

استعاد خالقو العلم الحديث في القرن السادس عشر ، وهم يعملون مرة أخرى في عصر تقدم تكنيكي بدأ يتخلص من الشرور الاجتماعية القديمة ، استعادوا الحماس الانساني والعلمي الذي كان سائدا في أيونيا القديمة . ويخيل إلينا ونحن نقرأ صفحاتهم أننا نتنفس هواء أنقى وأكثر تحررا . عندما كتب أفلاطون جمهوريته الفاضلة كانت تشغله ضرورة كبت قوة العمل العبودي ، أما في يوتوبيا سانت توماس مور فالعمال رجال أحرار والمجتمع منظم لصالحهم . « ان الهدف الأساسي للدستور هو تنظيم العمل بما يتفق واحتياجات الصالح العام ، وبحيث يوفر للناس ما يحتاجونه من وقت لترقية عقولهم ، وفي عمل ما يؤمنون أن فيه سعادتهم » . انه مفهوم جديد لقوة عمل تتوفر معها الاحتياجات الذهنية وعوامل الفرح . لقد كان أفلاطون يقارن بين المجتمع والانسان فيشبهه بالحكام بالرأس ويشبهه البوليس بالصدر ويشبه العمال بالبطن والأحشاء . .. ووجد هذا الاتجاه الجديد تعبيرا متكررا عته في أدب هذا العصر ،

فبينما عبر أرشميدس عن احتقاره لاستعمال العلم استعمالاً مفيداً ، نجد سيمون ستيفن (١٥٤٨ — ١٦٢٠) الذى يسمى بأرشميدس البلاد الواطئة أشد ما يكون تطلعا لأن يكون مفيداً . انه يقدم الى الشعب نظامه العشرى للعد قائلا فى تواضع : « انه ليس بالاختراع العظيم غير أنه مفيد جدا للجميع » .

لم يترك الأقدمون أية رسالة مدروسة عن التعدين . وفى منتصف القرن السادس عشر نشر أجريكولا كتابه « عن التعدين » وفيه شرح واف لعملية استخراج المعادن . ومن المفيد أن تقرأ فى صفحاته الأولى قائمة بالعلوم الأساسية التى يعتبرها ضرورية لهذه الصناعة وهو يكشف عن العلاقة بين نظرية تتطور بسرعة وبين تطبيقاتها العملية ، يفعل ذلك بطريقة يمتاز بها العلم الحديث ، ولكنها غريبة على العلم القديم ابان انهياره . ان دفاعه عن الفائدة الاجتماعية لا يقل روعة عن وضعه للآلات والعمليات .

وسرعان ما عبر هذا الاتجاه عن نفسه فى علم الكيمياء . وبعد أن كان هذا العلم يحيا متواريا لأن الذين يمارسونه — المبيضين والصباعين وصانعى الزجاج والفخار ومركبى العقاقير — كانوا منبوذين من المجتمع ، بدأ يرسى أقدامه كعلم محترم ، وبدأ رواده يعترضون على وصفه كمهنة أولئك الذين لا يأنفون أن يلوثوا أيديهم . ونحن قد أهملنا علم الكيمياء فى كتابنا هذا لأن نشأته غامضة بشكل غير عادى . غير أن الصعاب التى صادفها هذا العلم أثناء ولادته كانت صعبا اجتماعية أكثر منها صعبا كامنة فى طبيعة الموضوع ، وذلك وفق رأى بولس ديموقريط من الأقدمين (٢٠٠ ق . م .) ورأى جون رودلف جلوير من الحديثين (١٦٠٤ — ١٧٠٠ م) . وكان لدى جلوير ، مثل أجريكولا ، شعور حى بما يمكن أن

يؤدي العلم للحياة من خدمات (١) . وعندما برز هذا الجانب من العلم مرة أخرى ، سرعان ما جذب الانتباه الى أثر استخدام العلم في الصناعة على صحة العمال ، وهو أمر لوحظ قديما ولكنه أهمل ، عندما كان العبيد والمذنبون المدانون يرسلون الى المحاجر والمناجم . ولم تكن المهنة الخطرة بوجه عام محل اهتمام جدى من جانب الحكومة . وقد كتب الأطباء الأبقراطيون عن أثر البيئة على الصحة ، غير أنهم كانوا يعنون البيئة الطبيعية فحسب . وكان دور العالم الحديث أن يكشف أن المهنة هي أهم ناحية من نواحي البيئة بالنسبة الى العامل . كان باراسلساس (١٤٩٠ — ١٥٤١ م) أول من لفت النظر الى هذه الثغرة في نظرية الطب القديم ، فهو يتناول ما لمهن عمال المناجم والتعدين من آثار رهيبة على صحتهم ، وكيف أن هذه المهنة تسبب الربو والسل والقيء ، قائلا : « ان الطب القديم خال تماما من أية اشارة الى هذه الأمراض التى ظلت دون علاج حتى يومنا هذا » . واتسع هذا الرأى فيما بعد فشمل كل المهنة المعروفة ، وذلك على يدى راما زينى (١٦٣٣ — ١٧١٤ م) الذى ينافس كتابه الكلاسيكى « أمراض المهنة » أعظم الكتب القديمة من حيث القيمة ومن حيث مستواه الانسانى .

وربما كانت الهزيمة الساحقة التى لحقت بالروح العلمية فى العالم القديم هي انعدام الفكرة التاريخية به . فالتاريخ أكثر العلوم أهمية . وليس ثمة معرفة انسانية الا وتفقد طبيعتها العلمية اذا نسى الناس الظروف التى نشأت فى ظلها المسائل التى حلتها ، والوظيفة التى خلقت من أجلها . ان جزءا كبيرا من غموض الرجال المتعلمين وخرافتهم يتكون

(١) كان يقدر امكانيات التقدم الفنى فى المانيا بشكل عميق شامل .

من معرفة اتزغت من مراسيها التاريخية : من أجل هذا اهتمنا بما كتبه ديموقريط ولو كرتياس عن المدنية معتبرين أنه أهم ما حققه العلم القديم .

ومن الممكن دراسة العملية التي تتحول بها معرفة جيل ما الى خرافة الجيل الذي يليه بالانتقال من دي ريرام فاتورا للوكرتياس الى اينيد لفيرجيل ، ولو أن الدافع وراء حشو فيرجيل لملاحمه بالنبوءات والنذر دافع معقد يستحق دراسة هادئة . ومن الممكن أيضا دراسة هذه العملية في النتائج التي استخلصتها مدرسة الاسكندرية من دراستها للمخطوطات العبرية بعد ترجمتها الى الاغريقية . وقد يتوقع البعض أن امداد الأدب الاغريقى بالسجل التاريخى لشعب غريب كان من شأنه أن يعمق حاستهم التاريخية ، غير أن الواقع هو أن التفسير التاريخى للمخطوطات العبرية هو نتاج العصور الحديثة . فالعالم الكلاسيكى جعل من تاريخه طلسمًا قبل أن يلم بالعهد القديم ، كما أنه فسره تفسيرًا غير تاريخى منذ البداية . ولا يمكن للمرء أن يكون أكثر ثقافة من أوريجن (١٨٦ - ٢٥٤ م) الذى طبق كل مصادر البحث الاسكندري على أعمال النقد الانجيلي ، غير أنه كان يفتقد الحاسة التاريخية ، ومن ثم فإن تفسيراته غير مستندة الى أساس . وما فقدته التاريخ كسبه اللاهوت ، وكان أن تضاعف دور التاريخ الانسانى فى الدراما الكونية . وكانت الأحداث الحقيقية هي تمرد الملائكة والخلق والخروج من الجنة والخلاص والعصر الألفى والقصاص الأخير . وتقلص الزمن وقد تاه فى هذه الأسرار الى حدود ستة آلاف عام . ولم يكن للتاريخ الانبىائى مغزى الا فى غلاقتة بالاطار الاستعلائى الذى كان يحويه .

وكان أعظم ما حققه العلم الحديث هو ولادة الشعور التاريخي من جديد . وهذا موضوع لا نستطيع أن نجوؤ فيه هنا ، غير أن إشارة قصيرة إليه تصلح لأن تكون خاتمة لكتابنا . سبق أن ذكرنا أسماء لبعض كبار مؤسسى العلم الحديث — كوبرنيكوس ، فيساليوس ، جاليليو ، ستيفن وغيرهم . وكان فرانسيس بيكون (١٥٦١ — ١٦٢٦ م) الانجليزى خير من عبر عن روح هذا العصر فقد أضفى على مسألة احياء العلم كلها شعورا تاريخيا عميقا ليس غريبا على عصره ، وان لم يفهمه خلفاؤه الا قليلا . ان كتاباته فى مجموعها ليست سوى تعليق ضخم على تاريخ الانسانية ، يقوم على أساس أن التاريخ الحقيقى للانسانية ليس سوى تاريخ انتصار الانسان على بيئته . وكان موضوعه كما حددده هو ، فهم الطبيعة وسيادة الانسان عليها . ونفذ خلال قناع السياسة الى الواقع الاقتصادي وحكم على ما حققه الانسان فى الماضى ، وما ينتظر أن يحققه فى المستقبل فى ضوء سيطرته على الطبيعة ، غير منكر النواحي الأخرى الثقافية وان أرجعها الى هذه الحقيقة الأساسية .

وان ادراك واقع العصر وحقيقة التغير التاريخى وأثر الانسان على مصيره كانت من سمات فلسفة فايكو العميقة (١٦٦٨ — ١٧٤٤ م) ، وهو الذى جعل من التاريخ علما حديثا ، نتيجة ايمانه أن الانسان يصنع تاريخه . ولئن كان سيكون قد أستشف أن الانسان يصنع تاريخه العقلى أثناء سيطرته على العالم المحيط به ، فان فايكو فاقه عندما أدرك أن هذا هو دور المجتمع لا الفرد ، وتبين فى الشرائع الأساسية للمجتمع الانسانى الأدوات التى استخدمها الانسان ليتحول من وحش الى كائن متمدن . وجاء بعد ذلك عدد من الفلاسفة ، وعلى الأخص هيغل وماركس فقاموا بتعميق هذه الأفكار وتطويرها حتى أصبحت معاول ثمينة فى

يدى الانسان يستطيع بها أن يعمل فى وعى من أجل اصلاح مجتمعه .
فى ضوء هذه المفاهيم يكتسب تاريخ العلم أهمية جديدة ولا يعود
مجرد تاريخ فرع من الفروع المتعددة للمعرفة الانسانية ، بل مفتاحا
جوهريا للعملية التى يحقق بها الانسان انتقاله من المملكة الحيوانية الى
المملكة الانسانية . وما كتبنا هذا البحث الا اعتقادا منا بأن فهم
أية مرحلة من مراحل هذه الرحلة الطويلة لا بد وأن يساعد على بلوغ
الهدف النهائى .

الإشراف اللغوي: حسام عبد العزيز
الإشراف الفني: حسن كامل
التصميم الأساسي للغلاف: أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوع

